موسوعة عباقرة الإسلام

في النحو واللغة والفقه

الدكتور رحاب خضر عكاوي

الجزء الثالث



دار الفكر العربي بيروت

موسوعة

عباقرة الإسلام

موسوعة

عباقرة الإسلام

في النحو واللغة والفقه

الدكتور رحاب خضر عكاوي

الجزء الثالث



دار الفكر العربي

بيروت



دار الفكر العربي

للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - مقابل بنك بيروت والرياض

بناية ميدواي سنتر - طابق ٥ - هاتف ٨١٧٢٨٨

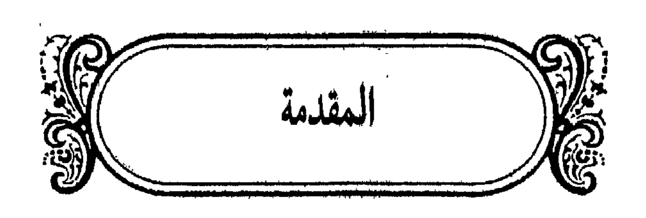
ص.ب ١٤/٥٠٧٠٤ - بيروت، لبنان

الطبعة الاولى ١٩٩٣

الإهداء

إلى النور
الذي يضيء
ليَ العالمَ كلَّه
أُمّي

رحاب



المقدمة

لمّا كان أسنى المقاصد وأجلّ الفوائد التعريف بعظماء الإسلام في حقول العلم والأدب، والكشف على مآثرهم لذوي البحث والطلب، وإتماماً لما كنّا بدأنا به في الكتاب الأول من هذه الموسوعة الإسلامية المبسطة، من إبراز كنوز عباقرة العرب المسلمين في مختلف حقول المعرفة، فإننا جهدنا في إخراج الكتاب الثالث، وحذونا فيه حذو الكتابين السابقين، فاخترنا من علوم المسلمين علوماً ثلاثة هي النحو واللغة والفقه.

ففي النحو وهو العلم الذي كان الأساس الذي قامت عليه مدارسنا النحوية ومجامعنا اللغوية، جمعنا في كتابنا أساطين النحو من المدرستين البصرية والكوفية، وبعض أعلام المدرسة البغدادية، لما كان من اجتهاد عباقرة هاتين المدرستين في تدوين قواعد النحو وتسطير أصوله، وحفظ لغتنا من شيوع اللحن على ألسنة العامة والخاصّة. وقد ترك لنا هؤلاء النحويون مادة غزيرة استوعبت اللغة العربية ـ على اتساعها ـ وحفظت لنا الأصول الأولى والفصاحة التي عرفها العرب الأوّلون.

ثم أتبعنا النحو فصل جمع اللغة، فعملنا على بيان مجامع اللغة التي حفظت لغة القرآن الكريم، وهي لغة الأعراب في فصاحتها وغريبها وشواذّها وشواردها، وبينّا ما عاناه عباقرة هذه اللغة من الجهد في طلب مادتها والسماع من فصحائها، والرحيل في طلب غريبها ونادرها، فكان كل عبقري من عباقرتها يحاول استكمال النقص، ويعمل على ترتيب مادة معجمه في سبيل تيسير الانتفاع بها والإحاطة بما يريد منها.

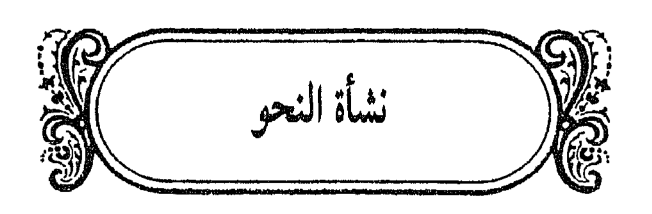
وقد كان الخليل بن أحمد رائد هذا العلم وواضع معجم العين الذي يعد أول معجم عربي سلك سبيله المتأخرون فأجادوا وأوسعوا اللغة بحثاً وتدقيقاً، وأفرغوا جهدهم في ترتيب معاجمهم على نحو أثرى خزائن الأدب بمؤلفات أجمع الباحثون على اعتبارها صحاح اللغة واللسن العربي الفصيح. فكان لنا وقفات مع القاموس واللسان والجمهرة والتاج والعباب وغيرها من تراث اللغويين العباقرة.

وكان الفصل الأخير من الكتاب الثالث تعريفاً ببعض عباقرة الفقه المحدثين، الذين حفظوا لنا أحاديث الرسول ﷺ، وكانت رحلتهم في طلب الحديث من رجاله تعد من الجهاد في سبيل الدين الحنيف، فكان الفقيه منهم يقضي الشطر الأكبر من عمره حاملاً عصا الترحال، لا يني ولا يفتر في جمع ما أمكنه من أقوال النبي ﷺ من رجال وشيوخ حفظوه في صدورهم وتوارثوه عن التابعين عن الصحابة رضي الله عنهم. وكانت كتبهم التي دونوها مدارس فقهية أنارت لنا معالم الدين والدنيا ووضعت لنا القواعد القويمة في حياتنا ومعاملاتنا.

وإذا كان الفقيه هو العالم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، يقابله المحدث الذي يجمع الحديث، وذاك يستنبط منه، فإننا في هذا القسم تكلمنا عن الفقهاء المحدثين، فالمحدث لا يكون إلّا فقيهاً، والفقيه هو المحدث الذي يجمع ويدون ويفتي ويرشد إلى صحيح العمل من صحيح القول.

والله نسأل في ختام عملنا هذا أن نتمكن من إلقاء المزيد من الضوء على هؤلاء العباقرة الذين يفخر بهم الإسلام والمسلمون، إنّه السميع المجيب.

د. رحاب عكاوي
١٩٩٣/٧/١٢



نشأة النحو

كان من البواعث التي دفعت إلى وضع علم النحو أنّ العرب كانوا يعتزّون بلغتهم اعتزازاً كبيراً، وهو اعتزاز جعلهم يخشون على هذه اللغة من الفساد واللحن حين اختلطوا بالأعاجم، مما جعلهم ينهضون لرسم أوضاعها خوفاً عليها من الفناء والانصهار في لغات الأمم الأعجمية. أضف إلى ذلك حرص العرب على أداء نصوص القرآن الكريم أداءً فصيحاً سليماً، خصوصاً بعد أن أخذ اللحن يشيع على الألسنة، وكان قد أخذ في الظهور منذ حياة الرسول ﷺ، فقد رُوي أن النبي ﷺ سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال: «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضلّ». ورُوي أيضاً أن الخليفة عمر بن الخطاب بعث إليه بعض ولاته كتاباً فيه بعض اللحن، فكتب إليه عمر: «أن قنع كاتبك سوطاً». وعن أبي الأسود الدؤلي أنه دخل على الإمام علي بن أبي طالب يوماً وهو بالعراق فرآه مطرقاً مفكراً، فسأله فيم يفكر، فقال له: سمعت ببلدكم لحناً، فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية. وأتاه بعد أيام فألقى إليه صحيفة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسّمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل... ثم قال له: انح هذا النحو. ومن أجل ذلك سُمّي العلم باسم النحو.

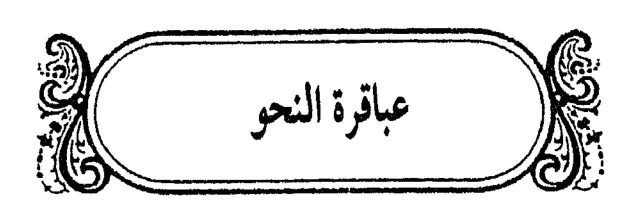
إلى هذه البواعث انضمت بواعث أخرى، بعضها قومي عربي يرجع إلى أن العرب الذين نزلوا الأمصار الإسلامية ـ بعد الفتوح ـ أخذت سلائقهم تضعف لبعدهم عن ينابيع اللغة الفصيحة حتى عند بلغائهم وخطبائهم المفوهين، ومن ذلك ما يُروى عن الحجاج أنه سأل يحيى بن يَعْمر هل يلحن في بعض نطقه،

فصارحه يحيى أنه يلحن في حرف من القرآن الكريم، إذ كان يقرأ قوله عزّ وجلّ ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم﴾ إلى قوله تعالى ﴿أحبّ﴾ بضم أحبّ والوجه أن تقرأ بالنصب خبراً لكان لا بالرفع. وإذا كان الحجاج وهو الخطيب المفوه صاحب البيان والبلاغة والفصاحة يلحن في حرف من القرآن، فاللحن أعمّ عند العرب الذين نزلوا المدن ولم تكن لهم ملكته البيانية. ثم ازداد هذا اللحن انتشاراً على ألسنة أبنائهم الذين لم ينشأوا مثلهم في البوادي ولم يأخذوا الفصحى من ينابيعها، فهم نشأوا في الحواضر واختلطوا بالأعاجم اختلاطاً أدخل اللحن على ألسنتهم وأوهن من فصاحتهم على نحو ما هو معروف عن الوليد بن عبد الملك وكثرة ما كان يجري على لسانه من لحن. وكان الكثير من أبناء العرب ولدوا لأمهات أجنبيات أو أعجميات.

هذه الأسباب والبواعث مجتمعة جعلت الحاجة ماسة إلى وضع قواعد يعرف بها الصواب من الخطإ في الكلام خوف شيوع اللحن في تلاوة القرآن ولفظ العربية. إلى جانب هذا كله برزت بواعث اجتماعية ترجع إلى أن الشعوب المستعربة أحسّت الحاجة الشديدة إلى من يرسم لها أوضاع اللغة العربية في إعرابها وتصريفها حتى تتمثّلها تمثّلاً مستقيماً وتتقن النطق بأساليبها نطقاً سليماً. وإنما دفع الأعاجم إلى العربية أولاً رغبتهم في أن يدرسوا القرآن ويشغلوا المناصب الإدارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم، يضاف إلى ذلك أن الشقة كانت تتسع بين لغة القرآن والفصحى واللهجات العامية فاقتضى الاتجاه إلى وضع علم النحو.

وقد قيّض للبصرة أن تكون مدرسة النحو الأولى، فيما كانت الكوفة عاكفة على قراءات الذكر الحكيم ورواية الشعر والأخبار، وقلما نظرت في قواعد النحو إلّا ما سقط إلى بعض أساتذتها من نحاة البصرة إذ كانوا يتتلمذون لهم ويختلفون إلى مجالس محاضراتهم وإملاءاتهم. وقد عرف الرواة المتقدمون ذلك معرفة دقيقة، ونصوا عليه بعبارات صريحة، فممّا قاله ابن سلام: «وكان لأهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية». ويقول ابن النديم أيضاً في حديثه عن نحاة البصرة والكوفة: «إنما قدمنا البصريين أولاً لأن علم العربية عنهم أخذ».

والظاهر أن اتصال البصرة بالثقافات الأجنبية والفكر اليوناني وما وصفه أرسطوطاليس من المنطق وحدوده وأقيسته كان من أسباب سبق البصريين في النحو، فقد اعتنت الكوفة بالفقه بينما عُنِيت البصرة بعلم الكلام. ولذلك تركت الكوفة للبصرة وضع نقط الإعراب في الذكر الحكيم ووضع نقط الإعجام والأنظار النحوية الأولى التي تبلورت عند ابن أبي إسحاق، إذ كانت في شغل عن كل ذلك بالفقه ووضع أصوله وأقيسته وفتاواه، وبالقراءات وروايتها رواية دقيقة مما جعلها تحظى بمذهب فقهي (مذهب أبي حنيفة) وبثلاثة من القراء السبعة هم عاصم وحمزة والكسائي. وإنما يبدأ النحو الكوفي بدءاً حقيقاً بالكسائي وتلميذه الفراء، فهما اللذان رسما صورته ووضعا أصوله وأسسه، وأعدّاه ليكون نحواً خاصاً مستقلاً عن النحو البصري.



عباقرة النحو

أبو الأسود الدؤلي

١٦ ق. هـ - ٦٩ هـ

أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حِلْس بن نُفاثة بن عديّ بن الدُّؤل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار، وأمه الطويلة من بني عبد الدار بن قصيّ. أمّا الدؤلي، بضم الدال وفتح الواو وهمزها وفي آخرها اللام، فهي نسبة إلى الدُّؤل، قال المبرّد: الدؤلي، مضمومة الدال مفتوحة الواو، من الدُّئِل بضم الدال وكسر الياء، وهو دابة، ويقال في نسبة أبي الأسود: الدؤلي، وامتنعوا أن يقولوا الدئلي لئلا يوالوا بين الكسرات. وفي العرب الديل والدول والدئل: الدول من حنيفة، والدئل من بني بكر بن كنانة، وهي أسرة أبي الأسود، ولهذا فقد يلقب أبو الأسود بالكناني نسبة إلى جده هذا، والديل من بني شنّ من قبائل عبد قيس.

ولد ظالم بن عمرو في الجاهلية[٢] قبل النبوة الكريمة بثلاث سنين، وقد ذهب معظم المؤرخين إلى أن سنه حينما أدركته المنية عام ٦٩ هـ كانت خمساً وثمانين سنة، فتكون على هذا ولادته قبل الهجرة بستة عشر عاماً. أدرك الرسول ﷺ، وروي أنه «كان ممّن أسلم على عهد النبي ﷺ»[٢] وروى أبو عبيدة أنه شهد بدراً مع المسلمين ولم يذكر ذلك غيره.

هاجر إلى البصرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وسكن فيها وله فيها مسجد باسمه. شهد وقعة الجمل وصفين مع الإمام علي، وروى المؤرخون أن عثمان بن حنيف، عامل علي على البصرة، كان قد أوفد أبا الأسود للمفاوضة في

(١) انظر الإصابة لابن حجر ٢: ٢٣٣.

(٢) انظر جمع الجواهر للقيرواني، تحقيق د. رحاب عكاوي ص ٢٤٤.

أيام حرب الجمل، لأنه كان رجل خاصة على حد تعبير الطبري في تاريخه، كما ذكروا أنه كان على رأس الجيش الذي أرسله عبدالله بن عباس لقتال خوارج البصرة.

ولي قضاء البصرة، وأكدت بعض المصادر أن الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان قد استعملا أبا الأسود، وذكرت أيضاً أن عبدالله بن عامر والي عثمان على البصرة كان قد استخلف أبا الأسود لما توجه إلى خراسان. كما ذكر أن الإمام عليّاً قد ولى أبا الأسود البصرة، والمرجح أن أبا الأسود إنما خلف الوالي عبد الله بن عباس عندما شخص إلى الحجاز، ثم أقرّ الإمام علي هذا الاستخلاف، فبقي أبو الأسود إلى أن قتل علي. ويقول المبرّد: إن أبا الأسود كان من كتاب علي ولا يزيد[1].

قال عنه الجاحظ[2]: «كان حكيماً أديباً وداهياً أريباً».

«كان قد جمع شدة العقل وصواب الرأي وجودة اللسان وقول الشعر والظّرف[3]»، و «كان من المقدّمين في العلم».

أخذ أبو الأسود علم الفقه والنحو عن الإمام علي، وروى الحديث عنه وعن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس وأبي ذر الغفاري، وذكر بعض المؤرخين أنه يروي عن عبدالله بن مسعود والزبير وأبي بن كعب ومعاذ وأبي موسى وعمران بن حصين أيضاً.

وعنه أخذ النحو عدد من التلاميذ ورووا عنه، وكان منهم: أبو حرب بن أبي الأسود، وحمران بن أعين، وسعد الرابية، وسعيد بن عبدالرحمن بن رقيش، وعبد الرحمن بن هرمز، وعبدالله بن بريدة، وعطاء بن أبي الأسود، وعمر مولى عفرة، وعنبسة بن معدان الفيل، وميمون الأقرن، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر[4].

---

(١) الكامل ص ٣٤١ ج ١.

(٢) البخلاء ص ١٤.

(٣) البيان والتبيين ١: ٢٥٨.

(٤) انظر الفهرست ٤٦ ـ ٤٧.

كان أبو الأسود الدؤلي أوّل من نقط المصاحف. فقد روى المؤرخون أنه «أُحضر إليه ثلاثون رجلاً لمعاونته على هذه المهمة، فاختار منهم عشرة، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار رجلاً من عبد القيس فقال: خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المواد، فإذا فتحت شفتيّ فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن أتبعتُ شيئاً من هذه الحركات غُنّةً فانقط نقطتين. فابتدأ المصحف حتى أتى به على آخره، ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك.

ثم إن أبا الأسود كان أوّل من أسّس العربية ونهج سُبلها ووضع قياسها[٢]. وهو أول من عمل في النحو كتاباً، وقد عمل ذلك كله بتلقين من الإمام علي عليه السلام، والذي يعد بحق أول من وضع النحو وسنّ العربية. فالروايات كلها تسند إلى أبي الأسود وأبو الأسود يسند إلى علي. وقد رُوِي عن أبي الأسود أنه قيل له: من أين لك هذا العلم؟ فقال: لُقنت حدوده من علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ وفي رواية أخرى: ألقى إليّ عليٌّ أصولاً احتذيت عليها.

وكان من جملة تلك الأصول[٢] ـ في رواية ياقوت ـ ما حدّث به أبو الأسود نفسه قال: «دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ فرأيته مطرقاً مفكراً، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. فقلت: إن فعلت هذا يا أمير المؤمنين أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة ثم أتيته بعد أيام، فألقى إليّ صحيفة فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام كله اسم وفعل وحرف: والاسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنىً ليس باسم ولا فعل.

ثم قال لي: تتبّعهُ وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر.

قال: «فجمعت منه أشياء وعرضتها عليه، وكان من ذلك حروف النصب،

---

(١) أسد الغابة ٣: ٧.

(٢) ديوان أبي الأسود ص ١٩.

فكان منها: إن وأن وليت ولعل وكأن، ولم أذكر لكن، فقال لي: لِمَ تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بل هي منها فزدها فيها[1]».

يقول أبو الأسود: «واستأذنته أن أصنع نحو ما صنع، فسُمي ذلك نحواً[2]».

وكان أول ما وضع أبو الأسود باب الفاعل والمفعول.

وعلى الرغم من اتفاق المعنيين من السلف وتضافر نصوصهم على تأكيد هذه الحقيقة، حتى عدّها ابن فارس من متواتر الروايات، نجد بين الكتّاب المتأخرين من شك في ذلك. فهم يزعمون أن أبا الأسود أعرب المصحف بالنقط فقط، وادّعوا أنه لا يعرف من النحو شيئاً أو أي مصطلح نحوي. على أن هناك حقيقتين دامغتين تثبتان أسبقيته[3]:

الأولى: كثرة الروايات التي جاءت بنسبة النحو إلى أبي الأسود، حتى قاربت الإجماع، وبعض هذه الروايات لمؤرخين كانوا قريبي العهد إلى عصر أبي الأسود، وقد يكون ما رُوي نقل طبقة عن أخرى، ولم تتعدد هذه الطبقات لينفذ إليها الشك.

الثانية: ما ذكره النحاة في كتبهم من ذكر اصطلاحات نحوية وقواعد عرفت بالنقل عن البادئين الأولين، والناقلون هم من أوثق الثقات كالخليل بن أحمد وأبي عمرو بن العلاء، فقد درس هؤلاء على رجال الطبقة النحوية الثانية وعلى رأسهم عيسى بن عمر الثقفي وابن أبي إسحاق الحضرمي الذين أخذوا من تلامذة أبي الأسود، ونقلوا الرّواية عنه ودرسوا كتبهم وما وضعوا. فعيسى بن عمر وضع كثيراً من الكتب منها الجامع والإكمال، وابن أبي إسحاق وضع كتاباً في الهمز، وأخذوا النحو عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم والأخفش الأكبر وعنبسة وميمون الأقرن وهم من تلامذة أبي الأسود الدؤلي، ونقلوا رواياتهم عنه مشافهة ودونوا ذلك في كتبهم. يضاف إلى هاتين الحقيقتين أن كتاب سيبويه يروي عن السابقين، فإذا روى عن بعضهم فقد يصل السند إلى أبي الأسود وينتهي عنده، وهذا يدل على أنه كان

---

(١) إرشاد الأريب ١٤: ٤٩ - ٥٠، وإنباه الرواة ١: ٤.

(٢) الفهرست ٦٠، وفيات الأعيان ٢: ٢١٧.

(٣) راجع ديوان أبي الأسود، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، ص ٢١.

واضع علم النحو الأول، ويدل أيضاً أن أبا الأسود وضع غير قليل من هذه المصطلحات النحوية وأسماء للمرفوعات والمنصوبات والمجرورات وللأفعال والأدوات. وعلى هذا يكون أبو الأسود واضع القواعد الأساسية الكلية، فجاء بعده من توسع في هذا العلم وفرّع وأكثر العلل والقياس حتى تكامل ونضج.

وفاته:

توفي أبو الأسود في الطاعون الجارف سنة ٦٩ هـ بالبصرة وهو ابن خمس وثمانين سنة. وقيل مات بعلة الفالج قبل الطاعون، وقد صحح ياقوت وفاته سنة ٦٧ هـ.

وكان له من الأولاد عطاء وحرب (أو أبو حرب) وابنتان[1].

---

(١) إنباه الرواة ١: ٢١ و٢: ٣٠٨.

أبو عمرو بن العلاء

٧٠ - ١٥٤ هـ

زبّان بن عمّار التميمي المازني البصري، أبو عمرو، و يلقب أبوه بالعلاء. اختلف في اسمه اختلافاً كثيراً، ومنهم من قال: اسمه كنيته. ويروى أن الفرزدق جاء معتذراً إليه من أجل هجوٍ بلغه عنه، فقال له أبو عمرو:

هجوتَ زبّانَ ثم جئتَ معتذراً　　من هجو زبّانَ لِمْ تهجو ولمْ تدعُ

فهذا يدل على أنّ اسمه الزبّان.

وقد اختلف في اسمه على عشرين قولاً[1]: الزبان، العريان، يحيى، محبوب، جنيد، عيينة، عتيبة، عثمان، غنار، جبر، خير، جزء، حميد، حماد، عقبة، عمار، فايد، محمد، أبو عمرو، قبيصة، والصحيح زبان.

قرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد، وقيل على أبي العالية الرياحي وعلى جماعة سواهم، وكان لجلالته لا يسأل عن اسمه، وكان نقش خاتمه:

وإنّ امرءاً دنياه أكبر همّه　　لمستمسك منها بحبل غرور

وحدّث عن أنس بن مالك وأبي صالح السّمان، وعطاء بن أبي رباح وطائفة سواهم، وكان رأساً في العلم في أيام الحسن البصري.

قال أبو عبيدة: أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية والشعر وأيام العرب، وكانت دفاتره ملء بيت إلى السقف، ثم تنسّك فأحرقها.

قال ابن معين: ثقة، وقال أبو حاتم: ليس به بأس.

---

(١) عند ياقوت ٢١ قولاً، وانظر فوات الوفيات ٢ : ٢٨.

ولد بمكة سنة ٧٠ هـ، ونشأ بالبصرة. أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثي، وأخذ عن يونس بن حبيب البصري والخليل بن أحمد وأبي محمد يحيى بن المبارك اليزيديّ. وكان يونس بن حبيب يقول: لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء، كان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو بن العلاء كله في العربية، ولكن ليس من أحد إلاّ وأنت آخذ من قوله وتارك[1].

وروى الأصمعي عن الخليل بن أحمد عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: أكثر من تزندق بالعراق لجهلهم بالعربية.

وحكى الأصمعي قال: غدوت ذات يوم إلى زيارة صديق لي، فلقيني أبو عمرو بن العلاء، فقال: إلى أين يا أصمعي؟ قلت: لزيارة صديق لي. فقال: إن كان لفائدة أو لمائدة أو لعائدة، وإلاّ فلا.

ورُوي أنه سئل عن قوله تعالى ﴿وعزّزناه بثالث﴾[2] فقال: المعنى شَدْدنا، وأنشد:

أُجُدٌّ إذا ضمرت تعزّز لحمها ... وإذا تشدُّ بنِسعها لا تنبِسُ

ويُروى عن أبي عمرو، قال: كنتُ هارباً من الحجاج بن يوسف، وكان يشتبه عليّ «فرجة» هل هي بالفتح أم بالضمّ؟ فسمعت قائلاً يقول:

ربّما تجزع النفوس من الأمـ ... ـر لهُ فَرْجة كحلِّ العقال

بفتح الفاء في فرجة، ثم قال: ألاّ إنه قد مات الحجاج، قال: فما كنت أدري بأيّهما كنت أشدّ فرحاً، بقوله: فَرجة، أو بقوله: مات الحجاج!.

ويُروى أن أبا عمرو سأل أبا خيرة ـ نهشل بن زيد ـ عن قولهم: «استأصل الله عَرْقاتِهم»، فنصب أبو خيرة التاء من عرقاتهم، فقال أبو عمرو: هيهات يا أبا خيرة! لان جلدُك! وذلك أنّ أبا عمرو استضعف النصب لأنه كان قد سمعها منه بالجرّ، وكان أبو عمرو بعد ذلك يرويها بالنصب والجرّ.

وحكى يونس بن حبيب البصري عن أبي عمرو أنه قال: ما انتهى إليكم مما قالت العربُ إلاّ أقلّه ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير.

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٥.

(٢) سورة يٰس آية ١٤.

وقال إبراهيم الحربيّ: كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء إلّا أربعة، فإنهم كانوا أصحاب سنّة: أبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب البصري والأصمعي.

وأخذ عنه الأدب وغيره طائفة منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى ومعاذ بن مسلم النحوي وغيرهم وروى عنه الحروف سيبويه.

حكى الأصمعي قال: أنشدنا أبو عمرو:

فما جبنوا أنّا نشدّ عليهم ولكن رأوا ناراً تُحشُّ وتسفعُ

قال: فذكرت ذلك لشعبة بن الحجاج، فقال: ويلك! إنما هو تحسُّ وتسفع، أي تحرق وتسوّد.

قال الأصمعي: وقد أصاب أبو عمرو، لأن معنى تحش: توقد، وأصاب شُعبة أيضاً. وروى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء، قال: سمعت أعرابياً يقول: فلان لغوب، جاءته كتابي فاختصرها، قال: فقلت له: أتقول: جاءته كتابي! فقال: أليس بصحيفة فحمله على المعنى.

وكانت وفاة أبي عمرو بن العلاء بالكوفة سنة ١٥٤ هـ في خلافة المنصور.

سيبويه

ـ ١٨٠ هـ

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، وهي نسبة إلى الحارث بن كعب، من قبيلة يمنية، وهذه النسبة بالولاء، فقد كان أبو بشر فارسياً، ولعله ولاء بالإسلام، فقد يكون جد من أجداده الفرس اعتنق الإسلام على يد رجل من هذه القبيلة التي انتسب إليها فيما بعد. والمرجح، على ما جاء في المصادر، أن يكون قنبر أول من أسلم من آبائه في عهد الخليفة الإمام علي رضي الله عنه.

أما لقبه «سيبويه» فهو فارسي الأصل، مركب مزجي من سيب أي التفاح وبوي أي الرائحة، ومعناه رائحة التفاح على أساس الإضافة في اللسان الفارسي. وقد قيل: سمي سيبويه لطيب رائحته، أو لجمال خلقته وحسن خلقه. وقيل أيضاً إن سيبويه مركب من سيب: تفاح وويه أي اسم صوت. وقد ذكر بعض المتمكنين من الفارسية أن ويه تعني مثل وشبه، فمعنى التركيب المزجي! مثل التفاح.

ولفظ سيبويه معروف، فهو بفتح الباء والواو والهاء مكسورة، وقد يلفظ بضم الباء وفتح الياء وسكون الهاء «سيبُويَهْ» في لسان العجم.

ولد عمرو بن عثمان في البيضاء من كورة إصطخر بفارس من أبوين فارسيين. ولم تذكر المصادر سنة ولادته، فقد اختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته، وكذلك في سنة وفاته.

ومن البيضاء انتقل إلى البصرة حيث مبادىء العلوم فيها، وكانت البصرة إذ ذاك مدرسة النحو واللغة والأدب إلى جانب أختها الكوفة. لم يرد ذكر أحد من أسرته في خلال رحيله إلى البصرة، وما إذا كانت هذه الأسرة قد انتقلت معه، أم بقيت في البيضاء، ولكن المشهور أن سيبويه توفي بين يدي أخيه. كذلك لم يذكر

أبوه في أثناء إقامته بالبصرة، على أننا نسمع بشار بن برد يهجو عمراً حين ذاع صيته، فيقول:

ظللت تغني سادراً في مساءتي وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ

فمن خلال شعر بشار يتوضح أن والدته كانت إلى جانب ابنها في البصرة.

ولا يعلم له زوجة، غير أن الفراء يذكر أن سيبويه كانت له جارية تخدمه[1].

وذكر ابن قاضي شهبة[2] أن جاريته مزقت جزازات كتابه فطلقها. فلا نعلم إن كان يريد بجاريته زوجته، أو أنه طلقها أي أخرجها من بيته وباعها. ومن المرجح أنه لم يتزوج ولم يخلف ولداً، فبعد أن أحبط في مناظرته في بغداد مع الكسائي، لم يعد إلى داره بالبصرة، بل ولّى صوب فارس.

أخذ عمرو بن عثمان في البصرة علم الحديث والرواية عن حمّاد بن سلمة، وكان شيخ الحديث والرواية في عصره. يقول فيه أبو محمد اليزيدي: [3].

يا طالب النحو ألا فابكه بعد أبي عمرو وحماد

اختلف إذاً سيبوبه إلى حماد بن سلمة يقرأ عليه الحديث ويرويه عنه. وفي مرة بينا سيبويه يستملي عليه ألقى عليه حماد الحديث: قال رسول الله ﷺ: ما من أحد من أصحابي إلاّ وقد أخذت عليه ليس أبا الدرداء. فقال سيبويه، وكان قد بدأ بتحصيل علم النحو، ليس أبو الدرداء. فقال له حماد: لحنت يا سيبويه. فقال: لا جرمَ لأطلبنَّ علماً لا تلحنني فيه أبداً. ومن ثمّ اتجه إلى درس النحو فلزم الخليل بن أحمد. والذي لحن فيه سيبويه أنه توهّم أن الواجب رفع ما بعد ليس ليكون اسماً لها وما كان عرف بعد عمل ليس في الاستثناء. ولعل هذا ما دفعه بعد ذلك إلى عرض أسلوب ليس هذا في «الكتاب» فأشبعه تعليلاً وتوضيحاً.

ويروى أيضاً أن سيبويه جاء حماد بن سلمة يوماً، فقال له: أحدّثك هشام بن عروة عن أبيه في رجل رعُف - بضم العين - في الصلاة؟ فقال حمّاد: أخطأت إنما هو رعَف - بفتح العين - فانصرف سيبويه وأتى أستاذه الخليل فشكا

(١) إرشاد الأريب ١: ١٣٨.

(٢) طبقات النحاة ج ٢ ص ٢١٠.

(٣) تهذيب التهذيب ٣: ١٣.

إليه ما وجده من حماد بن سلمة فقال الخليل صدق حماد، ومثل حماد يقول هذا[1].

عمد سيبويه بعد هذه الحادثة إلى النحو يعبّ من بحره ويأخذ عن شيوخه ولا سيما أستاذه الخليل بن أحمد. والواضح أنه لم يكتف بالأخذ عن حمّاد بن سلمة، ذلك أنه لم يشبع رغبته في تحصيل عويص النحو ودقيقه، مع أن حماداً كان كما روى يونس بن حبيب: أول من تعلمت منه النحو حماد.

ولهذا فقد أخذ النحو عن عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب، والأخفش الكبير أبي الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد، ويذكر أبو زيد الأنصاري أن سيبويه أخذ عنه، وأنه إذا قال سيبويه: أخبرني الثقة فإنما يعنيه، ثم أخذ سيبويه عن غيرهم. يقول سيبويه[2]: «هذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء». ويذكر سيبويه في القراءات ممن أخذ عنهم هارون بن موسى الأعور، وكان أول من سمع بالبصرة وجوه القراءات وألّفها وتتبع الشاذ منها.

وكان أكثر تلقي سيبويه عن الخليل بن أحمد، حتى إنه إذا قال في كتابه: قال أو سألته فإنّه يعني الخليل. وكان أستاذه الخليل قد عرف قدره وقوة فطنته، فأبثه علمه ونصح له في التعليم. قال بعض من كان يختلف إلى الخليل: كنت عند الخليل فأقبل سيبويه فقال: مرحباً بزائر لا يملّ. ويقال: وما سمعت الخليل يقولها لغيره.

كان سيبويه ثاقب الذهن، مستقل الرأي، ذا بصيرة نفاذة، وكان إلى هذا يناقش أساتذته وينقدهم ويخالفهم في بعض المسائل، حتى إن البعض منهم كان يتحاشى مساءلته لقوة مناظرته وحجته وذكائه.

حدّث الأخفش قال: كنت عند يونس فقيل له: قد أقبل سيبويه، فقال: أعوذ بالله منه، فجاء فسأله فقال: كيف تقول: مررت به المسكين؟ فقال: جائز أن أجرّه على البديل من الهاء. فقال له: فمررت به المسكينُ بالرفع ـ على معنى: المسكينُ مررت به. فقال: هذا خطأ لأن المضمر قبل الظاهر. فقال له: إن الخليل أجاز ذلك وأنشد فيه أبياتاً. فقال: هو خطأ. قال: فمررت به المسكينَ ـ

---

(1) قال الزبيدي: «ورعُف لغة ضعيفة».

(2) الكتاب ٢: ٤٢.

بالنصب ـ فقال: جائز. فقال: على أي شيء؟ قال: على الحال. فقال سيبويه: أليس أنك أخبرتني أن الحال لا تكون بالألف واللام. فقال: صدقت. ثم قال لسيبويه: فما قال صاحبك فيه؟ أي الخليل، فقال سيبويه: قال لي إنه ينصب على الترحّم. فقال: ما أحسن هذا! ورأيته مغموماً بقوله: نصبته على الحال.

هذا وكان سيبويه مع تقديره واحترامه لأستاذه الخليل كثيراً ما يمتحن آراءه، وذلك بموافقة كلام العرب له أو مخالفته. يقول في كتابه[1] «والذي ذكرت لك قول الخليل. ورأينا العرب توافقه بعدما سمعناه منه».

ثم يقول عنه أيضاً[2]: «وزعم الخليل أنه يجوز أن يقول الرجل: هذا رجل أخو زيد، إذا أردت أن تشبه بأخي زيد. وهذا قبيح ضعيف لا يجوز إلّا في موضع الاضطرار. ولو جاز هذا لقلت: وهذا قصير الطويل، تريد: مثل الطويل، فلم يجز هذا، كما قبح أن تكون المعرفة حالاً كالنكرة إلّا في الشعر». فهنا نراه يقبح ويضعف رأي أستاذه الخليل ولا يجوّزه إلّا في حال الضرورة.

اجتمعت العربية لسيبويه وهو شاب لوذعي نافذ البصيرة، وكان في حياة شيوخه إماماً تقام له حلقة تدريس، وكان له أصحاب وتلاميذ قال محمد بن سلام[3]: «كان سيبويه النحوي جالساً في حلقته بالبصرة، فتذاكرنا شيئاً من حديث قتادة، فذكر حديثاً غريباً، وقال: لم يرو هذا إلّا سعيد بن أبي العروبة. فقال له بعض ولد جعفر بن سليمان: ما هاتان الزيادتان يا أبا بشر؟ يريد الألف واللام في العروبة. فقال: هكذا يقال، لأن العروبة هي الجمعة، ومن قال عروبة فقد أخطأ».

وقال ابن عائشة: «كنا نجلس مع سيبويه النحوي في المسجد، وكان شاباً جميلاً نظيفاً، قد تعلّق من كل علم بسبب، وضرب فيه بسهم، مع حداثة سنه وبراعته في النحو. فبينما نحن عنده ذات يوم إذ هبت ريح أطارت الورق، فقال لبعض أهل الحلقة: انظر أي ريح هي؟ وكان على منارة المسجد تمثال فرس من

---

(١) الكتاب ١ : ٢٧٤.

(٢) الكتاب ١ : ١٨١.

(٣) انظر طبقات النحاة للزبيدي ص ٦٧.

صفر، فنظر ثم عاد فقال: ما يثبت الفرس على شيء. فقال سيبويه: تقول العرب في مثل هذا: تذاءبت الرياح، أي فعلت فعل الذئب ليختل فيتوهم الناظر أنه عدة ذئاب».

قال ياقوت الحموي[1]: ويقول بعض من ذكره: «عمرو بن عفان قد رأيته، وكان حدث السن، كنت أسمع في ذلك العصر أنه أثبت من حمل عن الخليل، وقد سمعته يتكلم ويناظر في النحو. وكانت في لسانه حبسة. ونظرت في كتابه فرأيت علمه أبلغ من لسانه».

● سيبويه أمام الكسائي (مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة).

بلغ الكسائي وأصحابه أمثال الفراء والأحمر وابن سعدان من الكوفيين مراتب رفيعة وشهرة ذائعة في بغداد، حتى أصبح بعضهم مؤدبي أولاد الخلفاء، ونالوا من عظيم العطاء ما جعلهم ميسورين سعداء أصحاب حظ ودرجة. وكان البصريون ينظرون إليهم نظرة استعلاء على أنهم أصحاب النحو وأساتذته. وقد رأى سيبويه ـ وهو إمام مدرسة البصرة آنذاك ـ أن يزاحم الكوفيين في مراكزهم عسى أن ينال النحو البصري ما يستحقه من انتشار ورفعة. ولأجل هذا الهدف رحل إلى بغداد، وقصد البرامكة عارضاً عليهم مناظرة بينه وبين الكسائي، متيقناً أن النصر سيكون حليفه.

ولمّا بلغ الكسائي قدوم سيبويه بغداد، خاف المناظرة، وخشي فقدان المركز الذي بلغه هو وأصحابه الكوفيون، فيذهب سلطانهم، ويزاحم النحو البصري نحوهم في بغداد. فقرّ قراره على منع ذلك بأي طريقة، ولذا فقد أتى جعفر بن يحيى البرمكي والفضل أخاه، وقال لهما: أنا وليكما وصاحبكما، وهذا الرجل إنما قدم ليذهب محلي. قالا: فاحتل لنفسك، فإنّا سنجمع بينكما. ولم يكن لسيبويه ما يجعله أقرب إلى البرامكة من الكسائي، فالاثنان فارسيان، على أن الكسائي كان يجمع إلى النحو تأديب ولد الرشيد. وكان أن دبر الكسائي حيلة نبّه عليها الأخوين جعفر والفضل للإيقاع بسيبويه. وكانت هذه الخطة تقضي بأن يتقدم أصحاب الكسائي بمناظرة سيبويه وإرهاقه بالأسئلة والمخالفة، حتى إذا فترت همته

---

(1) إرشاد الأريب ١٦: ١٢٥.

وظهر عجزه دلف الكسائي ليجده فاقد العزم واهن الفكر. وكان للخطة ما رسم لها. فما إن جاء اليوم المنتظر، وحضر سيبويه، حتى تزاحم الكوفيون، وسيبويه وحده من غير صاحب ولا سند، وأخذ كل من الفراء والأحمر وابن سعدان بإمطار الأسئلة، وسيبويه يجيبهم على مذهبه البصري، وهم في كل ذلك يخطئونه ويخالفونه بما يوافق مذهبهم، إلى أن ملّ بهم وبأسئلتهم، ثمّ وهو كذلك إذ دخل الكسائي ومعه بعض الأعراب ممن كان ينتفع به لحاجة عند الخليفة والبرامكة، فسأل سيبويه: كيف تقول: كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي، أو فإذا هو إيّاها؟ وأجاب سيبويه: فإذا هو هي. فيبيّن له الكسائي أن الوجهين جائزان، ثم يشهد الأعراب الذين معه فيشهدون له عليه وهكذا ختم المجلس بانكسار سيبويه.

ولم تكن العشرة آلاف درهم التي منحها البرامكة لسيبويه لتلطف من حدة انكسار نفسه، فيعود أدراجه حزيناً كئيباً لإخفاقه في إعلاء مذهب البصرة. ويقال إنه عاد إلى البيضاء حيث وافاه الأجل سنة ١٨٠ هـ.

على أن بعض المصادر يرجح أن موته كان من جرّاء فساد أصاب معدته وكمد منتشر في داخله لإخفاقه أمام الكوفيين. ويروى أنه لما اشتدت علّته وقرب حتفه وضع رأسه في حجر أخيه، فبكى أخوه وانسالت دمعة على وجهه، فرفع سيبويه رأسه فرآه باكياً، فقال:

أخيّين كنّا فرق الدهر بيننا إلى الأمد الأقصى ومن يأمنِ الدهرا

سيبويه وكتابه في النحو:

لم يزل أهل العلوم يفضلون كتاب سيبويه، حتى لقد قال المبرّد: «لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه. وذلك أن الكتب المصنفة في العلوم مضطرة إلى غيرها، وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره».

وقال الجرمي[١]: أنا منذ ثلاثين سنة أفتي الناس في الفقه من كتاب سيبويه.

ويقول عنه صاعد الأندلسي[٢]، في حديثه عن المجسطي: «ولا أعرف كتاباً

(١) طبقات النحاة للزبيدي ص ٧٧.

(٢) طبقات الأمم ٥ ص ٤٦.

ألّف في علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط بجميع أجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب: أحدها كتاب المجسطي هذا في علم الهيئة والفلك وحركات النجوم، والثاني كتاب أرسطوطاليس في علم صناعة المنطق والثالث كتاب سيبويه البصري في علم النحو العربي. فإن هذه الكتب الثلاثة لا يشذ عن كل واحد منها من أصول علمه ولا من فروعه إلّا ما لا خطر له».

وقد ذكر ابن قاضي شهبة في طبقات النحاة عن أبي علي الفارسي رواية لم يذكر المؤلف راويها، تقول: «وهو قد عقد كتابه وصنف أوائل أبوابه في جزازات وقطع، فلم يكن يقبل على الجارية ولا يشتغل بها وهي مشغوفة بحبه. ولم يكن يشغله إلّا النظر والسهر والكتب. فرصدت خروجه إلى السوق في بعض حوائجه، وأخذت جذوة نار فطرحتها في الكتب حتى احترقت.

فرجع سيبويه فنظر إلى كتبه وهي هباً فغشي عليه أسفاً، ثم أفاق فطلّقها، ثم أنشأ الكتاب بعد ذلك ثانية. قال أبو علي: وذهب منه علم كثير أخذه عن الخليل فيما أحرق له».

الكتاب يقع في أكثر من تسعمائة وعشرين صفحة، وقد جرى التقسيم فيه إلى أبواب، ولا نجد فيه كتباً ولا فصولاً. وسيبويه يكثر من الأبواب للمبحث الواحد بحسب تنوع ما يجري فيه البحث.

ويقع الكتاب في جزءين، الأول في مباحث النحو، والثاني في مباحث الممنوع من الصرف ومباحث النسب والإضافة ومباحث التصغير وبقية مباحث التصريف. ويحوي إلى مباحث الصرف والنحو مباحث العربية عامة، ففيه المجاز والمعاني وضرورات الشعر وإنشاده، وتعريب الكلمات الأعجمية، وفيه أيضاً قدر واف من مباحث الأصوات العربية.

يونس بن حبيب

٩٤ - ١٨٢ هـ

يونس بن حبيب االضبيّ بالولاء، أبوعبد الرحمن، ويعرف بالنحوي، من قرية جَبُل على دجلةٌ بين بغداد وواسط، أعجمي الأصل، ولد سنة ٩٤ هـ. أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وسمع من العرب كما سمع من قبله، وأخذ عنه سيبويه وحكى عنه في كتابه، وأخذ عنه أيضاً أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، وأبو زكرياء يحيى بن زياد الفرّاء، وكان له مذاهب وأقيسة تفرّد بها. وكانت حلقته بالبصرة، وكان يقصده طلاب العربية وفصحاء الأعراب والبادية. وكان ممن أخذ عنه أيضاً أبو عبيدة معمر بن المثنى وخلف الأحمر وأبو زيد الأنصاري وغيرهم من الأئمة.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: اختلفت إلى يونس أربعين سنة أملأ كل يوم ألواحي من حفظه.

وقال أبو زيد الأنصاري: جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة.

وكان يونس عالماً بالشعر نافذ البصر في تمييز جيّده من رديئه، عارفاً بطبقات شعراء العرب، حافظاً لأشعارهم يُرجع إليه في ذلك كله. حدّث محمد بن سلام، قال: سألت يونس النحوي عن أشعر الناس، فقال: لا أومىء إلى رجل بعينه ولكني أقول امرؤ القيس إذا غضب والنابغة إذا رهب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب[1].

---

(١) انظر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٦.

حكى محمد بن الجهم ـ أحد تلاميذ الفراء ـ قال: حدثنا الفراء، قال أنشدني يونس النحوي:

رُبّ حلمٍ أضاعه عدم المـا ل وجهلٍ غطّى عليه النعيم

عن الفرّاء، قال: قال يونس: الآلُ من غدوة إلى ارتفاع النهار، ثم هو سراب سائر النهار، وإذا زالت الشمس فهو فيء، وفي غدوة ظل، وأنشد لأبي ذؤيب:

لعمري لأنت البيت أُكرمَ أهلُه وأُقعد في أفيائه بالأصائلِ

وكان كذا وكذا الليلة، يقولون ذلك إلى ارتفاع النهار من الضحى، فإذا جاوز ذلك قالوا: البارحة.

وروى الأصمعي عن يونس، قال: قال لي رؤبة بن العجاج: حتام تسألني عن هذه الخزعبلات وأزخرفها'! أما ترى الشيب قد بلغ في لحيتك!.

روى خلّاد بن يزيد، المحدث الجليل، قال: قال يونس: ثلاثة والله أشتهي أن أمكّن من مناظرتهم يوم القيامة: آدم عليه السلام، فأقول له: قد مكّنك الله تعالى من الجنّة، وحرّم عليك الشجرة، فقصدتها حتى طرحتنا في هذا المكروه، ويوسف عليه السلام، فأقول له: كنت بمصر وأبوك يعقوب بكنعان، وبينك وبينه عشر مراحل، يبكي عليك حتى ابيضّت عيناه من الحزن، ولم ترسل إليه أني في عافية وتريحة ممّا كانَ فيه، وطلحة والزبير رضي الله عنهما، فأقول لهما: إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق فأي شيء أحدث!.

وحكى أبو عمر الجرمي النحوي، قال: رأيت يونس النحوي مرّ بحلقة المسجد، فقام إليه رجل يسأله عن قوله تعالى: ﴿**وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد**﴾[1]، فقال بيده: التناوش التناول، وأنشد لغيلان بن حُريث الرّبعي:

فهي تنوش الحوضَ نوشاً من عُلا نوشاً به تقطع أجواز الفلا

ذكرنا أن حلقة يونس بن حبيب بالبصرة كانت تغصّ بالطلاب، وفي مقدمتهم أبو عبيدة اللغوي وسيبويه، واسمه يتردد في كتابه، ولكن غالباً يذكره في شواهد

(١) سورة سبإ آية ٤٢.

اللغة وليس في الآراء النحوية، فسيبويه ـ كما هو ظاهر ـ لم يكن يأخذ بتلك الآراء النحوية، وكان الخليل بن أحمد قد استولى عليه، فلم يكد يترك فيه بقية لغيره وخاصة في قواعد النحو والقياس، وبذلك غدا يونس في نحوه وما وضعه من أقيسة نسيج وحده، وتنبه إلى هذا القدماء فقالوا: «كانت ليونس مذاهب وأقيسة تفرّد بها». وهي مذاهب آراء تخالف آراء سيبويه وأستاذه الخليل بن أحمد. ومن أمثلة مخالفته، أن الخليل كان يرى أنّ الزائد في مثل قطّع هو الحرف الأول، وكان يونس يرى أنه الحرف الثاني[1]. وكان الخليل وسيبويه يريان أن تصغير قبائل: قُبَيْئل، وكان يونس يرى أن تصغيرهما: قُبيِّل. وكان سيبويه لا يرد المحذوف في التصغير فمثل يضع تصغّر على يُضيَع، بينما يونس كان يرده فيقول في تصغير يضع: يُوَيْضع. وكان يذهب إلى أنّ تاء أخت وبنت ليست للتأنيث لأن ما قبلها ساكن صحيح ولأنها لا تبدل في الوقف هاءً.

وفاته:

قال أبو العباس ثعلب: جاوز يونس المائة؛ وقيل: عاش ثمانية وثمانين سنة.

وقيل: توفي يونس بن حبيب البصري سنة ثلاث وثمانين ومائة في خلافة هارون الرشيد. وأمّا ياقوت الحموي فقد قال: «ومات سنة ١٨٢ هـ عن مائة سنة وسنتين»[2].

مؤلفاته:

- كتاب معاني القرآن الكبير.
- كتاب معاني القرآن الصغير.
- كتاب اللغات.
- كتاب النوادر.
- كتاب الأمثال.
- مسألة ليونس بن حبيب.

---

(١) انظر الخصائص لابن جني ص ٦١ ج ٢.

(٢) إرشاد الأريب ٧: ٣١٢.

كان يونس بن حبيب يذهب إلى أن الشاعر في قوله:

إن تـركبـوا فـركـوب الخيـــل عـادتنـــا   أو تـنـــزلـــون فـــإنّـــا مـعـــشـــر نـــزلُ

أراد: أو أنتم تنزلون، فعطف الجملة الاسمية على الجملة الشرطية، وكان الخليل وسيبويه يذهبان إلى أنّ ذلك من باب العطف على التوهم.

وكان الخليل يرى أن مفعول ننزع محذوف في الآية الكريمة **﴿لننزعنّ من كل شيعةٍ أيهم أشد﴾** والتقدير لننزعن الفريق الذين يقال فيهم أيهم أشد، وقال يونس: جملة (أيهم أشد) هي المفعول.

(١) الكتاب لسيبويه ١: ٤٢٩.

الكسائي

ت ١٨٩ هـ

أبو الحسن علي بن حمزة بن عبدالله بن عثمان، وقيل بَهْمن بن فيروز، مولى بني أسد، يكنى بأبي عبدالله، من أهل الكوفة، ولد في إحدى قراها وتعلم بها، وقرأ النحو بعد الكبر، فأخذ عن أبي جعفر الرؤاسي ومعاذ الهرّاء، وكان أحد أئمة القرّاء السبعة، وكان قد قرأ على حمزة الزيات (أي بقراءة حمزة) وأقرأ بقراءته ببغداد، ثم اختار لنفسه قراءة فأقرأ بها الناس(١).

وكان قد سمع من سليمان بن أرقم وأبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة، وأخذ عنه أبو زكرياء يحيى بن زياد الفرّاء وأبو عبيدة القاسم بن سلام وجماعة.

قال أبو زكرياء يحيى بن زياد الفرّاء: إنّما تعلم الكسائي النحو على الكبر، وكان سبب تعلّمه أنه جاء يوماً وقد مشى حتى أعيا، فجلس إلى قوم فيهم فضل، وكان يجالسهم كثيراً، فقال: قد عيّيت، فقالوا له: تجالسنا وأنت تلحن؟ فقال: كيف لحنت؟ قالوا: إن كنت أردت من التعب فقُل: أعييت، وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة والتحيّر في الأمر فقل: عييت مخفّفة. فأنِف من هذه الكلمة وقام من فوره ذلك، فسأل عمّن يعلم النحو، فأرشدوه إلى معاذ الهرّاء فلزمه حتى أنفذ ما عنده. ثم خرج إلى البصرة فلقي الخليل بن أحمد، وجلس في حلقته. فقال رجل من الأعراب: تركت أسداً وتميماً وعندهما الفصاحة، وجئت إلى البصرة! وقال للخليل بن أحمد: من أين علمك؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة. فخرج الكسائي، وأنفد خمس عشرة قنينة حبراً في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ. ولم يكن له همّ غير البصرة والخليل، فوجد الخليل قد مات

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ٦٨.

وجلس في موضعه يونس بن حبيب البصري النحوي، فجرت بينهما مسائل أقرّ له يونس فيها وصدّره موضعه.

وقال عبد الرحيم بن موسى القرشي: قلت للكسائي: لمَ سميت الكسائي؟

قال: لأنّي أحرمت في كساء[1].

وقال خلف بن هشام: دخل الكسائي الكوفة، فجاء إلى مسجد السّبيع، وكان حمزة بن حبيب يُقرىء فيه، فتقدم الكسائي مع أذان الفجر، وهو ملتف بكساء، فلما صلّى حمزة، قال: من تقدّم في الوقت؟ قيل له: الكسائي، ويعنون به صاحب الكساء، فرمقه القوم بأبصارهم، فقالوا: إن كان حائكاً فسيقرأ سورة يوسف، وإن كان ملّاحاً فسيقرأ سورة طه، فسمعهم، فابتدأ بسورة يوسف، فلما بلغ إلى قصة الذئب قرأ: ﴿**فأكلَهُ الذيبُ**﴾[2] بغير همز، فقال له حمزة: الذئب بالهمز. فقال له الكسائي: وكذلك أهمز الحوت؟ وقرأ ﴿**فالتقمه الحؤت**﴾[3]. فقال: لا، فقال: فلم همزت الذئب ولم تهمز الحوت، وهذا فأكله الذئب، وهذا فالتقمه الحوت! فرجع حمزة بصره إلى خلّاد الأحول، وكان من أصحابه، فتقدم إليه في جماعة أهل المجلس، فناظروه فلم يصنعوا شيئاً، وقالوا: أفدنا يرحمك الله! فقال لهم الكسائي: تفهّموا عن الحائك، تقول إذا نسبت إلى الذئب: فقد استأذب، ولو قلت: قد استذاب بغير همز، لكنت إنما نسبته إلى الذوب فتقول: قد استذاب الرجل إذا ذاب شحمه بغير همز، وإذا نسبته إلى الحوت، تقول: قد استحات الرجل، إذا كثُر أكله للحوت، لأن الحوت يأكل كثيراً، فلا يجوز فيه الهمز، فلتلك العلة همز الذئب ولم يهمز الحوت، وفيه معنى آخر: لا تسقط الهمزة من مفرده ولا من جمعه، وأنشدهم:

أيها الذِئب وابنُهُ وأبوه ... أنت عندي من أذؤبٍ ضارياتِ

قال: فسمي الكسائي من ذلك اليوم. وقيل: لأنه كان يحضر مجلس معاذ الهرّاء والناس عليهم الحلل وعليه كساء.

---

(١) نزهة الألباء ص ٦٩.

(٢) سورة يوسف آية ١٧.

(٣) سورة الصافات آية ١٤٢.

وكان الكسائي معلّم الرشيد والأمين من بعده، قال سلمة بن عاصم: كان عند المهديّ مؤدب يؤدب الرشيد، فدعاه يوماً المهدي وهو يستاكُ، فقال له: كيف تأمر من السواك؟ فقال: استَكْ، يا أمير المؤمنين، فقال المهدي: إنّا لله وإنا إليه راجعون! ثم قال: التمسوا لنا من هو أفهم من هذا الرجل، فقالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة، قدم من البادية قريباً. فكتب بإشخاصه من الكوفة. فساعة دخل عليه، قال: يا علي بن حمزة! قال: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: كيف تأمر من السّواك؟ فقال: «سِكْ فاك يا أمير المؤمنين». فقال أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم.

قال الكسائي: صليت بالرشيد فأعجبته قراءتي، فغلطت في كلمة ما غلط فيها صبي قط، أردت أن أقرأ ﴿**لعلّهم يرجعون**﴾[1] فقرأت «لعلّهم يرجعين»، قال: فوالله ما اجترأ الرشيد أن يردّ عليّ، ولكني لمّا سلّمتُ، قال لي: يا كسائي، أي لغة هذه؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، قد يعثر الجواد! فقال: أمّا هذا فنعم.

ويروى أن الرشيد أشرف على الكسائي وهو لا يراه، فقام الكسائي ليلبس نعله لحاجة يريدها، فابتدرها الأمين والمأمون فوضعاها بين يديه، فقبل رأسيهما وأيديهما، ثم أقسم عليهما ألاّ يعاودا. فلما جلس الرشيد مجلسه قال: أي الناس أكرم خادماً. قالوا: أمير المؤمنين أعزّه الله قال: بل الكسائي يخدمه الأمين والمأمون، وحدثهم الحديث.

لمّا اشتدت علّة الكسائي بالري جعل الرشيد يعوده، فسمعه يوماً ينشد:

قدر أحلّك ذا النخيل وقد أرى ... وأبيك ما لك ذو النخيل بدار
إلاّ بداركم بذي نفر الحمى ... هيهات ذو نغر من المزدار

فخرج الرشيد وقال: مات الكسائي والله. قيل: وكيف يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنه حدثني أن أعرابياً كان ينزل عليه فاعتلّ، فتمثل بهذا البيت ومات عنده. ومات الكسائي من يومه، وكانت وفاته سنة سبع وتسعين ومائة، ودفن وأبو يوسف القاضي في يوم واحد.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٦٨.

قال ابن الأنباري: مات الكسائي ومحمد بن الحسن سنة ثنتين وثمانين ومائة.

وقال أحمد بن كامل القاضي: مات الكسائي بالريّ سنة تسع وثمانين ومائة.

مؤلفاته:

- كتاب معاني القرآن.
- كتاب مختصر النحو.
- كتاب القراءات.
- كتاب العدد.
- كتاب النوادر الكبير.
- كتاب النوادر الأوسط.
- كتاب النوادر الأصغر.
- كتاب مقطوع القرآن وموصوله.
- كتاب اختلاف العدد.
- كتاب الهجاء.
- كتاب المصادر.
- كتاب أشعار المعاياة وطرائقها.
- كتاب الهاءات المكنى بها في القرآن.
- كتاب الحروف.

قُطرب

\- ٢٠٦ هـ

أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد، وهناك اختلاف في رواية اسمه، فقد جاء في الوفيات: «ويقال إن اسمه محمد، وقيل الحسن بن محمد والأول أصح، والله أعلم بالصواب»[١]. أما الصفدي فقد أورد رواية أخرى: «ويقال اسمه أحمد بن محمد ويقال الحسن بن محمد والأول أصحّ»[٢]. ثم إن القفطي في كتابه[٣] يقول، عن ابن النديم صاحب الفهرست: «هو أبو محمد بن المستنير، ويقال أحمد بن محمد ويقال الحسن بن محمد والأول أصح».

ولعل هذا الاختلاف نشأ عن وضع كان موجوداً فيه قطرب ثم ابنه الحسن، وذلك أن أبا علي محمد الملقب بقطرب (من قبل أستاذه سيبويه) كان معلماً لولد أبي دُلف القاسم بن عيسى العجلي صاحب الكرخ، ثم لمّا مات كان الحسن بن قطرب يؤدبه عوضاً عنْ أبيه[٤]. ثم إن كتب التاريخ تؤيد ما رُوي، حيث إن وفاة سيبويه كانت في ما بين ١٧٧ هـ و ١٨٨ هـ، فإذا ما كانت وفاة محمد قطرب سنة ٢٠٦ هـ، فهو أقرب أن يكون تلميذ سيبويه من الحسن ابنه، وهذا دليل كافٍ على تأكيد اسمه: وهو أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد الملقب بقطرب.

لم تذكر المصادر ـ كعادتها ـ ما هو تاريخ مولده وإن كانت قد حددت سنة وفاته ٢٠٦ هـ.

نشأ أبو علي بالبصرة حيث تتلمذ على يدي سيبويه، وهو الذي أطلق عليه

---

(١) الوفيات ٤: ٣١٣.

(٢) الوافي بالوفيات ٥: ٢٠.

(٣) إنباه الرواة ٣: ٢٢٠.

(٤) الوافي بالوفيات ٥: ٢٠.

لقب قطرب، إشارة إلى الدويبة التي تدب ولا تزال تفتر، لما كان من إقبال أبي علي على دروس سيبويه يسبق إليها غيره من طلاب العلم، فكان يأتيه باكراً، حتى قال له أستاذه يوماً: «ما أنت إلاّ قطرب ليل»[1].

وهكذا نعلم من هذه النادرة أن أبا علي محمد «قطرب» كان مقبلاً بكل همة على طلب العلم والاجتهاد والمواظبة على حضور دروس أستاذه، وكان بصري المنشأ والاتجاه العلمي، ولـذا فقد أجمعت معـظم المراجـع على ترديـد عبارة «النحوي اللغوي البصري»، مع أنه رحل إلى بغداد بعد أن اشتد عوده في العلم[1] والتحصيل. ومن هذا فإننا نسمع القفطي يقول عنه: «نزل قطرب بغداد وسمع منه أشياء من تصانيفه وسمع منه محمد بن الجهم السمريّ»[2]. وكان قد أقام بالكرخ معلماً لولد أبي دلف العجلي صاحب الضاحية في غربي بغداد.

انحصرت تواليف أبي علي في اللغة والنحو وإن غلبت الظاهرة اللغوية على الثانية، ويمكن الإقرار بقول صلاح الدين الصفدي[3] من أن قطرب كان معتزلياً نظّامياً، بالرجوع إلى كتابيه «خلق الفرس» و«خلق الإنسان» إذا ما قارناهما بكتاب «الحيوان» للجاحظ.

وقد كان لأبي علي محمد قطرب شعر، وإن لم تذكر له إلاّ أبيات قليلة أورد منها ابن خلكان نقلاً عن ابن المنجم في كتاب البارع بيتين:

إن كنت لست معي فـالذكـر منك معي ... يـراك قلبي وإن غُيّبـت عن بـصـري
والعين تبـصـر من تـهـوى وتفـقـده ... وبـاطـن القـلب لا يخلو من النـظر

ثم يضيف ابن خلكان[4]: «هذان البيتان مشهوران ولا أعلم أنهما له إلاّ من هذا الكتاب». ثم يعيد الصفدي[5] ذكرهما دون أي تعليق. أما القفطي فإنه يرى لقطرب شعراً «أجود من شعر العلماء على قلّته»[6]، ثم يذكر نادرة تجعل قطرب يشهد لأبي القاسم المهلّبي أحد تلاميذه بالعلم يقول:

ذا مـا أقـرّ بـه قـطرب ... عـلى نفسـه لأبـي القـاسـم

(١) الوافي بالوفيات ٥: ١٩.
(٢) أنباه الرواة ٣: ٢١٩ و٣: ٨٨.
(٣) الوافي بالوفيات ٥: ٨٢٠
(٤) وفيات الأعيان ٤: ٣١٣.
(٥) الوافي بالوفيات ٥: ١٩.
(٦) إنباه الرواة ٣: ٢١٩.

وأشهد حوداً وجهماً عليه · وأشهد غزوان مع عاصم
بأن قال قد بذّني في القياس · وصيّرت في يده خاتمي
فأعلم بالنحو من سيبويه · وأجود بالمال من حاتم
بديهته عند ردّ الجواب · تزيد على فطنة العالم
فصرت على السن تلميذه · وصار أبو القاسم عالمي

ولا شك أن هذا الشعر لا يخلو من ظاهرة التهكّم اللطيف خاصة إذا علمنا أن أبا القاسم إنما طلب منه هذه الشهادة بعد أن جعل له جعلاً على أن يقدمه على نفسه[٤].

أجمع المؤرخون ـ ومنهم ابن خلكان والقفطي ـ على جعل «قطرب» من أئمة عصره، بل أن القفطي يضيف إلى ذلك قول: «وكان موثّقاً فيما يمليه»[٢]. وكان ابن جني، وإن لم يؤيده في «تفسيره الصوتي» لحركة الإعراب، يعتمد روايته في استشهاده ببعض الأبيات الشعرية.

ولعلّ قطرب أول من تنبّه إلى ظاهرة لغوية تمثلت في المثلثات، وكان على الأقل أول من كتب فيها. والمقصود من عبارة المثلثات هو مجموعة تضم ثلاث مفردات لها الصيغة الصرفية نفسها وتكون مركبة من الحروف عينها، فلا يتغيّر فيها إلّا حركة فاء الكلمة أو عينها، فيحصل بتغيّر الحركة تغيّر في المعنى، ومنه انتقال من مجال دلالي إلى آخر.

شيوخ قطرب:

ذكرنا أن «قطرب» تلقى علومه في مدإن البصرة، فأخذ عن علمائها في العربية وعلوم القرآن، نذكر منهم:

- أبا عمر عيسى بن عمر الثقفي (المتوفى سنة ١٤٩ هـ).
- أبا محرز خلف الأحمر البصري (المتوفى بحدود سنة ١٨٠ هـ).
- أبا بشر عمرو بن عثمان «سيبويه» (المتوفى بحدود سنة ١٨٠ هـ).
- يونس بن حبيب البصري (المتوفى سنة ١٨٢ هـ).

---

(١) أنباه الرواة ٣: ٢١٩.
(٢) أنباه الرواة ٣: ٢١٩.

ـ أبا إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي (ومن هنا ذكر أن أبا علي كان نظامياً)، وأخذ عنه قطرب مذهب أهل الاعتزال (توفي أبو إسحاق سنة ٢٣١ هـ).

تلاميذه:

أما الذين تتلمذوا عليه فهم كثر، نذكر منهم:

ـ أبا يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت (توفي سنة ٢٤٤ هـ).

ـ أبا جعفر محمد بن حبيب (توفي سنة ٢٤٥ هـ).

ـ أبا عبدالله محمد بن الجهم الكاتب السمري (توفي سنة ٢٧٧ هـ).

ـ أبا القاسم الباهلي المهلبي (كان معاصراً لابن الجهم).

هذا بالإضافة إلى ما أسلفنا القول فيه إن أبا علي اتصل بأبي دلف العجلي وأدّب ولده.

وفاته:

حددت معظم المصادر التي ترجمت لقطرب تاريخ وفاته وهي سنة ٢٠٦ هـ، على أن هذا التاريخ عارضه ما جاء في سند رواية الأزمنة لقطرب وهو: «أخبرنا محمد بن الجهم قال: أملى علينا أبو علي قطرب محمد بن المستنير هذا الكتاب سنة عشر ومائتين»[١].

وقد خلّف قطرب ولدين هما علي ـ وقد كنّي به ـ وروى عن أبيه، والحسن الذي خلف أباه في تأديب أولاد أبي دلف العجلي[٢].

مؤلفاته:

أوردت المصادر مجموعة كبيرة من أسماء مصنفات قطرب في العلوم الدينية والعربية. وقد ضاع الكثير منها ولم يصل إلى أيدينا إلاّ النزر اليسير منها، فأمّا هذا النزر فهو:

ـ كتاب الأزمنة.

---

(١) وانظر كتاب الأزمنة لقطرب ص ٣٤.

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٧٨.

- كتاب الاشتقاق.

- كتاب الأصوات.

- كتاب الأضداد.

- إعراب القرآن.

- كتاب العلل في النحو.

- كتاب الغريب في اللغة.

- كتاب الفرق.

- كتاب فعل وأفعل.

- كتاب القوافي.

- المثلثات.

وهو أول كتاب في تاريخ اللغة العربية وضع في المثلث. ذكره ابن النديم في فهرسته ص ٧٨، ووفيات الأعيان ٤ : ٣١٢.

- المصنف الغريب في اللغة.

- كتاب النوادر.

- كتاب الهمز أو (الهمزة).

الفرّاء

۱٤٤ ـ ۲۰۷ هـ

يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور بن مروان الأسلمي الديلمي الكوفي، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكرياء المعروف بالفراء. إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. ومن كلام أحمد بن يحيى ثعلب: لولا الفراء ما كانت اللغة. ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ، وانتقل إلى بغداد. أخذ عن أبي الحسن الكسائي وروى عن قيس بن الربيع ومندل بن علي، وأخذ عنه سلمة بن عاصم ومحمد بن الجهم النمري وغيرهما. وكان هو والأحمر أشهر أصحاب الكسائي وكانا أعلم الكوفيين بالنحو من بعده. وأخذ أيضاً عن يونس بن حبيب البصري فاستكثر منه. والبصريون ينكرون أخذه عن يونس، غير أن محمد بن الجهم يحكي أن الفراء قال: أنشدني يونس:

رب حلم أضاعه عدم الما ... لِ وجهل غطى عليه النعيم

وعن الفراء أيضاً قال: قال يونس الآلُ من غَدوة إلى ارتفاع النهار ثم هو سراب سائر النهار، وإذا زالت الشمس فهو فيء وفي غدوة ظل، وأنشد لأبي ذؤيب:

لعمري لأنت البيت أكرم أهله ... وأقعد في أفيائه بالأصائل

وله روايات كثيرة عن يونس بن حبيب البصري تثبت أخذه عنه والرواية له.

كان الفراء فقيهاً عالماً بالخلاف وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها، عارفاً بالطب والنجوم متكلماً يميل إلى الاعتزال، وكان يتفلسف في تصانيفه ويستعمل فيها ألفاظاً فلسفية[1]. عهد إليه المأمون بتربية ابنيه، فكان أكثر مقامه ببغداد، فإذا

(١) إرشاد الأريب ٧: ٢٧٦.

جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوماً في أهله يوزع ما جمعه ويبرهم. حكى أبو العباس ثعلب عن ابن نجدة قال: لما تصدّى أبو زكرياء الفراء يحيى بن زياد للاتصال بالمأمون كان يتردد إلى الباب، فلما كان ذات يوم بالباب جاء ثمامة بن الأشرس المتكلم المشهور، قال: فرأيت صورة أديب وأبهة أدب، فجلست إليه وفاتشته عن اللغة فوجدته بحراً، وعن النحو فشاهدته نسيج وحده، وعن الفقه فوجدته فقيهاً عارفاً باختلاف القوم، وفي النجوم ماهراً، وبالطب خبيراً، وبأيام العرب وأخبارها وأشعارها حاذقاً. فقلت له: من تكون، وما أظنك إلاّ الفراء؟ فقال: أنا هو. قال: فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين بمكانه، فاستحضره وكان سبب اتصاله به.

وقال أبو بريدة الوضاحي: أمر أمير المؤمنين المأمون الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار، ووكل بها جواري وخدماً للقيام بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وصيرّ له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان الوراقون يكتبون، حتى صنّف كتاب «الحدود»، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن. وبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ يملي كتاب «المعاني»، وكان ورّاقيه سلمة بن عاصم وأبو نصر بن الجهم.

قال أبو بريدة: فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعاني، فلم نضبط عددهم. ولما فرغ من إملائه خزنه الوراقون عن الناس ليتكسبوا به، وقالوا لا نخرجه لأحد إلاّ لمن أراد أن ننسخه له على أن يكون عن كل خمس أوراق درهم. فشكا الناس إلى الفراء، فدعا الوراقين وكلمهم في ذلك وقال: قاربوا الناس تنفعوا وتنتفعوا. فأبوا عليه، فقال: سأريكم. وقال للناس: إني أريد أن أملي كتاب معانٍ أتم شرحاً وأبسط قولاً من الذي أمليت قبلاً، وجلس يملي، فأملى في الحمد مائة ورقة، فجاء الوراقون إليه وقالوا: نحن نبلغ الناس ما يحبون، فنسخوا كل عشر أوراق بدرهم.

قال عنه أبو بكر بن الأنباري: لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلاّ الكسائي والفراء لكان لهم الافتخار على جميع الناس إذ انتهت العلوم إليهما.

قال أبو العباس ثعلب: كان السبب في إملاء كتاب الفراء في المعاني، أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل. فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب. فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً. فلما حضر وأخرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرّها ثم نوفي الكتاب كله، فقرأ الرجل والفراء يفسر. قال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه.

وقال ثعلب أيضاً: وكان السبب في إملائه الحدود، أن جماعة من أصحاب الكسائي صاروا إليه وسألوه أن يملي عليهم النحو، ففعل. فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض: إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان، والوجه أن يقعد عنه فقعدوا، فغضب وقال: سألوني القعود فلما قعدت تأخروا والله لأملينّ النحو ما اجتمع اثنان. فأملى ذلك ست عشرة سنة، ولم ير في يده كتاب إلّا مرة واحدة.

قال أبو العباس ثعلب: كان الفراء يجلس الناس في مسجده إلى جانب منزله، وكان ينزل بإزائه الواقدي.

لم يؤثر من شعره غير هذه الأبيات، رواها أبو حنيفة الدينوري عن الطوال[1]:

يا أميراً على جريب من الأر ض له تسعة من الحجاب
جالساً في الخراب يحجب عنه ما سمعنا بحاجب في خراب
لن تراني لك العيون بباب ليس مثلي يطيق رد الحجاب

وكانت وفاته في طريق مكة سنة ٢٠٧ هـ وقد بلغ ثلاثاً وستين سنة.

مؤلفاته:

- كتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف.

(١) الفهرست لابن النديم ص ٩٩.

- كتاب معاني القرآن، ألفه لعمر بن بكير، وهو أربعة أجزاء، وهو المعروف بـ «المعاني».
- كتاب البهي، ألفه للأمير عبدالله بن طاهر.
- كتاب المصادر في القرآن.
- كتاب اللغات.
- كتاب الوقف والابتداء.
- كتاب الجمع والتثنية في القرآن.
- آلة الكتاب.
- كتاب الفاخر.
- كتاب النوادر، رواه سلمة بن قادم.
- كتاب فعل وأفعل.
- كتاب المقصور والممدود.
- كتاب المذكر والمؤنث.
- كتاب يافع ويافعة.
- كتاب ملازم.
- كتاب الحدود، ألفه بأمر المأمون، يضم نحو خمسة وثلاثين حدّاً[1].
- كتاب مشكل اللغة الكبير.
- كتاب مشكل اللغة الصغير.
- كتاب الواو[1].
- كتاب ما تلحن به العامة.
- كتاب الأيام والليالي.

اشتهر بالفرّاء ولم يعمل في صناعة الفراء، فقيل: لأنه كان يغري الكلام.

ولما مات وجد «كتاب سيبويه» تحت رأسه، فقيل: إنه كان يتتبع خطأه ويتعمد مخالفته وقد عُرف أبوه زياد بالأقطع، لأن يده قطعت في معركة فخ سنة ١٦٩ هـ.

(١) إرشاد الأريب ج ٧ ص ٢٧٨.

(٢) الفهرست ص ١٠٠.

قال سلمة بن عاصم: خرجت من منزلي فرأيت أبا عمر الجرميّ واقفاً على بابي، فقال لي: يا أبا محمد، امض بي إلى فرائكم هذا، فقلت له: أمض، فانتهينا إلى الفراء، وهو جالس على بابه يخاطب قوماً في النحو. فلما عزم على النهوض، قلت: يا أبا زكريا، هو ذا أبو عمر صاحب البصريين، تحب أن تكلمه في شيء؟ فقال: نعم، ما يقول أصحابك في كذا وكذا؟ قال: كذا وكذا. فقال: يلزمهم كذا وكذا، ويفند هذا من جهة كذا وكذا، قال: فألقى عليه مسائل وعرّفه الإلزامات فيها، فنهض وهو يقول: يا أبا محمد، ما هذا إلاّ شيطان، يكرر ذلك ثلاثاً.

الأخفش الأوسط

٢١٥ هـ

أبـو الحسن سعيد بن مسعـدة، مولى بني مجـاشع بن دارم، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط، أحد أئمة النحويين البصريين. من أهل بلخ، سكن البصرة وأخذ عن سيبويه وهو أعلم من أخذ عنه، وكان أخذ عمن أخذ عنه سيبويه لأنه أسن منه، ثم أخذ عن سيبويه أيضاً، وهو الطريق إلى كتاب سيبويه، فإنه لم يقرأ الكتاب على سيبويه أحد، ولم يقرأه سيبـويه على أحـد وإنما قـرىء على الأخفش بعد موت سيبويه. وكان ممن قرأه عليـه أبو عمـر الجرمي وأبـو عثمان المازني. وكان الأخفش يستحسن كتاب سيبويه كل الاستحسان، فتوهم الجرمي والمازني أن الأخفش قد همّ أن يدعي الكتاب لنفسه، فتشاوروا في منع الأخفش من ادعائه، فقالا نقرأه،عليه فإذا قرأناه عليه أظهرناه وأشعنا أنه لسيبويه، فلا يمكنه أن يدعيه. فأرغبا الأخفش وبذلا له شيئاً من المال عن أن يقرآه عليه، فأجاب وشرعا في القراءة وأخذا الكتاب عنه وأظهـراه للناس. وكـان الأخفش يقول: مـا وضع سيبويه في كتابه شيئاً إلاّ وعرضه عليّ، وكان يرى أنه أعلم به مني وأنا اليوم أعلم به منه.

حكى أبو العباس ثعلب قال: إنّ الفرّاء دخل على سعيد بن سالم فقال: قد جاءكم سيد أهل اللغة وسيد أهل العربية، فقال الفرّاء: أما ما دام الأخفش يعيش فلا.

وحكى الأخفش قال: لما ناظر سيبويه الكسائي ورجع وجّه إليّ فعرفني خبره معه ومضى إلى الأهواز. فـوردت بغداد فـرأيت مسجد الكسـائي فصلّيت خلفه الغداة، فلما انفتل من صلاته وقعد وبين يديه الفرّاء والأحمر وابن سعدان، سلمت

وسألته عن مائة مسألة، فأجاب بجوابات خطأته في جميعها، فأراد أصحابه الوثوب عليّ فمنعهم، ولم يقطعني ما رأيتهم عليه عما كنت فيه. فلما فرغت قال لي: بالله أما أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة؟ قلت: نعم، فقام إلي وعانقني وأجلسني إلى جانبه، ثم قال: لي أولاد أحب أن يتأدبوا بك ويتخرجوا عليك، وتكون معي غير مفارق لي، فأجبته إلى ذلك. فلما اتصلت الأيام بالاجتماع سألني أن أؤلف له كتاباً في معاني القرآن، فألفته فجعله أمامه وعمل عليه كتاباً في المعاني، وقرأ عليّ كتاب سيبويه سرّاً ووهب لي سبعين ديناراً[1].

وكان أبو العباس ثعلب يفضل الأخفش ويقول: هو أوسع الناس علماً.

وقال المبرّد: أحفظ من أخذ عن سيبويه الأخفش ثم الناشي ثم قطرب، وكان الأخفش أعلم الناس بالكلام وأحذقهم بالجدل[2].

ويحكى أن مروان بن سعيد المهلبي، أحد أصحاب الخليل بن أحمد، سأل أبا الحسن الأخفش عن قوله تعالى: ﴿**فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان ممّا ترك**﴾[3]، ما الفائدة من هذا الخبر؟ فقال: أفاد العدد المجرّد من الصفة. وأراد مروان بسؤاله أن الألف في كانتا تفيد التثنية، فلأي معنى فسّر ضمير المثنى بالاثنتين، ونحن نعلم أنه لا يجوز أن يقال: «فإن كانتا ثلاثاً»، ولا أن يقال «فإن كانتا خمساً»، وأراد الأخفش أن الخبر أفاد العدد المجرد من الصفة، أي قد كان يجوز أن يقال: «فإن كانتا صغيرتين، فلهما كذا، أو صالحتين فلهما كذا، وإن كانتا كبيرتين فلهما كذا». فلما قال: «فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان» أفاد الخبر أن فرض الثلثين تعلّق بمجرد كونهما اثنتين فقط، فقد حصل من الخبر فائدة لم تحصل من ضمير المثنّى[4].

وحكى أحمد بن المعدّل، قال: سمعت الأخفش، يقول: جنّبوني أن تقولوا: «شرّ» وأن تقولوا: «همّ»، وأن تقولوا: «ليس لفلان بخْت».

روى الأخفش عن حماد بن الزبرقان وكان بصريّاً[5].

قال البلخي في كتاب فضائل خراسان: أصله من خوارزم.

---

(١) إرشاد الأريب ٤ : ٢٤٤.
(٢) إرشاد الأريب ٤ : ٢٤٤.
(٣) سورة النساء، آية ١٧٦.
(٤) نزهة الألباء ص ١٣٥.
(٥) الفهرست ص ٧٨.

وذكر ابن قتيبة قال: هو سعيد بن مسعدة، والنحو أغلب عليه، وكان أجلع ـ والأجلع: الذي شفته العليا ناقصة لا يقدر أن يضمّها[١].

وقال: حدّثنا الرياشي، قال: سمعت الأخفش يقول: كان سيبويه إذا واضع شيئاً في كتابه عرضه عليّ، وهو يرى أني أعلم منه، وكان أعلم مني، وأنا اليوم أعلم منه[٢].

مات الأخفش سنة إحدى وعشرين ومائتين بعد الفرّاء[٣].

ويقال توفي سنة خمس عشرة ومائتين[٤].

ويقال إنه زاد في العروض بحر «الخبب» فأصبحت ستة عشر بحراً.

تصانيفه:

صنّف كتباً كثيراً في النحو والعروض والقوافي، وله في كل فن منها مذاهب مشهورة وأقوال مذكورة عند علماء العربية. من هذه التصانيف نذكر:

- تفسير معاني القرآن.
- شرح أبيات المعاني.
- كتاب الاشتقاق.
- كتاب معاني الشعر.
- كتاب الملوك.
- كتاب المقاييس في النحو.
- كتاب الأربعة.
- كتاب العروض.
- كتاب المسائل الكبير.
- كتاب المسائل الصغير.
- كتاب القوافي.
- كتاب وقف التمام.
- كتاب الأصوات.

---

(١) المعارف ص ٥٤٥.

(٢) المعارف ص ٥٤٦.

(٣) الفهرست ص ٧٨.

(٤) على ما ذكره ابن خلكان والزبيدي.

ـ كتاب الغنم وألوانها وعلاجها وأسبابها.
ـ كتاب الأوسط في النحو.

عني الأخفش بشرح الأشعار، ويقال إنه أول من أملى غريب كـل بيت من الشعر تحته. وله في العروض والقوافي ما نوّه به القدماء. وهـو أكبر النحـويين البصريين بعد سيبويه، وهو الذي فتح أبواب الخلاف عليه، بل هو الذي أعدّ لتنشأ فيما بعد مدرسة الكوفة ثم المدارس المتأخرة. فقد كان عالماً بلغات العـرب، وكان حاد الذكاء ثاقب الذهن، خالف أستاذه سيبويه في كثير من المسائل، وحمل ذلك بعده الكوفيون ومضوا يتوسعون فيه فتكونت مدرستهم.

هكذا كان الأخفش كثير الخلاف لسيبويه والقواعد النحوية والصـرفية في كتابه، وهو خلاف يدل على خصب ملكاته وسعة معرفته بلغة العرب وقـراءات القرآن الكريم، وقدرته على النفوذ في حقائق اللغة التفصيلية إلى كثير من الآراء المستحدثة، حتى ليصبح إمام الخلاف في النحو والصرف ومسائلهما، وحتى ليُعدّ في الحقيقة الدافع إلى ظهور المدارس النحوية المتأخرة، وليس المدرسة الكوفية وحدها[1].

---

(١) انظر المدارس النحوية، د. شوقي ضيف ص ١٠٨.

أبو عثمان المازني

۲٤٧ هـ

بكر بن محمد بن عدي بن حبيب، أبو عثمان النحوي، أحد بني مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل. قال الزبيدي في طبقات النحويين: قال الخشني: المازني مولى بني سدوس نزل في بني مازن بن شيبان فنسب إليهم. وهو من أهل البصرة.

أخذ بكر بن محمد عن أبي عبيدة والأصمعي، وأخذ عنه أبو العباس المبّرد والفضل بن محمد اليزيدي وعبدالله بن سعد الورّاق. كان إمامياً يرى رأي ابن ميتم، ويقول بالإرجاء: وكان لا يناظره أحد إلاّ قطعه لقدرته على الكلام. وكان المبرد تلميذه يقول: لم يكن بعد سيبويه أعلم من أبي عثمان بالنحو، وقد ناظر الأخفش في أشياء كثيرة فقطعه، وهو أخذ عن الأخفش. وقال حمزة: لم يقرأ على الأخفش إنما قرأ على الجرمي ثم اختلف إلى الأخفش، وقد برع وكان يناظره ويقدم الأخفش وهو حيٌ.

حدّث المبرد عن المازني، قال: كنت عند أبي عبيدة، فسأله رجل فقال له: كيف تقول عُنيتُ بالأمر؟ قال: كما قلت عنيت بالأمر. قال: فكيف آمر منه؟ قال: فغلط، وقال: أعنِ بالأمر. فأومأت إلى الرجل ليس كما قال. فرآني أبو عبيدة فأمهلني قليلاً، فقال: ما تصنع عندي؟ قلت: ما يصنع غيري. قال: لست كغيرك، لا تجلس إليّ. قلت: ولِمَ؟ قال: لأني رأيتك مع إنسان خوزي سرق مني قطيفة. قال: فانصرفت وتحملت عليه بإخوانه. فلما جئته قال لي: أدّب نفسك أولاً ثم تعلم الأدب. قال المبرد: الأمر من هذا باللام لا يجوز غيره لأنك تأمر غير من بحضرتك كأنّه لِيُفعَلْ هذا.

وروي عن المبرد أن يهودياً بذل للمازني مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه، فامتنع من ذلك، فقيل له: لم امتنعت مع حاجتك وعائلتك؟ فقال: إن في كتاب سيبويه كذا وكذا آية من كتاب الله، فكرهت أن أقرىء كتاب الله للذمّة. فلم يمض على ذلك مديدة حتى أرسل الواثق في طلبه وأخلف عليه أضعاف ما تركه لله.

وحدّث أبو الفرج الأصفهاني[1] بإسناد رفعه إلى أبي عثمان المازني، قال: كان سبب طلب الواثق لي أن مخارقاً غناه في شعر الحارث بن خالد المخزومي:

أظليم إن مصابكم رجلٌ أهدى السلام تحية ظلم

فلحنه قوم وصوّبه آخرون، فسأل الواثق عمّن بقي من رؤساء النحويين فذكرت له، فأمر بحملي وإزاحة عللي. فلما وصلت إليه قال لي: ممن الرجل؟ قلت: من بني مازن. قال: من مازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة أم مازن اليمن؟ قلت: من مازن ربيعة. قال لي: با اسمك؟ يريد: ما اسمك، وهي لغة كثيرة في قومنا. فقلت على القياس: اسمي مكر، وذكر ابن خلكان أنه قال: اسمي بكر، فضحك وأعجبه ذلك وفطن لما قصدت أنني لم استجرىء أو أواجهه بالمكر، وضحك وقال: اجلس فاطبئن (أي فاطمئن)، فجلست. فسألني عن البيت فقلت: صوابه:

أظليم إنّ مصابكم رجلاً

قال: فأين خبر إنّ؟ قلت: ظلمُ، وهو الحرف في آخر البيت، والبيت كله متعلق به لا معنى له حتى يتمّ بقوله ظلمُ، ألا ترى أنه لو قال: أظليم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحيةً، فكأنّه لم يفد شيئاً حتى يقول ظلمُ، ولو قال: أظليم إن مصابكم رجلٌ أهدى السلام تحية لما احتاج إلى ظلم، ولا كان له معنى إلّا أن تجعل التحية بالسلام ظلماً، وذلك محال ويجب حينئذٍ: أظليم إنّ مصابكم رجل أهدى السلام تحية ظلماً ولا معنى لذلك، ولا هو لو كان له وجه مراد الشاعر. فقال: صدقت، ألكَ ولد؟ قلت: بنية لا غير. قال: فما قالت لك حين ودّعتها؟ قلت: أنشدتني قول الأعشى:

---

(١) الأغاني ٨: ١٤١.

تقول ابنتي حين جدّ الرحيل أرانا سواء ومن قد يتمْ
أبانا فلا رِمت من عندنا فإنا بخير إذا لم ترِمْ
أرانا إذا أضمرتك البلاد نجفى ويقطع منّا الرحِمْ

فقال الواثق: كأني بك وقد قلت لها قول الأعشى أيضاً:

تقول ابنتي وقد قرّبت مرتحلا يا ربِّ جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليتِ فاعتصمي يوماً فإن لجنب المرء مضطجعا

فقلت: صدق أمير المؤمنين قلت لها ذلك، وزدتها قول جرير:

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله، إن ها هنا قوماً يختلفون إلى أولادنا فامتحنهم، فمن كان عالماً ينتفع به ألزمناهم إياه، ومن كان بغير هذه الصفة قطعناه عنهم. قال: فامتحنتهم فما وجدت فيهم طائلاً، وحذروا ناحيتي. فقلت: لا بأس على أحد منكم. فلما رجعت إليه، قال كيف رأيتهم؟ فقلت: يفضل بعضهم بعضاً في علوم، ويفضل الباقون في غيرها، وكل يُحتاج إليه. فقال الواثق: إني خاطبت منهم رجلاً فكان في نهاية الجهل في خطابه ونظره. فقلت: يا أمير المؤمنين أكثر من تقدم فهم بهذه الصفة، وقد أنشدت فيهم:

إن المعلم لا يزال مصنّفاً ولو ابتنى فوق السماء سماء
من علم الصبيان أصبوا عقله مما يلاقي بكرة وعشاء

قال: فقال لي: لله درّك كيف لي بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن الغنم لفي قربك، والأمن والفوز لديك والنظر إليك، ولكني ألفت الوحدة وأنست بالانفراد، ولي أهل يوحشني البعد عنهم ويضرّ بهم ذلك، ومطالبة العادة أشد من مطالبة الطباع. فقال لي: فلا تقطعنا وإن لم نطلبك. فقلت: السمع والطاعة، وأمر لي بألف دينار.

ويُحكى عن أبي عثمان أنه قال: حضرتُ أنا ويعقوب بن السكيت مجلس محمد بن عبد الملك الزيّات، وأفضنا في شجون الحديث، إلى أن قلت: كان الأصمعي يقول: «بينا أنا جالس إذ جاء عمرو»، فقال ابن السكيت: هكذا كلام الناس، قال: فأخذت في مناظرته عليه، فقال محمد بن عبد الملك: دعني حتى

أبيّن له ما اشتبه عليه، ثم التفت إليه، وقال: ما معنى «بينا»؟ قال: «حين»، قال: أفيجوز أن يقال: حين جاء عمرو إذ جاءٔ زيد! قال: فسكت.

وكان أبو عثمان المازني مع علمه بالنحو كثير الرواية، قال المازنيّ: حدثني رجل من بني ذُهل بن ثعلبة، قال: شهدت شبيب بن شيبة وهو يخطب إلى رجل من الأعراب بعض حرمه، وطوّل. وكان للأعرابي حاجة يخاف أن تفوته، فاعترض الأعرابي على شبيب، وقال له: ما هذا؟ إن الكلام ليس للمتكلم المكثر، ولكن للمُقلّ المصيب، وأنا أقول: الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، أما بعد، فقد أدليتَ بقرابة، وذكرت حقّاً، وعظّمت مرغباً، فقولك مسموع، وحبلك موصول، وبذلك مقبول، وقد زوّجناك صاحبتك على اسم الله تعالى.

وروى أبو عثمان، قال: حدثني أبو زيد، قال: سمعت رؤبة يقرأ: ﴿**فأما الزبدُ فيذهبُ جُفالاً**﴾، قال: فقلت: جفاء، قال لا إنما الريح تجفله، أي تقلعه.

وقال المازني: سألني الأصمعي عن قوله:

يا بشرنا بشر بني عديٍّ لا ينـزَحن قعرك بالدليِّ
حتى تعودي أقطْع الوليِّ

فقلت: «حتى تعودي قليباً أقطع الولي»، وكان حقه أن يقول: «قطعاء الوليّ» لقوله: تعودي.

حدّث بكار بن قتيبة، قال: ما رأيت نحوياً قطّ يشبه الفقهاء إلاّ حيان بن هلال والمازني.

وعن أبي القاسم الزجاجي، قال: أخبرنا أبو جعفر أحمد بن محمد بن رستم الطبري قال: حضرت مجلس أبي عثمان المازني وقد قيل له: لم قلّت روايتك عن الأصمعي؟ قال: رُميت عنده بالقدر والميل إلى مذاهب أهل الاعتزال، فجئته يوماً وهو في مجلسه فقال لي: ما تقول في قول الله عزّ وجلّ ﴿**إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر**﴾. قلت: سيبويه يذهب إلى أن الرفع فيه أقوى من النصب في العربية لاستعمال الفعل المضمر، وأنه ليس ههنا شيء هو بالفعل أولى، ولكن أبت عامة القراء إلاّ النصب، ونحن نقرؤها كذلك إتباعاً، لأن القراءة سنة. فقال لي: فما

الفرق بين الرفع والنصب في المعنى؟ فعلمت مراده فخشيت أن تغرى بي العامة، فقلت: الرفع بالابتداء والنصب بإضمار فعل، وتعاميت عليه. فقال: حدثني جماعة من أصحابنا أن الفرزدق قال يوماً لأصحابه: قوموا بنا إلى مجلس الحسن البصري، فإني أريد أن أطلق النوار وأشهده على نفسي. فقالوا له: لا تفعل فلعل نفسك تتبعها وتندم. فقال: لا بد من ذلك. فمضوا معه فلما وقف على الحسن قال له: يا أبا سعيد تعلمن أن النوار طالق ثلاثاً. قال: قد سمعت وتتبعها نفسه بعد ذلك، وندم وأنشأ يقول:

ندمت ندامة الكسعي لمّا ... غدت منّي مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها ... كآدم حين أخرجه ضرار
ولو أني ملكت يدي ونفسي ... لكان عليّ للقدَر الخيار

ثم قال: والعرب تقول: لو خيرت لاخترت تحيل على القدر. وينشدون:

هي المقادير فلُمْني أو فذرْ ... إن كنت أخطأت فلم يخط القدر

ثم أطبق نعليه وقال: نعم القناع للقدري، فأقللت غشيانه بعد ذلك.

وفاته:

عن أبي سعيد السكري، قال: توفي المازني سنة سبع وأربعين ومائتين[1]، وكان ذلك في السنة التي قُتِل فيها المتوكل وبويع المنتصر بالله أبو جعفر محمد بن المتوكل.

وعن الخطيب أنه مات سنة ٢٤٩ هـ أو ٢٤٨ هـ بالبصرة.

مؤلفاته:

ذكر محمد بن إسحاق أن للمازني من الكتب:

- كتاب في القرآن، كبير.
- كتاب في علل النحو.
- كتاب تفاسير.
- كتاب سيبويه.

(١) في إنباه الرواة عن ابن الفراء المصري أنه توفي سنة ٢٤٩ هـ، وعن أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب أنه توفي سنة ٢٣٦ هـ.

ـ كتاب ما يلحن به العامة.
ـ كتاب الألف واللام.
ـ كتاب التصريف.
ـ كتاب العروض.
ـ كتاب القوافي.
ـ كتاب الديباج في جوامع كتاب سيبويه.

وتصانيف المازني كلها لطاف، فإنه يقول: من أراد أن يصنّف كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستح ويخرق كتاب سيبويه في كمه عدة نوب.

وقد ذكر ياقوت[1] أنه قرأ بخط الأزهري منصور في كتاب نظم الجمان للميداني، قال: سئل المازني عن أهل العلم، فقال: أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف، وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة، والشعراء فيهم هوج، وأصحاب النحو فيهم ثقل، وفي رواية الأخبار الظرف كله والعلم هو الفقه.

كان المازني فطناً ذكياً ومناظراً مفحماً، وقد عقد له الواثق والمتوكل مناظرات بينه وبين علماء عصره ظهر فيها فضله وقوة ذهنه وملكاته. ويروى أن الواثق جمع بينه وبين جماعة من نحاة الكوفة، فبدرهم سائلاً: ما تقولون في قول الله تعالى: **﴿وما كانت أمك بغياً﴾** لمَ لم يقل بغية وهي صفة لمؤنث؟ فأجابوا إجابات لم ترضه، ولما أعياهم، قال: لو كانت «بغي» على تقدير فعيل بمعنى فاعلة للحقتها الهاء مثل كريمة وظريفة، ولو كانت بمعنى مفعولة مُنعت الهاء مثل امرأة قتيل وكفّ خضيب. غير أن «بغي» ليست على وزن فعيل، وإنما هي على وزن فعول، والهاء لا تلحقه إذا كان وصفاً لمؤنث مثل امرأة شكور، وأصل بغيّ بغوي قُلبت الواو ياءً وأدغمت في الياء، فصارت ياء ثقيلة مثل سيد وميت.

وله آراء يتناقلها النحاة، منها أنه كان يذهب مثل أستاذه الأخفش إلى أن الألف (ألف الاثنين) في قاما وواو الجماعة في قاموا ليستا فاعلين، وإنما هما علامتان دالتان على الفاعل المستتر، تؤذنان بالتثنية والجمع. وذهب مثل الأخفش في الألف والواو والياء في المثنى وجمع المذكر السالم، إذ كان يرى أن هذه

---

(١) إرشاد الأريب ٢: ٣٨٨.

الحروف ليست حروف الإعراب، وإنما هي حروف دالة عليه[1].

وعناية المازني بالنحو لا تقاس في شيء إلى عنايته بالتصريف، وقد ألف فيه كتاباً وسمه بهذا الاسم، وهو كتاب نفيس جمع فيع موضوعات التصريف التي انتثرت في كتاب سيبويه، فنظمها للمرة الأولى وصاغها صياغة علمية متقنة. وكان يتشدّد في الأخذ بالقياس ويردّ ما لا يطّرد معه من لغة العرب ومن بعض قراءات القرآن الكريم.

وكان المازني كثير المخالفة لسيبويه في بعض مسائل التصريف، فهو يقول: «إذا قال العالم قولاً متقدماً فللمتعلم الاقتداء به والانتصار له والاحتجاج لخلافه إن وجد إلى ذلك سبيلاً»[2].

---

(١) المدارس النحوية، شوقي ضيف، ص ١١٧.

(٢) انظر الخصائص لابن جني ١: ١٩٧.

المبرِّد

٢١٠ ـ ٢٨٥ هـ

أبـو العبّاس محمـد بن يزيـد بن عبد الأكبـر الثُمالي المعـروف بالمبـرِّد، والثُمالي منسوب إلى ثُمالة بن مسلم بن كعب بن الحارث بن كعب. ولد بالبصرة سنة ٢١٠ هـ، وقيل ٢٠٧ هـ، وقيل ١٩٥ هـ. أكبّ منذ نشأته على التزوّد من اللغة على أعلام عصره البصريين، وشغف بالنحو والتصريف، فلزم أبا عمر الجرْميّ يقرأ عليه كتاب سيبويه، حتى إذا توفي لزم أبا عثمان المازني، وتصدّر حلقته يقرأ عليه الكتاب والطلاب يسمعون قراءته. وبلغ من إعجاب المازني به وبفطنته أن لقّبه المبرِّد ـ بكسر الراء ـ لحسن تثبته وتأنيه في العلل، وحوّر الكوفيـون اللقب إلى المبرَّد عنتاً له وسوء نية.

قال أبو عبدالله محمد بن القاسم[1]: كان المبرّد من السورحيين بـالبصرة ممّن يكسر الأرضين، وكان يقال له السورحي، وانتمى إلى اليمن، ولذلك تزوج المبرّد ابنة الحفصي، والحفصي شريف من اليمنية.

لمع اسمه وطارت شهرته، فاستدعاه المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان إلى سرّ من رأى سنة ٢٤٦ هـ ليفتي الفتوى الصحيحة في بعض المسـائل النحـوية واللغوية، وأجزلا له العطاء. ولمّا توفّيا سنة ٢٤٧ هـ كتب محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد يحث في إشخاصه إليه، فيقدم إلى بغداد ويقيم بها، ويجري عليه محمد راتباً. حتى إذا توفي تابع أخوه عبيدالله إجراء الراتب عليه. وقد أخذ المبرّد يدرس الطلاب ببغداد في النحو واللغة، وسرعان ما اصطدم بثعلب زعيم مدرسة الكوفة في عصره، فكثرت بينهما المناظرات، وكتب للمبرّد التفوق فيها

(١) الفهرست ص ٨٨.

لقدرته على الجدل وإصابته الحجة وحسن بيانه، مما جعل الكثيرين من تلاميذ ثعلب يتحولون إلى حلقته، وفي مقدمتهم ختنه أبو علي الدينوري.

كان إسماعيل القاضي، الفقيه المالكي، يقول: ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه[1].

أخذ عنه الصولي ونفطويه النحوي وأبو علي الطوماري وجماعة كثيرة. وكان حسن المحاضرة مليح الأخبار كثير النوادر.

قال أبو سعيد السيرافي: سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول: ما رأيت أحسن جواباً من المبرّد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم. وسمعته يقول: لقد فاتني منه علم كثير لقضاء زمام ثعلب.

وقال السيرافي أيضاً: وسمعت نفطويه يقول: ما رأيت أحفظ لأخبار بغير أسانيد منه ومن أبي العباس بن الفرات.

وقال: وقد نظر في كتاب سيبويه في عصره جماعة لم يكن لهم كنباهته، مثل أبي ذكوان القاسم بن إسماعيل، وأبي علي بن ذكوان، وأبي يعلى بن أبي زرعة من أصحاب المازني، ومثل أبي جعفر بن محمد الطبري، ومثل أبي عثمان الأشنانداني، وأبي بكر محمد بن إسماعيل المعروف بمبرَمان وغيرهم.

وقال أبو عبدالله المفجّع[2]: كان المبرّد لعظم حفظه اللغة واتساعه يُتّهم، فتوافقنا على مسألة لا أصل لها نسأله عنها لننظر كيف يجيب، وكنّا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر:

أبـا منذرٍ أفنيت فـاستبق بعضَنـا ... حنانيك بعض الشر أهون من بعضِ

فقال قوم: هو من البحر الفلاني، وقال آخرون: هو من البحر الفلاني، فقطّعناه، وتردّد على أفواهنا تقطيعه ومنه «ق بعضنا» فقلت له: أيّدكَ الله تعالى، ما القبعض عند العرب؟ فقال: القطن، يصدق ذلك قول الشاعر:

كأنّ سنامها حُشِيَ القَبِعْضا

---

(١) نزهة الألبّاء ص ٢١٨.

(٢) نزهة الألباء ص ٢٢٠.

قال: فقلت لأصحابه: ترَوْن الجواب والشاهد، إن كان صحيحاً فهو عجيب، وإن كان اختلق الجواب في الحال فهو أعجب[1].

يروى أن العباس ثعلب تخلّف أبا العباس المبرّد بكلام قبيح، فبلغ ذلك المبرّد، فأنشد:

رُبّ من يعنيه حالي وهو لا يجري ببالي
قلبُه ملآن مني وفؤادي منه خالِ

فلمّا بلغ ثعلباً ذلك لم يسمع منه بعد ذلك في حقه كلمة قبيحة.

وحكى أبو بكر بن السرّاج عن محمد بن خلف، قال: كان بين أبي العباس المبرّد وأبي العباس ثعلب من المنافرة ما لا خفاء به، ولكن أهل التحصيل يفضلون المبرّد على ثعلب. وفي ذلك يقول أحمد بن عبد السلام:

رأيت محمد بن يزيد يسمو إلى الخيرات في جاهٍ وقدْرِ
وقالوا ثعلبٌ رجل عليم وأين النجم من شمس وبدرِ
وقالوا ثعلب يفتي ويملي وأين الثُعلبان من الهزبرِ

وقال الزجّاج: لمّا قدم المبرّد بغداد جئت لأناظره، وكنت أقرأ على أبي العباس ثعلب، فعزمت على إعناته، فلمّا فاتحته ألجمني بالحجة، وطالبني بالعلّة، وألزمني إلزامات لم أهتدِ إليها، فتيقّنت فضله واسترجحت عقله وأخذت في ملازمته.

إنّ الأصول التي كان يرجع إليها المبرّد في آرائه النحوية والصرفية هي الأصول نفسها التي اعتمد عليها أئمة مدرسته قبله، فهو يعنى بالتعريف والعوامل والمعمولات والسماع والتعليل والقياس. أما التعريف فإنه يدرجه في فاتحة كل باب من أبواب كتابه «المقتضب»، من ذلك حدّه للاسم في أوله وبيان العلامة التي تدل عليه، يقول: «الاسم ما كان واقعاً على معنى نحو رجل وفرس وزيد وعمرو وما أشبه ذلك، ويعتبر الاسم بواحده، وكل ما دخل عليه حرف من حروف الخفض فهو اسم، فإن امتنع من ذلك فليس باسم».

---

(1) راجع تاريخ بغداد ٣: ٣٨٠ / ٣٨١.

والمبرّد يعد بحق آخر أئمة المدرسة البصرية، وقد ذكره ابن جنّي، قال: «يعدُّ جيلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابنا (البصريين)، وهو الذي نقلها وقرّرها وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها»[1].

ويقول الأزهري[2]: «كان أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه».

ويقول ابن جني أيضاً[3]: «أما ما تعقب به أبو العباس المبرّد محمد بن يزيد كتاب سيبويه في المواضع التي سماها مسائل الغلط، فقلما يلزم صاحب الكتاب إلاّ الشيء النّزر، وهو أيضاً مع قلته من كلام غير أبي العباس».

وكان المبرّد في شبابه كتب كتاباً سماه «الرد على سيبويه» أو «مسائل الغلط»، وفيه حاول أن يظهر مقدرته في تخطئة إمام النحاة، جامعاً ملاحظات الأخفش وغيره في هذا الموضوع، وكان يقول بعد أن تقدمت به السنّ: «إنّ هذا الكتاب كنا عملناه في أوان الشبيبة والحداثة». معتذراً بذلك عنه.

كان المبرّد يحاول دائماً أن يسند آراءه بالعلل، فلا بد لكل رأي من علة تبرّره، وكان يتسع في ذلك سعة جعلته يعمّمه فيما لا حاجة للنطق به، من ذلك تعليله لمجيء الإعراب في آخر الكلم دون أوائلها وأواسطها يقول: «لم يُجعل الإعراب أولاً، لأن الأوْل تلزمه الحركة ضرورة للابتداء، لأنه لا يبتدأ إلاّ بمتحرك، ولا يوقف إلاّ على ساكن، فلما كانت الحركة تلزمه لم تدخل عليه حركة الإعراب، لأن الحركتين لا تجتمعان في حرف واحد. ولما فات وقوعه أولاً لم يكن أن يُجعل وسطاً، لأنّ أوساط الأسماء مختلفة، لأنها تكون ثلاثية ورباعية وخماسية وسباعية، فأوساطها مختلفة، فلما فات ذلك جُعل آخراً بعد كمال الاسم ببنائه وحركاته».

وكان يحتكم دائماً إلى القياس، ولكنه لم يكن يقدمه على السماع عن العرب، بحيث يرفض ما ورد على ألسنتهم أو على أكثر ألسنتهم، فقد كان يردّ ما يخالف الكثرة الكثيرة الدائرة في أفواههم، ولكن حين لا توجد هذه الكثرة كان يفسح للقياس، وكذلك كان يفسح له حين يشيع استعماله بين العرب. وليس معنى

---

(١) سر صناعة الإعراب ١: ١٣٠.

(٢) مقدمة معجم «تهذيب اللغة».

(٣) الخصائص ٣: ٢٨٧.

ذلك أنه كان يقيس على الشاذ والنادر، وإنما كـان يقيس على ما سُمـع كثيراً، يقول: «إذا جعلت النوادر والشواذ غرضك واعتمدت عليها في مقاييسك كثرت زلّاتك»[1].

فالمبرّد إذاً لم يكن يقدم القياس على السماع، فالأساس عنده السماع أولاً، إذ القيـاس إنّما يستمد منه، ويعتمد عليه.

برز من تلاميذ الأخفش وسيبويه وأصحابهما من عني باللغة ومن عني منهم بالنحو والصرف. وكذلك الحال في تلاميذ المبرّد، فممن اشتهر في المبـاحث اللغوية أبو بكر بن دريد، واشتهر ابن درستويه في الصرف، بينما اشتهر في النحو الأخفش الأصغر علي بن سليمان ومحمد بن علي المعروف بمبَـرقان، وكـذلك الزجّاج وابن السراج اللذان انتهت إليهما رئاسة النحو البصري بعد المبرّد.

وفاته:

قال أبو بكر بن السراج: كان مولد المبرّد سنة عشر ومائتين، ومات سنـة خمس وثمانين ومائتين.

وكذلك قـال محمد بن العبـاس اليزيـدي: قرىء على ابن المنـادي وأنا أسمع: مات محمد بن يزيد المبرّد في شوال سنة خمس وثمانين ومائتين في خلافة المعتضد بالله.

ولثعلب في المبرّد حين مات[2]:

ذهب المبـرّد وانقضت أيـامـه — وليـذهبنّ مـع المبـرّد ثعـلب

بيت من الآداب أضحى نصفـه — خرباً وباقي النصف منه سيخرب

فتـزوّدوا من ثعلب فبكـأس مـا — شـرب المبرّد عن قـريب يشرب

أوصيكم أن تكتبـوا أنـفـاسـه — إن كـانت الأنفـاس ممّـا يكتب

ودفن في مقابر باب الكوفة[3].

---

(١) انظر الأشباه والنظائر، السيوطي: ص ٣: ٤٩.

(٢) نزهة الألباء ص ٢٢٧.

(٣) الفهرست ص ٨٨.

مؤلفاته :

صنّف كتباً كثيرة، منها :

- نسب عدنان وقحطان .
- كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد .
- كتاب الفاضل، نصوص أدبية .
- كتاب المقتضب، في النحو.
- كتاب الاشتقاق .
- كتاب معاني القرآن، ويعرف بالكتاب التام
- كتاب التصريف .
- كتاب المدخل إلى سيبويه .
- كتاب شرح شواهد الكتاب .
- كتاب معنى كتاب الأوسط للأخفش .
- كتاب إعراب القرآن .
- كتاب الرد على سيبويه أو مسائل الغلط .
- كتاب المذكر المؤنث .
- كتاب التعازي والمراثي .
- كتاب شرح لامية العرب .
- كتاب شرح الزمخشري .
- كتاب طبقات النحاة البصريين .
- كتاب المقرب .
- كتاب الروضة .
- كتاب الأنواء والأزمنة .
- كتاب القوافي .
- كتاب الخط والهجاء .
- كتاب المقصور والممدود .
- كتاب احتجاج .القراءة .
- كتاب الرسالة الكاملة .
- كتاب قواعد الشعر .
- كتاب الحث على الأدب والصدق .
- كتاب الزيادة المنتزعة من سيبويه .
- كتاب البلاغة .
- كتاب شرح كلام العرب وتخليص ألفاظها ومزاوجة كلامها وتقريب معانيها .
- كتاب ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن .
- كتاب الممادح والمقابح .

ثعلب

٢٠٠ - ٢٩١ هـ

أحمد بن يحيى بن زيد بن سيّار الشيباني، أبو العباس المعروف بثعلب، إمام الكوفيين في النحو. ولد سنة مائتين، وكان يقول: مات معروف الكرخيّ سنة مائتين وفيها ولدت، وطلبت العربية في سنة ست عشرة ومائتين، وابتدأت بالنظر في حدود الفرّاء ولي ثمان عشرة سنة، وبلغت خمساً وعشرين سنة وما بقي عليّ للفراء مسألة إلّا وأنا أحفظها وأضبط موضعها من الكتاب، ولم يبق من كتب الفرّاء في هذا الوقت شيء إلّا وأنا قد حفظته[1]. ويقول ياقوت[2]: قرأت بخط أبي سالم الحسن بن علي قال: نقلت من خط الحسن بن علي بن مقلة، قال أبو العباس أحمد بن يحيى: ابتدأت النظر في العربية والشعر واللغة في سنة ست عشرة ومولدي سنة ٢٠٠ في السنة الثانية من خلافة المأمون، ورأيت المأمون لمّا قدم من خراسان سنة ٢٠٤ وقد خرج من بابي الحديد وهو يريد قصر الرصافة والناس صفّان في المصلّى، وكان أبي قد حملني على يده، فلما مرّ المأمون رفعني وقال: هذا المأمون وهذه سنة أربع، فحفظت ذلك إلى هذه الغاية، وحذقت العربية وحفظت كتب الفرّاء كلها حتى لم يشذّ عني حرف منها ولي ٢٥ سنة وكنت أعنى بالنحو أكثر من عنايتي بغيره.

أخذ عن محمد بن زياد الأعرابي وعلي بن المغيرة الأثرم وسلمة بن عاصم ومحمد بن سلام الجُمحي والزبير بن بكار وأبي الحسن أحمد بن إبراهيم. وأخذ عنه أبو الحسن الأخفش وابن عرفة وابن الأنباري وابن عمر الزاهد وأبو موسى

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٢٩.

(٢) إرشاد الأريب م ٢ ص ١٣٤.

الحامض وإبراهيم الحربي وغيرهم. وكان أبو العباس يقول: سمعت من القواريري مائة ألف حديث. ولما اتقن النحو أكبّ على الشعر والمعاني والغريب، فلزم أبا عبدالله بن الأعرابي بضع عشرة سنة. وقال أبو الطيب عبدالواحد اللغوي في كتابه مراتب النحويين: كان ثعلب يعتمد على ابن الأعرابي في اللغة وعلى سلمة بن عاصم في النحو، ويروي عن ابن نجدة كتب أبي زيد، وعن الأثرم كتب أبي عبيدة، وعن أبي نصر كتب الأصمعي، وعن عمرو بن أبي عمرو كتب أبيه، وكان ثقة متقناً يستغني بشهرته عن نعته، وقال: كان ثعلب حجة ديناً ورعاً مشهوراً بالحفظ والصدق وإكثار الرواية وحسن الدراية، كان ابن الأعرابي إذا شك في شيء يقول له: ما عندك يا أبا العباس في هذا؟ ثقة بغزارة حفظه.

حدّث المرزباني قال: قال عبدالله بن حسين بن سعد القطربلي في تاريخه: كان أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب من الحفظ والعلم وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ومعرفة النحو على مذهب الكوفيين على ما ليس عليه أحد، وكان يدرس كتب الفرّاء والكسائي درساً، وكان متبحراً في مذهب البصريين، ولا مستخرجاً للقياس ولا مطالباً له، وكان يقول قال الكسائي والفرّاء، فإذا سُئل عن الحجة والحقيقة في ذلك لم يعرف في النظر. وكان أبو علي أحمد بن جعفر النحوي ختنه زوج ابنته يخرج من داره وهو جالس على باب داره فيتخطى أصحابه ويمضي ومعه دفتره ومحبرته فيقرأ على أبي العباس المبرّد كتاب سيبويه، فيعاتبه ثعلب على ذلك ويقول له: إذا رآك الناس تمضي إلى هذا الرجل تقرأ عليه يقولون ماذا؟ ولم يكن يلتفت إليه. وكان ختنه هذا أبو علي يعرف بالدينوري وكان حسن المعرفة، فقال له إسحاق المصعبي: كيف صار محمد بن يزيد أعلم بكتاب سيبويه من أحمد بن يحيى؟ قال: لأن محمد بن يزيد قرأه على العلماء وأحمد بن يحيى قرأه على نفسه.

قال أبو بكر بن محمد التاريخي السراج: أحمد بن يحيى ثعلب أصدق أهل العربية لساناً، وأعظمهم شأناً، وأبعدهم ذكراً، وأرفعهم قدراً، وأوضحهم علماً، وأرفعهم حلماً، وأثبتهم حفظاً، وأوفرهم حظاً في الدين والدنيا. وقال المبرّد: أعلمُ الكوفيين ثعلب، فذُكر له الفرّاء، فقال: لا يعشِرُه[1].

---

(١) عشر يعشر: من باب ضرب: أخذ واحداً من عشرة.

وقال علي بن جمعة بن زهير: سمعت أبي يقول: لا يَرد عرصات القيامة أحد أعلم بالنحو من ثعلب.

وقال أبو بكر بن مُجاهد: كنت عند أبي العباس ثعلب، فقال: يا أبا بكر، اشتغل أهل القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغلت أنا بزيدٍ وعمرو، فليت شعري ماذا يكون حالي في الآخرة؟ فانصرفت من عنده تلك الليلة، فرأيت النبي ﷺ في المنام، فقال: «أقرىء أبا العباس عني السلام، وقل له: أنت صاحب العلم المستطيل».

قال أبو عبدالله الرُوذْباري: أراد أنّ الكلام به يكمل، والخطاب به يجمُل.

وفاته:

توفي أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ليلة السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين ومائتين في خلافة المكتفي، ودفن في مقبرة باب الشام ببغداد[1].

وذكر ياقوت فيما ذكره المرزباني أنه مات سنة ٢٩١ هـ كذلك، وقد بلغ ٩٠ سنة وأشهراً، وكان رأى أحد عشر خليفة أولهم المأمون وآخرهم المكتفي، وكان قد ثقل سمعه قبل موته.

وأنشد الخطيب قال: أنشد أبو العباس ثعلب:

بلغت من العمر ثمانينا ... وكنت لا آمل خمسينا
والحمد لله وشكراً له ... إذ زاد في عمري ثلاثينا
وأسأل الله بلوغاً إلى ... مرضاته آمين آمينا

وحدّث محمد بن أحمد الكاتب قال: حدثنا أحمد بن يحيى النحوي قال: سألني ابن الأعرابي: كم لك من الولد؟ فقلت: ابنة، وأنشدته:

لولا أميمة لم أجزع من العدمِ ... ولم أجب في الليالي حندس الظلمِ
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً ... والموت أكرم بذالٍ على الحرمِ

(١) نزهة الألباء ص ٢٣٢.

وكان قد رُدَّ مالُه على ابنته، وكان خلّف أحداً وعشرين ألف درهم وألفي دينار ودكاكين بباب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار.

وفي سبب وفاته، حدّث المرزباني عن أبي العباس محمد بن طاهر الطاهري، وكان أبو العباس ثعلب يؤدب أباه طاهر بن محمد، قال: كان سبب وفاة أبي العباس ثعلب أنه كان في يوم جمعة قد انصرف من الجامع بعد صلاته الجمعة، وكان يتبعه جماعة من أصحابه إلى منزله أنا أحدهم، فتبعناه في تلك العشية إلى أن صرنا إلى درب قد أسماه بناحية باب الشام، واتفق أن ابناً لإبراهيم بن أحمد المادرائي يسير من ورائنا على دابة وخلفه خادم له على دابة قد قلق واضطرب، وكان في تلك العشية بيده دفتر ينظر فيه وقد شغله عما سواه، فلما سمعنا صوت حوافر الدواب خلفنا تأخر عن جادة الطريق، ولم يُسمع أبا العباس لصممه صوت الحوافر فصدمته دابة الخادم فسقط على رأسه في هوة من الطريق قد أخذ ترابها فلم يقدر على القيام، فحملناه إلى منزله كالمختلط يتأوه من رأسه وكان سبب وفاته رحمه الله.

يحكى عنه أنه قال في قول الشاعر:

وما كنتُ أخشى الدهر إحلاسَ مسلمٍ ... من الناس ذنباً جاءه وهو مسلما

معناه: وما كنتُ الدهر إحلاسَ مسلمٍ مسلماً ذنباً جاءه، وهو لو وكّد الضمير لكان أحسن، وغير التوكيد جائز.

وكذلك حكى ثعلب عن العرب: «راكب الناقة طليحان» وتقديره: راكب الناقة والناقة طليحان، إلاّ أنه حذف المعطوف لتقدم ذكر الناقة، والشيء إذا تقدم دلّ على ما هو مثله.

قال ثعلب: كنت يوماً عند ابن السكيت، فسألني عن شيء فصحتُ، وكان ثعلب شديد الحدة، قال: فقال لي: لا تصح فوالله ما سألتك إلاّ مستفهماً.

وحدث أحمد بن العسكري في كتاب التصحيف قال: وأخبرنا أبو بكر بن الأنباري قال: حدثني أبي قال: قرأ القطربلي على أبي العباس ثعلب بيت الأعشى:

فلو كنت في حبّ ثمانين قامة ... ورقيت أسباب السماء بسُلّم

فقال أبو العباس: خرب بيتك، هل رأيت حباً قط ثمانين قامة؟ إنما هو جبّ.

من مصطلحات الكوفيين عنده، التقريب وهو اسم الإشارة حين يليه مرفوع ومنصوب، فقد كانوا يشبهونه بكان الناقصة، ومعروف أنهم كانوا يعربون خبرها حالاً. ونرى ثعلباً يقول: «هذا تكون مثالاً (وهي التي لا يليها مرفوع ومنصوب) وتكون تقريباً، فإذا كانت مثالاً قلت هذا زيد. . وإذا قلت هذا كزيد قائماً فهو حال، كأنك قلت: هذا زيد قائماً ولكنك قد قرّبته.

وكان يسمي اسم الفاعل بالفعل الدائم، يقول: «ولا تجيء عسى إلاّ مع مستقبل، ولا تجيء مع ماضٍ ولا دائم ولا صفة».

ويقول ابن كيسان: قال لي ثعلب: كيف تقول: مررت برجل قائم أبوه؟ فأجبته بخفض قائم ورفع الأب، فقال لي: بأي شيء ترفعه؟ فقلت: بقائم، فقال: أوليس هو عندكم (أي البصريين) اسماً وتعيبوننا بتسميته فعلاً دائماً؟».

وكان يصطلح على تسمية الضمير باسم المكنىّ والكناية، يقول: «الأعداد لا يُكنى عنها ثانية، فلا أقول: عندي الخمسة الدراهم والستتها، وأقول: عندي الحسن الوجه الجميله فأكني عنه». وكان يتوسع مثل الفرّاء فيطلق اسم العماد لا على ضمير الفصل في مثل محمد هو الشاعر وإن محمداً هو الكاتب، بل أيضاً على ضمير الشأن في مثل: إنه قام زيد، وإنه قامت هند. وتوسع في اصطلاح الصفة الذي عرف عند الفرّاء، فقد كان يطلقها على الظرف، وكان الفرّاء يسميه المحل، بينما كان يجعل الصفة خاصة بالجار والمجرور، أما ثعلب فكان يطلقها عليهما، يقول في تعليقه على الآية الكريمة: ﴿**كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً**﴾ وقعت الصفة في موضع الفعل، يريد وقع الجار والمجرور متقدماً على الخبر، ويقول: وإذا أفردوا الصفة رفع (مثل) زيد خلف، وزيد قدام، وزيد فوق، وكلها ظروف.

وقد أخذ نفسه بدعم آراء الكسائي والفرّاء مستشهداً بما استشهدا به من أشعار ومضيفاً إليها عتاداً جديداً، خاصة إذا تناولت مسألة من المسائل التي اختلفا فيها مع البصريين، من ذلك ما كان يميزه الكسائي من حذم لام الأمر في المضارع

وبقاء جزمه مع تقدم قُلْ، وجعل من ذلك قوله تعالى: ﴿**قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة**﴾ أي ليقيموها، وكان المبرد يذهب إلى أنه لا يصح حذف هذه اللام حتى في الشعر، مخالفاً في ذلك الكسائي وسيبويه والفراء، ونرى ثعلباً يستشهد لذلك ببيتين استشهد بهما من قبله الفراء، وهما قول أحد الشعراء:

فلا تستطلْ مني بقائي ومدّتي ... ولكن يكن للخير فيك نصيبُ

بجزم يكنْ، وقول الآخر:

فقلت ادعي وأدع فإن أنْدى ... لصوتٍ أن ينادي داعيان

بجزم أدع وحذف حرف العلة.

وكان يقف مع البصريين في تجويزهم مثل «ما طعامك أكل إلاّ زيد» بينما كان الكسائي يمنع مثل هذا التعبير لتقدم المفعول به بينما الفاعل محذوف، إذ كان لا يعرب «زيد» فاعلاً كما يعربه البصريون، ولذلك كان يأبى مثل هذه الصيغة.

ومن اجتهاداته إضافته على أخوات كاد فعلي نشبَ وقام، بينما ذهب إلى أن عسى حرف وليست فعلاً، وكان يذهب إلى أن لفظة الاسم مشتقة من الوسيم ولذلك، كان يقول: «الاسم سمة توضع على الشيء يُعرف بها». وذهب البصريون إلى أنه مشتق من السمو.

مؤلفاته

له من الكتب:

- كتاب المصون في النحو (جعله حدوداً).
- كتاب اختلاف النحويين.
- كتاب معاني القرآن.
- كتاب مختصر في النحو (الموفّقي).
- كتاب القراءات.
- كتاب معاني الشعر.
- كتاب التصغير.
- كتاب ما ينصرف وما لا ينصرف.
- كتاب ما يجزى وما لا يجزى.
- كتاب الشواذ.
- كتاب الوقف والابتداء.
- كتاب الهجاء.
- كتاب استخراج الألفاظ من الأخبار.
- كتاب الأوسط.
- كتاب غريب القرآن.
- كتاب المسائل.
- كتاب حدّ النحو.
- كتاب تفسير كلام ابنة الخسّ (الأيادية).

ابن كيسان

۲۹۹ هـ

محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن، المعروف بابن كيسان، وكيسان[1] لقب واسمه إبراهيم. من نحاة البصرة كان يحفظ المذهبين الكوفي والبصري لأنه أخذ عن المبرّد وثعلب، وكان أبو بكر بن مجاهد يقول: أبو الحسن بن كيسان أنحى من الشيخين، يعني المبرد وثعلباً. ومع معرفته بالمذهبين إلّا أنه كان إلى البصريين أميل. وحدث أبو الطيب في كتاب «مراتب النحويين» قال: كان ابن كيسان يسأل المبرد عن مسائل فيجيبه، فيعارضها بقول الكوفيين، فيقول في هذا على من يقوله له كذا ويلزمه كذا، فإذا رضي قال له قد بقي عليك شيء لم لا تقول كذا؟ فقال له يوماً وقد لزم قولاً للكوفيين ولجّ فيه: أنت كما قال جرير:

أسليك عن زيد لتسلى وقد أرى ... بعينيك من زيد قذى غير جارح
إذا ذكرت زيداً ترقرق دمعها ... بمذروفة العينين شوساء طامح
تبكي على زيد ولم ترَ مثله ... براء من الحمّى صحيح الجوانح
فإن تقصدي فالقصد منك سجيّة ... وإن تجمعي تلقي لجام الجوامع

وحدث أبو بكر محمد بن مبرمان قال: قصدت ابن كيسان لأقرأ عليه كتاب سيبويه فامتنع وقال اذهب به إلى أهله، يعني الزجاج وابن السراج. وكان أبو بكر ابن الأنباري يتعصّب عليه ويقول: خلط المذهبين فلم يضبط منهما شيئاً وكان يفضل الزجّاج عليه.

(۱) كيسان ليس باسم جده إنما هو لقب أبيه، ومعناه الغدر، وهي لغة سعدية.

وقال أبو حيّان التوحيدي: وما رأيت مجلساً أكثر فائدة وأجمع لأصناف العلوم وخاصة ما يتعلق بالتحف والطرف والنتف من مجلس ابن كيسان، فإنه كان يبدأ بأخذ القرآن والقراءات ثم بأحاديث رسول الله ﷺ، فإذا قرىء خبر غريب أو لفظه شاذة أبان عنها وتكلم عليها وسأل أصحابه عن معناها. وكان يقرأ عليه مجالسات ثعلب في طرفي النهار، وقد اجتمع على باب مسجده نحو مائة رأس من الدواب للرؤساء والكتّاب والأشراف والأعيان الذين قصدوه، وكان مع ذلك إقباله على صاحب المرقعة الممزقة والعباء الخلق والطمر البالي كإقباله على صاحب القصب والموشى والديباج والدابة والمركب والحاشية والغاشية. ويوماً بعد يوم جرى في مجلسه ما امتعض منه وأنكره وقضى منه عجباً، وأنشد في تلك الحالة من غرر الشعر والمقطعات الحسنة وغيرها ما ملأ السمع وحيّر الألباب حتى قال الصابىء: هذا الرجل من الجن إلاّ أنه في شكل إنسان. ومن جملة ما أنشد في تلك الحال[1]:

ما لي أرى الدهر تفنى عجائبه ... أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراسُ
إن الجديدين في طول اختلافهما ... لا ينقصان ولكن ينقص الناسُ
أبقى لنا كل محمول وفجّعنا ... بالحاملين فهم أشواء أرماسُ
يرون أن كرام الناس إن بذلوا ... حمقى وأنّ لئام الناس أكياسُ

وفاته:

ذكر أبو بكر بن الأنباري[2] أن كيسان توفي سنة تسع وتسعين ومائتين، وذلك في خلافة أبي الفضل جعفر المقتدر بالله تعالى ابن المعتضد. وكذلك ذكر الخطيب أنه مات لثمان خلون من ذي القعدة سنة ٢٩٩ هـ في خلافة المقتدر[3].

مؤلفاته:

- كتاب المهذّب في النحو.
- كتاب غلط أدب الكاتب.

---

(١) إرشاد الأريب م ٦ ص ٢٨٣.
(٢) نزهة الألباء ص ٢٣٥.
(٣) إرشاد الأريب م ٦ ص ٢٨٠.

ـ كتاب اللامات.
ـ كتاب الحقائق.
ـ كتاب البرهان.
ـ كتاب مصابيح الكتاب.
ـ كتاب الهجاء والخط.
ـ كتاب كتاب غريب الحديث (في نحو ٤٠٠ صفحة).
ـ كتاب الوقف والابتداء.
ـ كتاب القراءات.
ـ كتاب التصاريف.
ـ كتاب الشاذاني (في النحو).
ـ كتاب المذكر والمؤنث.
ـ كتاب المقصور والممدود.
ـ كتاب معاني القرآن.
ـ كتاب مختصر في النحو.
ـ كتاب المسائل على مذهب النحويين، مما اختلف فيه البصريون والكوفيون.
ـ كتاب الفاعل والمفعول به.
ـ كتاب المختار من علل النحو (٤ مجلدات).
ـ كتاب شرح الطوال[١].
ـ كتاب تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها.

نقل الزجاجي عن ابن كيسان حدّ الاسم بقوله: «الأسماء ما أبانت عن الأشخاص وتضمنت معانيها نحو رجل وفرس» ثم قال: «ولابن كيسان في كتبه حدود للاسم غير هذا هي من جنس النحويين، وحدَّه في الكتاب المختار بمثل الحد الذي ذكرناه من كلام المنطقيين»، يريد حدهم له بقولهم: «الاسم صوت موضوع دال باتفاق على معنى غير مقرون بزمان». ولعل هذا يوضح أن ابن كيسان كان يأخذ نفسه بثقافة منطقية، وقد ذكر مؤرخوه أنه كان يمتاز بحدة خاطره وبُعد

(١) السبع الطوال.

غوصه وغرائب قياساته. ويضربون لذلك مثلاً أنه سُئل عن قراءة آية سورة طه ﴿إنّ هذان لساحران﴾ ما وجهها من الإعراب؟ فقال: نجعلها مبنية (أي تلزم الألف في حالتي النصب والجر) وسُئل عن علة بنائها فقال: لأن المفرد منها مبني وهو هذا وكذلك الجمع هؤلاء فنجعلها مبنية مثلهما.

وممّا وافق فيه البصريين ذهابهم إلى أن الناصب للمضارع بعد لام التعليل أن مضمرة مثل: جئت لأكرمك، وإنما قدروا بعدها أن لأنها قد تظهر في مثل قولك: جئت لأن أكرمك. على أن ابن كيسان مع ارتضائه هذا الرأي البصري أضاف إليه أنه يجوز أن يكون الناصب بعد لام التعليل كي محذوفة لمجيئها أيضاً في مثل قولك: جئت لكي أكرمك، ومعروف أن الكوفيين يذهبون إلى أن لام التعليل تنصب المضارع بنفسها دون حاجة إلى تقرير أن كما ذهب البصريون. وكان يذهب مذهب ابن السراج والمبرد في أن العامل في التابع من النعت والتأكيد وعطف البيان هو العامل في المتبوع ينصب عليهما انصبابة واحدة، وكان الخليل وسيبويه والأخفش يذهبون إلى أن العامل فيها جميعاً هو التبعيّة. وكان يرى رأي الزجاج في أن الضمير من هو وهي الهاء فقط والواو والياء زائدتان لحذفهما في المثنى والجمع، بينما كان بقية البصريين يرون أن هو وهي جميعاً أصلان. وتابع أيضاً يونس بن حبيب في أنّ «إمّا» في مثل قولك: جاء إما زيد وإما عمرو وليست عاطفة، وإنما العطف بالواو التي قبلها.

وممّا وافق فيه الكوفيين جواز تقديم خبر «ما زال» عليها، فتقول: قائماً ما زال زيد، بينما كان البصريون لا يجيزون مثل هذا التعبير. وكان يوافقهم في أن «إيا» عماد في «إياك وأياي وإياه وأخواتهما» والضمير ما يتلوها، بينما ذهب الخليل وسيبويه والأخفش والمازني إلى أن الاسم المضمر هو «إيا» وما بعده حرف يدل على أحوال المرجوع إليه من الخطاب والتكلم والغيبة. ووافقهم في أن الاسم المؤنث علماً لرجل مثل طلحة يجوز أن يجمع جمع مذكر سالماً فيقال: طلحون، وكان الكوفيون يوجبون سكون عينه، بينما جوّز فتحها قياساً على الجمع بالألف والتاء، إذ يقال طلحات بفتح اللام، وكان البصريون لا يجيزون جمع هذا العلم إلاّ جمع مؤنث سالماً.

ووافق الكوفيين أيضاً جواز التوكيد بأكتع وأبصع وأبتع دون ذكر لكلمة

جميع، فيقال: جاءوا أكتعون، واشترط البصريون سبق كلمة أجمع لها، فلا يقال عندهم إلّا: جاءوا أجمعون أكتعون» واستدل ابن كيسان والكوفيون بسماع قول بعض الشعراء:

تحملني الـذلفاء حولاً أكتعا

ولابن كيسان في غير موافقته البصريين والكوفيين آراء خاصة اجتهادية انفرد بها، فمن ذلك أنه كان يجوّز تذكير الفعل مـع المبتدأ المؤنث المجـازي مثل: «الشمس طلع» لمجيء ذلك على لسان الشعراء في مثل قول بعضهم:

ولا أرض أبقْل إبقالها

كما جوّز تذكير الفعل مع الفاعل المؤنث الحقيقي بدون فاصل لقول بعض الشعراء:

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما

واستدلّ بأنّ سيبويه حكى عن بعض العرب قوله: قال فلانة.

وكان يعتل بأن الحال سدّت مسدّ الخبر في مثل: كتابتي الشعر قائماً،لشبهها بالظرف، فكأنما قيل: كتابتي الشعر في حال قيام، وكان يذهب إلى جواز تقدم الحال على صاحبها المجرور مستدلاً بقول الله عزّ وجلّ: ﴿**وما أرسلناك إلّا كافةً للناس**﴾ بينما كان سيبويه وكثير من البصريين يمنعون ذلك.

نخلص إلى أن ابن كيسان ابتدأ المدرسة البغدادية ببراعة، فهو يعلق على آراء الكوفيين والبصريين ممحّصاً دارساً مستوضحاً، فيأخذ لنفسه آراء من آراء البصريين وأخرى من آراء الكوفيين، وفي الحالين يختار لنفسه آراء خاصة يجتهد فيها فيجوّز ما منعه الكوفيون أو البصريون ويصنع بعد ذلك آراء جديدة وليدة إعمال فكره.

الزجّاج

٢٤١ - ٣١١ هـ

إبراهيم بن السريّ بن سهل، أبو إسحاق الزجّاج، عالم بالنحو واللغة. ولد في بغداد سنة ٢٤١ هـ، كان في فتوته يخرط الزجاج، ومال إلى النحو فعلمه المبرد. قال أبو محمد بن درستويه: حدّثني أبو إسحاق الزجاج، قال: كنت أخرط الزجاج، فاشتهيت النحو، فلزمت أبا العباس المبّرد، وكان لا يعلّم مجاناً، وكان لا يعلّم بأجرة إلاّ على قدرها، فقال: أي شيء صناعتك؟ فقلت: أخرط الزجاج، وكسبي كل يوم درهم ونصف، وأريد أن تبالغ في تعليمي، وأنا أشرط أن أعطيك كل يوم درهماً أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا، استغنيتُ عن التعليم أو احتجت إليه، قال: فلزمته، وكنت أخدمه في أموره، ومع ذلك أعطيه الدرهم، فنصحني في العلم حتى استقللتُ، فجاءه كتاب من بعض الأكابر من الصرّاة يلتمسون معلماً نحوياً لأولادهم. فقلت له: أسمِني لهم، فأسماني، فخرجت، فكنت أعلّمهم وأنفذ إليه في كل شهر ثلاثين درهماً، وأتفقده بعد ذلك بما أقدر عليه، وبقيت مدة على ذلك، فطلب عبيدالله بن سليمان مؤدباً لابنه القاسم، فقال: لا أعرف لك إلاّ رجلاً زجّاجاً عند قوم بالصّراة، قال: فكتب إليهم عبيدالله فاستنزلهم عني وأحضرني، وأسلم إليّ القاسم، فكان ذلك سبب غناي، وكنت أعطي أبا العباس المبرد بعد ذلك في كل يوم إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وكان سبب اتصاله بالمعتضد أن بعض القدماء وصف للمعتضد كتاب جامع النطق الذي عمله محبرة النديم، وهو محمد بن يحيى بن أبي عباد ويكنى أبا جعفر، وكان ينادم المعتضد، وجعل كتابه جداول، فأمر المعتضد القاسم بن عبيدالله أن يطلب من يفسّر تلك الجداول. فبعث إلى ثعلب وعرضه عليه، فلم

يتوجه إلى حساب الجداول، وقال: لست أعرف هذا، فإن أردتم كتاب العين فموجود ولا رواية له، وكتب إلى المبّرد أن يفسّرها، فأجابهم بأنه كتاب طويل يحتاج إلى شغل وتعب، وأنه قد أسنّ وضعف عن ذلك، فإن دفعتموها إلى صاحبي إبراهيم بن السري رجوت أن يفي بذلك. فتغافل القاسم عن مذاكرة المعتضد بالزجاج حتى ألحّ عليه المعتضد، فأخبره بقول ثعلب والمبرد، وأنه أحال على الزجاج بذلك. ففعل القاسم، فقال الزجاج: أنا أعمل ذلك على غير نسخة ولا نظر في جدول. فأمره بعمل البتاني. فاستعار الزجاج كتب اللغة من ثعلب والسكري وغيرهما، لأنه كان ضعيف العلم باللغة، ففسد البتاني كله، وكتبه بخط الترمذي الصغير أبي الحسن وجلّده، وحمله الوزير القاسم إلى المعتضد فاستحسنه وأمر له بتلثمائة دينار، وتقدم إليه بتفسيره كله، ولم يخرج لما عمله الزجاج نسخة إلى أحد إلّا إلى خزانة المعتضد. وصار للزجاج بهذا السبب منزلة عظيمة، وجعل له رزق في القدماء ورزق في الفقهاء ورزق في العلماء ثلثمائة دينار. وصار مع المعتضد بعد ذلك يعلم أولاده.

وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. فعن عبد السلام بن حسن البصري قال: كتب إلينا أبو الحسن علي بن محمد الشمشاطي من الموصل قال: قال أبو إسحاق بن السري الزجاج: دخلت على أبي العباس ثعلب رحمه الله في أيام أبي العباس محمد بن يزيد المبرّد، وقد أملى شيئاً من المقتضب، فسلمت عليه وعنده أبو موسى الحامض، وكان يحسدني شديداً ويجاهرني بالعداوة. وكنت ألين له وأحتمله لموضع الشيخوخة. فقال أبو العباس لي: قد حمل إليّ بعض ما أملاه هذا الخلدي (يعني المبرد) فرأيته لا يطوع لسانه بعبارة. فقلت له: إنه لا يشك في حسن عبارته اثنان، ولكنه سوء رأيك فيه يعيبه عندك. فقال: ما رأيته إلّا ألكنَ متغلّقاً. فقال أبو موسى: والله إن صاحبكم ألكن (يعني سيبويه). فأحفظني ذلك. ثم قال: بلغني عن الفرّاء أنه قال: دخلت البصرة فلقيت يونس وأصحابه فسمعتهم يذكرونه بالحفظ والدراية وحسن الفطنة، فأتيته فإذا هو أعجم لا يفصح سمعته يقول لجارية: هاتِ ذيك الماء من ذاك الجرة، فخرجت من عنده ولم أعد إليه. فقلت له: هذا لا يصح عن الفرّاء وأنت غير مأمون في هذه الحكاية، ولا يعرف أصحاب سيبويه من هذا شيئاً، وكيف تقول هذا لمن يقول في أول كتابه:

هذا باب علم ما الكلم من العربية وهذا يعجز عن إدراك فهمه كثير من الفصحاء فضلاً عن النطق به. فقال ثعلب: قد وجدت في كتابه نحواً من هذا. قلت: ما هو؟ قال: يقول في كتابه في غير نسخة: حاشا حرف يخفض ما بعده كما تخفض حتى وفيها معنى الاستثناء. فقلت له: هذا كذا في كتابه وهو صحيح، ذهب في التذكير إلى الحرف وفي التأنيث إلى الكلمة، قال: والأجود أن يحمل الكلام على وجه واحد. قلت: كل جيد قال الله تعالى: **﴿ومن يقنت منكنّ لله ورسوله ويعمل صالحاً﴾** وقرىء وتعمل صالحاً، ذهب إلى اللفظ، وليس لقائل أن يقول: لو حمل الكلام على وجه واحد في الاثنين كان أجود، لأن كلّاً جيد. فأما نحن فلا نذكر حدود الفرّاء لأن خطأه فيه أكثر من أن يعد.

وعن علي بن عبد العزيز الطاهري، قال: أخبرنا أبو محمد الوراق، قال: كنت بشارع الأنبار وأنا صبي يوم نيروز، فعبر رجل راكب، فبادر بعض الصبيان فقلب عليه ماء، فأنشأ يقول وهو ينفض رداءه:

إذا قلّ ماءُ الوجه قلّ حياؤه ... ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه[1]

فلما عبر قيل لنا: هذا أبو إسحاق الزجّاج.

وقال أبو الفتح عبيدالله بن أحمد النحوي: توفي أبو إسحاق الزجاج في جمادى الآخرة من سنة إحدى عشرة وثلاثمائة.

وقال غيره: توفي يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من الشهر في خلافة المقتدر بالله.

مؤلفاته:

صنّف الزجّاج مصنفات كثيرة، وكان صاحب اختيار في علمي النحو والعروض، وكان حسن العقيدة، جميل الطريقة.

فمن تصانيفه:

- كتاب ما فسّره من جامع النطق لمحبرة محمد بن يحيى بن أبي عباد.

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٤٦.

ـ كتاب معاني القرآن (ابتدأ بكتابته في صفر سنة ٢٨٥ هـ وأتمه في ربيع الأول سنة ٣٠١ هـ).
ـ كتاب الاشتقاق.
ـ كتاب القوافي.
ـ كتاب العروض.
ـ كتاب الفرق بين المذكر والمؤنث.
ـ كتاب خلق الإنسان.
ـ كتاب خلق الفرس.
ـ كتاب مختصر النحو.
ـ كتاب فعلت وافتعلت.
ـ كتاب ما ينصرف وما لا ينصرف.
ـ كتاب شرح أبيات سيبويه.
ـ كتاب النوادر.
ـ كتاب الردّ على فصيح ثعلب[1].
ـ كتاب الأمالي، في اللغة والأدب.

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٤٤.

أبو القاسم الزجّاجي

ت ٣٣٧ هـ

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، من أهل الصيمرة الواقعة بين ديار الجبل وديار خوزستان، ولد بنهاوند ـ جنوبي همذان ـ وانتقل إلى بغداد ينهل من حلقات العلم، ولزم الزجّاج النحوي البصري وقرأ عليه النحو، ومنه لزمه لقبه الزجاجي. رحل إلى الشام فأقام مدة بحلب، ثم تركها إلى دمشق واتخذها دار مقام له، وأكب فيها على التصنيف والإملاء للطلاب. ثم إنه رحل إلى طبرية ومات بها سنة ٣٣٧ هـ على ما اتفقت عليه المصادر. فكانت حياته إذاً في عصر المقتدر وابن المعتز والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي، ومات في خلافة المطيع حين غلب بنو بويه على مقاليد الأمور.

كان أبو القاسم شديد الولع بالعلم، أكثر من ملازمة علماء عصره والأخذ عنهم، إذ أخذ عن الزجّاج، ومحمد بن رستم الطبري، وابن كيسان، وابن دريد والأخفش الأصغر وابن شقير، وابن الخياط، وابن السراج، وغيرهم، وتخرج على يده عدد من التلاميذ أكثرهم دمشقيون ومنهم أبو الزلازل الحسين عبد الرحيم، وأبو الحسن بن محمد بن إسماعيل بن محمد الأنطاكي، وهو الذي روى عنه كتاب «مختصر الزاهر»، ومحمد بن سابقة الدمشقي، وعبد الرحمن بن محمد بن أبي نصر الدمشقي، وأبو يعقوب إسحاق بن أحمد الطائي.

وقد كانت ثقافته نموذجاً من ثقافة العلماء في القرن الرابع الهجري، وهو القرن الذي حفل بنتاج خصب للعقلية العربية الإسلامية في أوج نضوجها ورقيها. وكان هو من أكثر العلماء طلباً للعلم وأنشطهم تصنيفاً، وكانت هذه التصانيف وافرة شاملة تناولت علوم الصرف والنحو واللغة والأدب.

وكان أبو القاسم على إلمام ببعض لغات العصر آنذاك، وإن كان لم يأت على ذكر هذه اللغات التي ألمّ بها، فقد قال في معرض كلامه على أقسام الكلام وأنها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف: «وقد اعتبرنا ذلك في عدة لغات عرفناها سوى العربية فوجدناه كذلك»[1].

أمّا ثقافته فقد كانت محل احترام الناس وقتئذٍ، فقد قرّظه القوم وأثنوا عليه وعوّلوا على تصانيفه إلى أن نجم الفارسي وابن جني وسطعت شمسهما فأخملا ذكره. وقد أجمع العلماء على حسن علمه وشهرة تصانيفه، وليس من طعن فيه وتكلم عنه بسوء سوى أبي علي الفارسي الذي قال، بعد وقوفه على بعض مسائل له في النحو: «لو سمع الزجاجي كلامنا في النحو لاستحيا أن يتكلم فيه»[2].

غير أن تصانيف الزجاجي تشهد له ولعلمه، حتى إن ابن الأنباري يعدّه في طبقة الفارسي، ولعلّ لدى الفارسي أسباباً دفعته إلى هذا القول والحط من قدره، وهذا ما عرف عن الفارسي الذي قال مثل الذي قاله عن الزجاجي في عالم آخر من علماء النحو هو أبو الحسن الرماني، فقد زعم أنه إنْ كان النحو ما عند الرماني فليس عنده شيء منه، وإن كان النحو ما عنده فليس عند الرماني من شيء. هذا بالإضافة إلى أن أبا علي الفارسي كان من أنصار سيبويه متعصّباً له كارهاً لمخالفيه، في حين أن الزجاجي كان يخالف بعض آراء سيبويه ولا يقبل بها، وقال في بعض المسائل بغير رأيه[3].

أمّا مذهب الزجاجي في النحو فهو مذهب طبقة العلماء الذين أتوا على إثر ثعلب والمبرّد، فجمعتهم حلقات الدرس في مساجد بغداد وقصورها، ففترت لديهم حدة التعصّب، وبسطوا المذهبين البصري والكوفي، وأخذوا من المدرستين مع تفاوت في قدر ما يأخذون من كل منهما. وقد نهل الزجاجي عن علماء بصريين وكوفيين، كما درس على آخرين جمعوا بين علمي المدرستين، فكان على غرارهم في التوفيق، والإحاطة بالعلمين معاً، وإن كان سلك مسلك أستاذه الزجّاج في انتحائه المذهب البصري والأخذ برأي المدرسة البصرية في

(١) الإيضاح في علل النحو.

(٢) إنباه الرواة ٢: ١٦٠.

(٣) انظر كتاب اللامات للزجاجي، تحقيق د. مبارك ص ١٠.

غالب مسائل النحو. على أنه مع ذلك لم يتعصّب ويتحامل، ولم يكن مقلّداً، وإنّما انتهج سبيل حرية الفكر واستقلال الرأي، بالإضافة إلى ما عرف عنه من نبل الأخلاق وسماحة النفس، ولهذا نراه حين يعرض للمسائل النحوية يعرض حجج الكوفيين ويستعمل مصطلحاتهم ويعترف بفضلهم وفضل أساتذته الذين أخذ عنهم[1].

امتاز أسلوب الزجاجي بالاتزان، وطول النفس، والدربة بطرق الحوار والجدل. فهو يعرض المسألة بإيجاز، ثم يورد الحجج عليها ويذكر الآراء فيها، ناقداً ومصوّباً، فيثبت رأياً ويضعف وينقض رأياً آخر، وهو في كل هذا يحذو حذو المنطقيين في إيراد حجج الخصوم بغية دكّ صرحها وتدعيم أسس آرائه وتثبيتها. وامتاز أيضاً بالأمانة في النقل والرواية ممن أخذ عنهم، فهو لا يذكر شاهداً من الشواهد على مسألة إلّا أشار إلى قائله، ولا يذكر خبراً إلّا أتى على ذكر صاحب سنده، كما ورد في كتابه «الأمالي». وقد روي أنه سئل سؤالاً فكتب في جوابه: «وليست هذه المسألة مسطرة لأصحابنا في شيء من كتبهم، وهي مسطرة، في كتب الكوفيين، ولكني سألت عنها أبا بكر بن الخياط وابن شقير فأجاباني بما ذكرته لك»[2].

إذاً فالزجاجي وإن كان ينحو منحى البصريين، فإنه كان يحيط بآراء المدرستين ووجوه اعتلالاتهما واحتجاجاتهم مسطرة خصائصها والوفاء بحقوقها، وكان حين يجد الحجة الكوفية تنقصها الدقة المنطقية المعروفة في حجج البصريين لا يزال يداويها ويصلحها حتى تُسبك في الصورة البصرية. وقد مضى في تصانيفه وآرائه النحوية يتوقف بإزاء كثير من المصطلحات والآراء البصرية مختاراً لنفسه ما يقابلها عند الكوفيين، وكثيراً ما نجده في سبيل غير هذين السبيلين آخذاً بآرائه الجديدة التي استخلصها لنفسه.

مؤلفات الزجاجي:

ترك أبو القاسم للمكتبة العربية ثروة ضخمة شملت معظم نواحي الفكر من نحو ولغة وصرف ونقد وأدب وعروض وروايات وأخبار، كانت مرآة لثقافة القرن

---

(١) كتاب اللامات ص ١١.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ٢: ١٤٦.

الرابع الهجري، لكن هذه المؤلفات لم تصل إلينا كلها، وإنما وصل البعض منها وما يزال البعض مخطوطاً. أما أهمها:

ـ كتاب الجمل: في النحو: صنّفه في مكة ولعلّه جاور بها فترة فصنّف كتابه هذا. ذكر القفطي قال: «وهو كتاب المصريين وأهل المغرب وأهل الحجاز واليمن والشام إلى أن اشتغل الناس باللّمع لابن جني وبالإيضاح لأبي علي الفارسي»[1] وقد أقبل العلماء على كتابه هذا شرحاً وتعليقاً حتى وضعوا له في المغرب مائة وعشرين شرحاً[2].

ـ الأمالي «المعروف بأمالي الزجاجي» وهو مجموعة أخبار يجد فيها المطلع أفانين من التفسير في آية من آيات القرآن إلى خبر تاريخي إلى شعر لابن أبي ربيعة إلى رثاء ابن أبي دؤاد. وقد كان الزجاجي يملي هذه الأخبار على طلابه، فكان لكل درس أخباره ونصوصه على نحو ما كان يدور في المجالس الأدبية القديمة.

ـ الإيضاح في علل النحو. دراسة العلل النحوية، جمع فيه الزجاجي العلل النحوية التي شاعت في عصره آنئذٍ.

ـ شرح مقدّمة أدب الكاتب لابن قتيبة. شرح فيه الزجاجي خطبة المؤلف في كتابه شرحاً اعتمد فيه على الاعتناء باللغة والنحو والصرف.

ـ مختصر الزاهر لابن الأنباري. وقد شرحه واختصره وحذف منه الشواهد والتعليقات عليها، ورد على ابن الأنباري آراءه الكوفية وأحلّ محلها ما يقابلها من المدرسة البصرية.

ـ اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل مما يتعلق بها من اللغات والمصادر والتأويل. وقد أحصى فيه المؤلف أسماء الله الحسنى وتحدث عما يتصل بكل اسم من الأسماء من اللغة والمعنى والاشتقاق.

ـ كتاب الإبدال والمعاقبة والنظائر. بحث فيه تبادل الحروف بعضها مع بعض وتعاقبها وتناظرها.

---

(١) إنباه الرواة ٢ : ١٦١.
(٢) شذرات الذهب لابن العماد ٢ : ٣٥٧.

- كتاب اللامات. تحدث فيه الزجاجي عن حرف اللام في اللغة العربية، وتناول في حديثه كل ما يتصل بهذا الحرف ومواقعه في الكلام وأحكامه المختلفة. وقد جرى فيه مجرى سيبويه في الكتاب، والمبرد في المقتضب، وابن السراج في الأصول.
- شرح كتاب الألف واللام للمازني.
- المخترع في القوافي.
- كتاب الهجاء.
- كتاب المجموع في معرفة أنواع الشعر وقوافيه.
- كتاب معاني الحروف، ذكر الإشبيلي في فهرسة ما رواه عن شيوخه.
- شرح رسالة سيبويه. وهو شرح للصفحات الأولى من كتاب سيبويه، ذكره المؤلف في كتابه «الإيضاح في علل النحو».
- كتاب غرائب مجالس النحويين الزائدة على تصنيف المصنفين.
- الإذكار بالمسائل الفقهية. مجموعة مسائل نحوية تتصل بالفقه، وقد جمعها السيوطي في «الأشباه والنظائر».
- رسالة في بيان الأسئلة الواردة على البسملة وأجوبتها.
- مسائل متفرقة. إحدى عشرة مسألة بعث بها الزجاجي في جواب له عن سؤال وجّه إليه.

مسألة للزجاجي:

في مسألة من مسائل النحاة نرى الزجاجي يتابع البصريين غالباً، وقد يتابع الكوفيين على نحو ذهابه مذهبهم في أنّ «كأنّ» إذا كان خبرها اسماً جامداً كانت للتشبيه مثل: كأنّ زيداً أسد، وإذا كان مشتقاً كانت للشك بمنزلة ظننت وتوهمت، مثل: كأنّ زيداً قائم، وقد تأتي للتحقيق مثل قول الحارث بن خالد المخزومي:

فأصبح بطن مكة مقشعراً   كأن الأرض ليس بها هشامُ

وكان البصريون يذهبون إلى أنها للتشبيه دائماً ولا معنى لها سواه، فكان الزجاجي يكثر من التوقف عند آراء البصريين والكوفيين معاً، وذلك في محاولة للخروج برأي جديد. ومن مثل هذا أن سيبويه كان يذهب إلى أن «سوى» ظرف

مكان دائماً، وذهب الكوفيون، إلى أنها ظرف متمكن يستعمل ظرفاً كثيراً وغير ظرف قليلاً، وأما الزجاجي فقد ذهب إلى أنها ليست ظرفاً وأنها تقع فاعلاً في مثل: جاء سواك، ومفعولاً به في مثل: رأيت سواك، وبدلاً أو استثناء في مثل: ما جاءني أحد سواك، أي أنه لا يجوز فيها الرفع عندئذ على البدلية والنصب على الاستثناء. وكان جمهور البصريين يذهب إلى أنه إذا وصلت إنّ وأخواتها بما يبطل عملها ما عدا ليت، فيجوز فيها الإعمال والإهمال، وأضاف الزجاج إليها لعلّ وكأن، ولكن الزجاجي عمّم الإلغاء والإعمال لما حكي عن العرب قولهم: إنما زيداً قائم، وهو في هذه المسألة يصدر عن منهج الكوفيين إذا سمعوا لفظاً شاذاً قاسوا عليه وعمموا الحكم.

السّيرافي

٢٨٤ - ٣٦٨ هـ

الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي، أبـو سعيد النحـوي القاضي. أصله من سيراف، وهي بـلدة على ساحل البحر من فارس، ولد سنة ٢٨٤ هـ، كان أبوه مجوسياً اسمه بهزاد فسمّاه أبا سعيـد عبدالله. تفقـه في عمان، وسكن بغداد، فقرأ على أبي بكر بن مجاهد القرآن، وعلى أبي بكر بن دريد اللغة، ودرسا عليه جميعاً النحو، وقرأ على أبي بكر بن السراج، وأبي بكر المبرمان النحو، وقرأ أحدهما عليه القرآن، ودرس الآخر عليه الحساب.

قال محمد بن العباس بن الفرات: كان أبو سعيد عالماً فاضلاً معدوم النظير في علم النحو خاصّة.

وذكر رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن، ابن المسلمة، أنّ أبا سعيد السيـرافي كان يـدرّس القرآن والقـراءات وعلوم القـرآن والنحـو واللغـة والفقـه والفرائض والكلام والشعر والعروض والقوافي والحساب. وكان من أعلم الناس بنحو البصريين وينتحل في الفقه مذهب أهل العراق. وقال أيضاً: وقرأ على ابن مجاهد القرآن.

كان السيرافي زاهداً يأكـل من كسب نفسه، وكـان لا يخرج إلى مجلس القضاء، وكان قد تولى نيابة القضاء، إلاّ بعد أن ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرتها عشرة دراهم، تكون بقدر مؤونته، ثم يخرج إلى مجلسه. وكان نزيهاً عفيفاً، جميل الطريقة، حسن الأخلاق.

صنّف كتباً منها شـرح كتاب سيبـويه. قـال أبو حيـان التوحيـدي: رأيت

أصحاب أبي علي الفارسي يكثرون الطلب لكتاب شرح سيبويه، ويجتهدون في تحصيله. فقلت لهم: إنكم لا تزالون تقعون فيه وتزرون على مؤلفه فما لكم وله؟ قالوا: نريد أن نردّ عليه ونعرّفه خطأه فيه. قال أبو حيان: فحصّلوه واستفادوا منه ولم يردّ عليه أحد منهم.

وكان أبو علي الفارسي وأصحابه كثيري الحسد لأبي سعيد السيرافي، وكانوا يفضلون عليه الرماني. فقد روى ابن جني عن أبي علي أن أبا سعيد السيرافي قرأ على ابن السراج خمسين ورقة من أول الكتاب ثم انقطع، قال أبو علي: فلقيته بعد ذلك فعاتبته على انقطاعه، فقال لي: يجب على الإنسان أن يقدم ما هو أهم وهو علم الوقت من اللغة والشعر والسماع من الشيوخ. فكان يلزم ابن دريد ومن جرى مجراه من أهل السماع.

ذكر ابن النديم، قال[1]: قال الشيخ أبو أحمد: ولد أبي أبو سعيد الحسن بن عبدالله ابن المرزبان، وأصله من فارس، بسيراف وفيها ابتدأ بطلب العلم وخرج منها قبل العشرين، ومضى إلى عمان وتفقه بها، ثم عاد إلى سيراف ومضى إلى العسكر فأقام بها مدة، ولقي محمد بن عمر الصيمري المتكلم، وكان يقدمه ويفضله على جميع أصحابه، وكان فقيهاً على مذاهب العلماء العراقيين، وخلف القاضي أبا محمد بن معروف على قضاء الجانب الشرقي، وكان أستاذه في النحو، ثم الجانبين ثم الجانب الشرقي. وكان الكرخي الفقيه يفضله ويقدمه وعقد له حلقة يفتي فيها، ومولده قبل التسعين وتوفي في رجب لليلتين خلتا منه سنة ٣٦٨ هـ.

وقال ياقوت[2]: قرأت بخط أبي حيان التوحيدي في كتابه الذي ألفه في تقريظ الجاحظ، وقد ذكر جماعة من الأئمة كانوا يقدمون الجاحظ ويفضلونه، فقال: ومنهم أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة، أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وُجد له

(١) الفهرست ص ٩٣.

(٢) إرشاد الأريب ج ٣ ص ٨٦.

خطأ ولا عثر منه على زلة، وقضى ببغداد وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطه في السليماني فما جاراه فيه أحد ولا سبقه إلى تمامه إنسان، هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية، صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله.

وقال ياقوت أيضاً: قرأت بخط أبي علي المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابيء: قرأنا على أبي سعيد الحسن بن عبدالله في كتاب ما يلحن به العامة لأبي حاتم «هو الشمع مفتوح الشين والميم»، فسألناه عمّا يحكى عن أبي بكر بن دريد أنه قال «شِمع» بكسر السين، فقال: لا يعاج عليه. قلنا له: فهو صحيح عن ابن دريد؟ فقال: نعم، هو عنه بخطي في كتاب الجمهرة قال: وكان أبو الفتح بن النحوي وأبو الحسن الدريدي سألاني عن ذلك فاستعفيت من الإجابة لئلا أنسب إلى أبي بكر حرفاً أجمع الناس على خلافه.

وقال أبو حيان في كتاب «محاضرات العلماء»: حضرت مجلس شيخ الدهر وقريع العصر العديم المثل المفقود الشكل أبي سعيد السيرافي، وقد أقبل على الحسين بن مردويه الفارسي يشرح له ترجمة المدخل إلى كتاب سيبويه من تصنيفه، فقال له: علق عليه واصرف همتك إليه فإنك لا تدركه إلّا بتعب الحواس ولا تتصوره إلّا بالاعتزال عن الناس. فقال: أيّد الله القاضي، أنا مؤثر لذلك، ولكن اختلال الأمر وقصور الحال يحول بيني وبين ما أريده: فقال له: ألك عيال؟ قال: لا. قال: عليك ديون؟ قال: دريهمان. قال: فأنت ريّح القلب حسن الحال ناعم البال، اشتغل بالدرس والمذاكرة والسؤال والمناظرة وأحمد الله تعالى على خفة الحاذ[1] وحسن الحال، وأنشده:

إذا لم يكن للمرء مال ولم يكن	له طرق يسعى بهنّ الولائد
وكان له خبز وملح ففيهما	لع بلغة حتى تجيء العوائد
وهل هي إلّا جوعة إن سددتها	فكل طعام بين جنبيك واحد

قال أبو حيان في الإمتاع والمؤانسة: فقال لي الوزير: أين أبو سعيد من أبي علي وأين علي بن عيسى منهما، وأين ابن المراغي أيضاً من الجماعة، وكذلك المرزباني وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه؟ فكان من الجواب[2]: أبو سعيد

(١) يقال: فلان خفيف الحاذ أي قليل الماء كما يقال خفيف الظهر.
(٢) انظر إرشاد الأريب ج ٣ ص ٩٩.

أجمع لشمل العلم وأنظم لمذاهب العرب وأدخل في كل باب وأخرج عن كل طريق وألزم للجادة الوسطى في الدين والخلق وأروى للحديث وأقضى في الأحكام وأفقه في الفتوى وأحضر بركة على المختلفين وأظهر أثراً في المقتبسة. ولقد كتب إليه نوح بن نصر، وكان من أدباء ملوك آل ساسان سنة ٣٤٠ هـ كتاباً خاطبه فيه بالإمام وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة مسألة الغالب عليها الحروف وما أشبه الحروف، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شك فيها فسأله عنها، وكان هذا الكتاب مقروناً بكتاب الوزير البلعمي خاطبه فيه بإمام المسلمين ضمنه مسائل القرآن وأمثالاً للعرب مشكلة. وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من آذربيجان كتاباً خاطبه فيه بشيخ الإسلام سأل عن مائة وعشرين مسألة أكثرها في القرآن وباقي ذلك في الروايات عن النبي ﷺ وعن الصحابة. وكتب إليه ابن حنزابة من مصر كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الجليل وسأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث المروي عن النبي ﷺ وعن السلف. وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان على يد شيخنا أبي سليمان المنطقي كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الفرد سأل فيه عن سبعين مسألة في القرآن، ومائة كلمة في العربية، وثلثمائة بيت من الشعر. هكذا حدثني به أبو سليمان، وأربعين مسألة في الأحكام وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين. قال الوزير (ابن سعدان): وهذه المسائل والجوابات عندك؟ قلت: نعم. قال: في كم تقع؟ قلت: لعلها تقع في ألف وخمسمائة ورقة، لأن أكثرها في الظهور. قال: ما أحوجنا إلى النظر إليها والاستمتاع بها والاستفادة منها، وأين الفراغ وأين السكون، ونحن في كل يوم ندفع إلى طامّة تنسي ما سلف وتوعد بالداهية.

وفاته:

قال هلال بن المحسِّن: توفي أبو سعيد السيرافي في يوم الاثنين ثاني رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله تعالى ابن المطيع لله تعالى. ودفن بمقبرة الخيزران ببغداد بعد صلاة العصر من ذلك اليوم.

مؤلفاته:

له من الكتب:

ـ كتاب شرح سيبويه. قال ابن الأنباري[1]: لم يشرح كتاب سيبويه أحد أحسن منه، ولو لم يكن له غيره لكفاه ذلك فضلاً.

ـ كتاب ألفات الوصل والقطع.

ـ كتاب أخبار النحويين البصريين.

ـ كتاب الوقف والابتداء.

ـ كتاب صيغة الشعر والبلاغة. (ولعلهما كتابان).

ـ كتاب شرح مقصورة ابن دريد.

ـ كتاب الإقناع في النحو (أكمله بعده ابنه يوسف)، وكان يقول: وضع أبي النحو في المزابل بالإقناع، يريد أنه سهّله حتى لا يحتاج إلى مفسر[2].

ـ كتاب شواهد كتاب سيبويه.

ـ كتاب المدخل إلى كتاب سيبويه.

ـ كتاب جزيرة العرب.

كان السيرافي كثير الاعتناء بالنحو، يفزع إليه الطلاب في تفسير مشكله وحل عويصه ومستغلقه. وكان يعتنق الاعتزال مما جعله شديد الصلة بالمنطق والمباحث الفلسفية، وقد كان هذا سلاحه لقهر مناظريه، ومناظرته التي أفحم فيها متى بن يونس مشهورة[3].

وكان شغوفاً بكتاب سيبويه، فألف عليه شرحه المطول الذي يضم آراء المتقدمين من البصريين والكوفيين جميعاً، وكان يتوقف دائماً للرد على الكوفيين فيه.

ووقوفه إلى جانب مدرسة البصرة لم يمنع من مخالفتهم أحياناً، ومخالفة سيبويه والأخذ بآراء غيره، ومن ذلك أنه كان يرد رأي سيبويه في أن كيف ظرف، ويذهب مذهب الأخفش في أنها اسم غير ظرف. وكان سيبويه والخليل يريان أن الجزم في مثل «ائتني أكرمك» بالطلب نفسه لتضمنه معنى إن الشرطية، بينما ذهب السيرافي إلى أن المضارع مجزوم بالطلب لنيابته مناب الجازم الذي هو الشرط

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٠٧.

(٢) إرشاد الأريب ٣: ٨٦.

(٣) انظرها في إرشاد الأريب ٣: ١٠٥. (فهي فيه كاملة).

المقدّر، كما أنّ النصب بـ «ضربًا» في قولك: ضرباً زيداً، لنيابته عن أضربْ لا لتضمنه معناه.

وقد أكثر السيرافي من تخريجاته لوجوه الإعراب في الصيغ والعبارات وكان يرى أن جملة أفعال الاستثناء مثل ليس ولا يكون وخلا وعدا في موضع نصب حال، وجوّز فيها أن تكون مستأنفة.

وعند السيرافي تنتهي مدرسة البصرة في تأصيل القواعد ومدّ الفروع المتشابكة، وكانت تقابلها منذ الكسائي وما ألهمه به الأخفش من الخلاف على سيبويه مدرسة الكوفة[1].

(١) المدارس النحوية، شوقي ضيف ص ١٥٠.

أبو بكر الزبيدي

٣٠٨ - ٣٧٩ هـ

محمد بن الحسن بن عبدالله بن مذحج بن محمد بن عبدالله بن بشر الداخل بن أبي ضمرة، من بني مازن بن ربيعة بن زبيد بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج. يكنى أبا بكر ويلقب بالزبيدي نسبة إلى جده الأعلى زبيد بن صعب. وقد ضبط صاحب وفيات الأعيان (ابن خلكان) كلمة الزبيدي بقوله: «والزبيدي بضم الزاء وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها دال مهملة، هذه النسبة إلى زبيد واسمه منبه بن صعب بن سعد العشيرة بن مذحج». وقال عن قبيلته: «وزبيد قبيلة كبيرة باليمن خرج منها خلق كثير من الصحابة وغيرهم رضي الله عنهم»، وهي قبيلة عمرو بن معديكرب الزبيدي الفارس الجاهلي المشهور.

ذكرت المصادر أن أباه أبا القاسم الحسن بن عبدالله من أهل إشبيلية، وقد كان شيخاً طاهراً من أهل الفضل. ويبدو أن علوم الحديث قد جذبته أكثر من غيرها، فسمع بإشبيلية من محمد بن جنادة، وبقرطبة من طاهر بن عبدالعزيز وعبيدالله بن يحيى بن يحيى الليثي. ثم رحل ولقي بمكة عبدالله بن علي بن الجارود وسمع منه كثيراً، ثم من ابن القمري وإبراهيم بن سعيد الحذاء ومحمد بن حميد الجرجاني كاتب علي بن عبدالعزيز وأبي سعيد عبدالرحمن بن سعيد المعروف بالمعلم وغيرهم. ومن ثم عاد إلى الأندلس فأكثر من رواية كتب الرجال في التعديل والتجريح غير أنه لم يكن له بصر بالحديث ولا معرفة بطرقه[1]. ومن كتب الرجال التي قرئت عليه كتب ابن الجارود وهي: «التعديل والتجريح»

(١) تاريخ ابن الفرضي ١ : ١٢٨.

لأصحاب الحديث، وكتاب «الآحاد في أسماء الصحابة» وكتاب «الضعفاء المتروكين» وكتاب «أبو حنيفة» وكتاب «المنتقى». وكان من الذين تلمذوا له وسمعوا منه أبو محمد عبدالله بن محمد بن علي الباجي، قرأ عليه الكتب المذكورة، وأبو بكر بن القوطية. ولم يقتصر جهده على الرواية بل وضع كتاباً في فضائل مالك بن أنس. وقد توفي سنة ٣١٨ هـ، وقيل قريباً من سنة عشرين وثلاثمائة، وكان ابنه محمد في سن صغيرة لم تسمح له بالأخذ عنه والسماع منه، وهو ما ذكر الزبيدي نفسه. وكان للزبيدي أخ هو أبو محمد عبدالله بن الحسن الزبيدي، وكان على معرفة باللغة والأدب.

ذكرت المصادر أن الزبيدي أبا بكر ولد بإشبيلية ثم سكن قرطبة فيما بعد[1]. لكن هذه المصادر لم تذكر سنة ولادته، على عادة المؤرخين في إهمال تحديد سنة ميلاد من يترجمون له، ولذلك فقد اعتمد المحققون في تحديد ميلاده على ما ذكره ابن خلكان من أنه عاش ثلاثاً وستين سنة، وباعتبار أنه توفي سنة ٣٧٩ هـ، فتكون سنة ولادته ٣١٦ هـ. ولكن بعض الباحثين لم يرتح إلى هذا التاريخ لعدم توافقه مع الرواية التي تقول «وكان ـ أي الزبيدي ـ حينئذٍ إماماً في الأدب، ولكنه عرف فضل أبي علي فمال إليه واختص به واستفاد فيه وأقرّ له». وهذا يعني أن الزبيدي كان إماماً حين وصل الأندلس سنة ٣٣٠ هـ، وهذا مستبعد لأن من ولد سنة ٣١٦ هـ يكون عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة (سنة ٣٣٠ هـ) وهو عمر لا يمكن صاحبه من بلوغ مرتبة الإمامة في اللغة. ولهذا فمن المرجح أنه ولد قبل سنة ٣١٦ هـ. وقد ذكر البعض ممن ترجم له أن تاريخ مولده يمكن أن يكون في سنة ٣٠٨ هـ، وعلى هذا يكون عمره حين توفي والده عشر سنوات، وهو عمر لا يؤهله سماع كتب التعديل والتجريح التي كان أبوه يرويها. ويكون عمره اثنين وعشرين عاماً عند مجيء أبي علي القالي سنة ٣٣٠ هـ وهو عمر يمكن أن يبلغ الإنسان فيه درجة الإمامة إذا كان قد أوتي ما أوتيه الزبيدي من رسوخ ملكة وتوقد خاطر[2].

توفي والده إذاً وهو صغير، فرحل إلى قرطبة يسمع من شيوخها، ويبدو

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٤ : ٧.

(٢) أبو بكر الزبيدي الأندلسي، نعمة العزاوي، ص ٦٢.

أنه عاد إلى إشبيلية بعد أن أكمل تحصيله، ولما ذاع صيته وظهر فضله استدعاه الحكم المستنصر وكان في صحبته.

ولم يكن علم الزبيدي وحده موضع ثقة المستنصر، وإنما كان يثق به في الشؤون الإدارية، فولاه أحكام القضاء في الموضع الذي يقطنه من قرطبة. وعندما شبّ هشام المؤيد، أوكل الحكم إلى الزبيدي تأديبه وتعليمه العربية والحساب فنفعه فيهما كثيراً.

وبعد وفاة المستنصر، ولّاه الخليفة هشام المؤيد خطة الشرطة. والظاهر أن الإقامة في قرطبة لم تطب للزبيدي بعد أن استبد المنصور بن أبي عامر بالسلطة ونكب هشاماً وحجر عليه، ولم يأذن لأحد بالاتصال به، ولذلك فقد آثر الزبيدي الابتعاد عن مجرى الأحداث فعاد إلى إشبيلية ليمضي باقي أيام عمره. ولم تعرف السنة التي عاد فيها الزبيدي إلى إشبيلية، ولكن المصادر تذكر أنه تولى قضاء إشبيلية، وأنه توفي فيها وهو على القضاء. فقد ذكر ابن فرحون قال: «وتوفي الزبيدي رحمه الله تعالى بإشبيلية وهو على قضائها في جمادى سنة تسع وسبعين وثلثمائة وولي بعد وفاته القضاء مكانه ابنه أبو القاسم أحمد وابنه الآخر أبو الوليد[1]».

ويبدو أن الزبيدي لم يعتكف بإشبيلية ولم يقطع صلته بقرطبة، وإنما كان يزورها ويلم بقصر العامريين، فقد ذكرت المصادر أنه ناظر صاعداً البغدادي في مجلس المنصور، وإذا كان صاعد قد دخل الأندلس في حدود سنة ٣٨٠ هـ، فمعنى ذلك أن الزبيدي كان في السنة التي توفي فيها.

كان على الدارس في عصر الزبيدي أن يلم بالعلوم الأدبية والدينية قبل أن يختار مجال تخصصه، ولهذا فقد تنوعت ثقافته وتعددت جوانب معرفته، فكان أديباً ثم متخصصاً فإماماً. على أن اللغة والعلوم الدينية لم تكن كل معارفه، بل كان مؤرخاً أيضاً، عالماً بالسير والأخبار، وقد ألف في هذا الموضوع كتابين، الأول «طبقات اللغويين والنحويين» والثاني «أخبار الفقهاء المتأخرين من أهل قرطبة».

وإذا كان الزبيدي قد أخذ العلوم الدينية عن شيوخ تعاطوا كتب الحديث

---

(١) الديباج المذهب لابن فرحون ٢ : ٢٦٤.

والرواية والفقه والأحكام والتاريخ والسير والمغازي، من مثل قاسم بن أصبغ، وأحمد بن سعيد بن حزم الصدفي، وأحمد بن نصر بن خالد، وسعيد بن فحلون بن سعيد، فإن الفضل فيما بلغه الزبيدي من منزلة في العلوم اللغوية يعود إلى شيخين من شيوخه هما الرباحي والقالي. أما الرباحي فقد كان أستاذاً يشرح لطلابه ما دق عليهم وخفي عليهم من مسائل تضمنتها كتب اللغة والنحو التي دخلت الأندلس ككتاب سيبويه وكتاب الكسائي وغيرهما. أما أبو علي القالي فإن أثره في الحركة اللغوية في الأندلس لم يقتصر على التدريس والتأليف بل كان لتلك الثروة التأليفية الضخمة والكتب المقروءة التي حملها معه أثر بعيد في تنشيط الدرس اللغوي. فقد أجرى القالي في الأندلس بحراً طامياً من المادة اللغوية، فسارع الناس إلى العبّ من فيوضه. ولم يقف تأثيره عند ذلك، بل تعداه إلى التمكين لنحو البصرة من الانتشار في الأندلس والظهور على نحو الكوفة، وذلك لأن القالي نحا النحو البصري وثقف دقائقه وعلله، فما إن حلّ بالأندلس حتى رفع لواء نحو البصرة واحتضن كتاب سيبويه ورد على من خالفه.

ويبدو أن الزبيدي تأثر بأستاذه القالي في تقدير كتاب سيبويه والإعلاء من شأنه ـ وكان ينعي على النحاة بعد سيبويه أنهم أضاعوا أوقاتهم في تسطير أقوال معادة وآراء مكررة. كما أن الزبيدي وافق الأستاذ القالي في الاهتمام بالعين للخليل بن أحمد، فحيث انصرف القالي إلى تصنيف البارع ليكون أكثر استيعاباً من العين، فإن الزبيدي اختصره وأصلح ما فيه من خلل ونقاه من الأخطاء التي لحقت به وهو يتنقل بين الوراقين والنساخين نحواً من قرن من الزمان.

وفاته:

توفي الزبيدي في إشبيلية سنة ٣٧٩ هـ، وقد ذكرت بعض المراجع تحديداً اليوم والشهر، وهو يوم الخميس مستهل جمادى الآخرة. ودفن يوم وفاته بعد صلاة الظهر وصلّى عليه ابنه أحمد. وقد اكتفى ابن فرحون في الديباج بذكر شهر جمادى غفلاً دون تحديد. وذكر الحميدي في جذوة المقتبس أنه توفي قريباً من الثمانين وثلاثمائة. وإلى هذا التاريخ ذهب الحاجي خليفة في كشف الظنون. أما السيوطي في البغية (نقلاً عن ابن بشكوال) فقد ذكر أنه توفي في جمادى الأولى سنة

٣٩٩ هـ، ولعلّه حرّف عن كتاب الصلة حيث لم يرد كذلك فيه[١].

مؤلفاته:

ترك الزبيدي مؤلفات عديدة في النحو واللغة والتراجم وعلوم الدين، ضاع بعضها وبقي البعض الآخر، والبعض ممّا بقي ظلّ مخطوطاً فلم ينشر، وطبع من هذا البعض الذي وصل إلينا. نذكر من هذه المؤلفات:

ـ كتاب لحن العامة. فقد لاحظ الزبيدي فشو الأخطاء في لغة أهل بلده، وحاجة الناس إلى كتاب يبيّن لهم تلك الأخطاء ويرشدهم إلى وجه الصواب فيها، فعمد إلى تأليف الكتاب جرياً على خطته في تحري الموضوع البكر الذي تمسّ حاجة الناس إلى التأليف فيه.

ـ الواضح في النحو. رغب الزبيدي في أن يضع للشداة في النحو كتاباً سهلاً لا تعقيد فيه ولا تطويل، بعد أن وجدهم يؤوبون من رحلاتهم الشاقة خلال المطوّلات بمعارف نحوية مضطربة. ولم يكن في الأندلس آنئذٍ كتاب يشمل موضوعات النحو كلها ويعالجها بإيجاز وبساطة ووضوح فيغنيهم عن الخوض في لجة كتاب سيبويه وهم بعد مبتدئون شداة.

ـ كتاب أبنية الأسماء والأفعال. كتاب لغوي معجمي، لأن فيه من النوادر وتفسير الغريب والاستشهاد على ذلك بالنصوص وأقوال الرواة ما يجعله يسلك في عداد الآثار اللغوية.

ـ كتاب مختصر العين. يبدو أنه انتهى من تأليفه سنة ٣٦٢ هـ، بدليل أن ابن حيّان يذكر في حوادث هذه السنة أن الزبيدي انتهى من كتاب «مختصر العين» وقدمه إلى الحكم فاستحسنه وأجزل صلة مؤلّفه[٢].

ـ كتاب طبقات النحويين واللغويين. اتبع فيه الزبيدي خطة واضحة، فقد رتّب علماء اللغة والنحو ترتيباً زمنياً، وسمّى علماء كل جيل طبقة، وعلّل بدءه بعلماء البصرة بأن لهم فضل السبق، وأن علماء الكوفة تأخروا عنهم في ذلك. بدأ الكتاب بنحاة البصرة فجعلهم في عشر طبقات، ثم نحاة الكوفة في ست طبقات،

---

(١) أبو بكر الزبيدي الأندلسي، ص ١٠٦. (٢) المقتبس ص ١٣٣.

ثم عاد فذكر اللغويين البصريين وجعلهم في سبع طَبقات، ثم الكوفيين وجعلهم خمس طبقات، ومزج بين النحويين واللغويين القرويين في فصل واحد وجعلهم في ثلاث طبقات، وجاء بعدهم بالنحويين واللغويين القرويين في أربع طبقات، ثم ختم الكتاب بتراجم النحويين واللغويين الأندلسيين في ست طبقات.

أما كتبه المفقودة فهي:

- استدراك الغلط الواقع في كتاب العين.
- كتاب الانتصار على من أخذ عليه في مختصر العين جرّده الزبيدي في الرد على الذين تصدوا لنقد كتابه مختصر العين.
- رسالة الانتصار للخليل فيما رد عليه في العين.
- كتاب المستدرك من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي القالي البغدادي على كتاب العين للخليل بن أحمد. جمع فيه الزبيدي ما استدركه القالي على كتاب العين من الزيادات في معجمه «البارع».
- كتاب مختصر لحن العامة.
- كتاب هتك ستور الملحدين.
- أخبار الفقهاء المتأخرين من أهل قرطبة.
- كتاب الغاية في العروض.

ابن جنّي

نحو ٣٢١ - ٣٩٢ هـ

عثمان بن جني، ولا يعرف له نسب بعد جني، فهو غير عربي، كان أبوه «جنّي» رومياً يونانياً مملوكاً لسليمان بن فهد بن أحمد الأزدي، ولذلك ينتسب ابن جني أزدياً بالولاء، فنسمعه يقول في آخر كتابه المنصف: «قال أبو الفتح عثمان بن جني الأزدي . . .». ولا يُعرف عن أبيه قبل مجيئه الموصل شيء، وعمّا إذا كان من مواليد الموصل أو هاجر إليها من مكان ما، وماذا كان يعمل عند مولاه سليمان بن فهد.

ولعل ابن جني كان يشعر بالضعة كونه غير عربي، ولذلك كان يحاول دائماً أن يرفع من مكانة نفسه، وأن ينتمي إلى المجد الرفيع والشرف المنيع، فهو يقول من قصيدة له:

فإن أصبح بلا نَسبٍ	فعلمي في الورى نسبي
على أني أؤول إلى	قروم سادة نجبِ
قياصرة إذا نطقوا	أرَمّ الدهر ذو الخطبِ
أولاك دعا النبي لهم	كفى شرفاً دعاءُ نبي

ذكر ابن ماكولا، قال: «حكى لي إسماعيل بن المؤمّل[1] أنّ أبا الفتح كان يذكر أن أباه كان فاضلاً بالرومية». والظاهر أن ابن جني كان يريد أن يفسر اسم أبيه جني الرومي بأنه الفاضل. ولمّا كانت كلمة جني تكتب باللاتينية ممثلة للفظ اليوناني gennaius وتعني: كريم، نبيل، جيّد التفكير، عبقري، مخلص. ومن هذا يبدو صدق تفسير ابن جني لاسم أبيه[2].

(١) توفي سنة ٤٤٨ هـ.

(٢) انظر مقدمة الخصائص لابن جني ١ : ٨.

ولد ابن جني في الموصل قبل سنة ٣٣٠ هـ، ولم تذكر المصادر سنة مولده بالتحديد. غير أن أبا الفرّاء في مختصره ذكر أن ولادته كانت سنة ٣٠٢، ويقول ابن قاضي شهبة في طبقات النحاة أنه توفي سنة ٣٩٢ هـ وهو في السبعين، فإذا افترضنا هذا صحيحاً فتكون ولادته في سنة ٣٢٢ أو سنة ٣٢١ هـ.

نشأ عثمان بالموصل، وبها تلقى مبادىء العلوم، فأخذ النحو عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالأخفش، وقرأ الأدب على أبي علي الفارسي، والمعروف أن أبا علي الفارسي دخل بغداد سنة ٣٠٧ هـ، ويكون ابن جني بذلك قد أخذ عن جماعة من المواصلة والبغداديين. ثم أخذ عن كثير من رواة الأدب واللغة، ومن هؤلاء أبو بكر محمد بن الحسن المعروف بابن مِقسم، وكان من القرّاء يروي لثعلب، وكان ابن جني يروي عنه أخبار ثعلب وعلمه، ويروي عن أبي الفرج الأصفهاني، وكذلك يروي عن أبي بكر محمد بن هرون الروياني عن أبي حاتم السجستاني، وممن يروي عنه محمد بن سلمة عن أبي العباس المبرّد. وكان كثيراً ما يروي عن الأعراب الفصحاء الذين لم تفسد لغتهم، ومن الذين أخذ عنهم وكان يثق بلغتهم أبو عبدالله محمد بن العسّاف العقيلي، ويذكر باسم أبي عبدالله الشجري، فيقول فيه: «وعلى نحو ذلك فحضرني قديماً بالموصل أعرابي عقيلي جوني تميمي يقال له محمد بن العسّاف الشجري، وقلّما رأيت بدوياً أفصح منه».

ويظهر أنه كانت له رحلة في طلب العلم وتلقّي الروايات عن الشيوخ، فيقول في إجازة أثبتها ياقوت الحموي في ترجمته في معجمه: «وما صحّ عنده - أيّده الله - من جميع رواياتي مما سمعته من شيوخي - رحمهم الله - وقرأته عليهم بالعراق والموصل والشام، وغير هذه من البلاد التي أتيتها وأقمت بها».

كانت علاقته بأستاذه أبي علي الفارسي علاقة وثيقة، فكان ابن جني يظهر من التعلّق به وقبول رأيه ما يظهره تلميذ لأستاذه وهو كثيراً ما يأتي على ذكر أستاذه أبي علي في كتبه وينوّه بعلمه. وذكر الرواة أن أبا الفتح كان يدرّس العربية في جامع الموصل، وكان إذ ذاك شاباً، فمرّ به أبو علي الفارسي فوجده يتكلّم في مسألة قلب الواو ألفاً في نحو قام وقال، فاعترض عليه أبو علي، لمّا وجده مقصّراً، ونبّهه على الصواب، وقال له: تزبّبت وأنت حِصرِم! فتبع منذ ذلك الوقت أبا علي

حتى نبغ بسبب صحبته وأخذه منه. ويقال إن ابن جني لم يكن يعرف أبا علي قبل هذه الحادثة، فقد ذكر ياقوت الحموي، عن ابن جني: «فسأل عنه، فقيل له: هذا أبو علي الفارسي». أما ابن خلكان فيذكر في ترجمته، يقول: «قرأ الأدب على الشيخ أبي علي الفارسي المقدم ذكره في حرف الحاء وفارقه. وقعد للإقراء في الموصل، فاجتاز بها شيخه أبو علي، فرآه في حلقته والناس حوله يشتغلون عليه، فقال له: تزبّبت وأنت حصرم! فترك حلقته وتبعه حتى تمهّر»[1].

اجتماعه وصحبته لأبي الطيب المتنبي:

لقي ابن جني المتنبي بحلب عند سيف الدولة وفي شيراز عند عضد الدولة. وكان المتنبي يحترمه ويجلّه، ويقول فيه: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس». وكان إذا سُئل عن شيء من دقائق النحو والتعريف في شعره يقول: سلوا صاحبنا أبا الفتح. ويقول صاحب مسالك الأبصار: «وكان أبو الطيب المتنبي إذا سُئل عن معنى قاله، أو توجيه إعراب، حصل فيه إغراب، دلّ عليه، وقال: «عليكم بالشيخ الأعور ابن جني فسلوه فإنه يقول ما أردت وما لم أرد». وكان ابن جني أول من شرح ديوان المتنبي في شرحين الكبير والصغير. ومن دلائل عناية ابن جني بالمتنبي أنه أخذ شيئاً من أخباره عن علي بن حمزة البصري، لأنّ المتنبي لما ورد بغداد نزل عليه ضيفاً إلى أن غادر.

إنّ مقالة المتنبي في ابن جني «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس»، لا تعني أنه لم يبلغ في حياته المكانة العلمية التي يستحقها، أو هو لم يبلغ درجة النباهة والذكر الذي سما إليه منذ صباه، فالتوسع في دراسة ابن جني يُنبيء أنه نال حظاً وافراً من الشهرة، ورُزق القبول في ما هو أهل له. والدليل على ذلك أنه خلف أستاذه أبا علي الفارسي في بغداد بعد وفاته، فتتلمذ عليه طلاب أئمة منهم عبد السلام البصري والسمسمي. ويذكر القفطي في إنباه الرواة في حديثه عن زميل لابن جني هو العبدي، يقول: «وكان العبدي قد أدركه خمول الأدب، ولم يحصل له من السمعة ما حصل لابن جني والربعيّ، وكان كثير الشكوى لكساد سوقه وسوق الأدب في زمانه».

وبعد أن سمعنا ابن جني يذكر مكانة قومه وانتمائه الشريف إلى القياصرة،

(١) انظر نزهة الألباء ص ٤٠٨.

نسمعه في قصيدة أخرى يحمد الله على المكانة التي وصل إليها، ومنها قوله:

شكرتُ الله نعمته ... وما أولاه من أرب
زكت عندي صنائعه ... فوفّقني وأحسن بي
تخوّلني وخوّلني ... ونوّلني ونوّه بي
وأخّر من يقادمني ... وأعلاني وأرغم بي

وعن كتبه يقول:

تناقلُها الرواة لها ... على الأجفان من حدب
فيرتع في أزاهرها ... ملوك العجم والعرب
فمن مغنٍ إلى مدْنٍ ... إلى متن إلى طربِ[1]

ابن جني والنحو:

كان ابن جني إماماً في النحو والصرف، وإن كان لا يعرف إلّا بالنحويّ. على أنّ عنايته بالصرف فاقت عنايته بالنحو، لأن اعتراض أستاذه أبي علي عليه إنما كان في مسألة صرفية، هي مسألة قلب الواو ألفاً في مثل قال وقام. ولذلك فقد كان اعتناؤه بالصرف أشد منه في اعتنائه بالنحو. ودليل تراجعه في النحو عن الصرف ما أورده ابن الأنباري في نزهة الألباء، في ترجمة علي بن عيسى الربعيّ، قال: «اجتمع الربعي وابن جني يمشيان في موضع، فاجتاز على باب خربة فرأى فيها كلباً ـ أي الربعي وكان مغرًى بقتل الكلاب ـ فقال لابن جني: قف على الباب، ودخل. فلما رآه الكلب يريد أن يقتله هرب وخرج، ولم يقدر ابن جني على منعه، فقال له الربعيّ: «ويلك يا ابن جني! مُدبرٌ في النحو، ومُدبر في قتل الكلاب».

كما أن ابن عقيل في شرحه للألفية في مبحث الابتداء أن أبا الفتح سأله ولده عن إعراب بيت أبي نواس:

غيرُ مأسوف على زمن ... ينقضي بالهم والحزن

فارتبك ابن جني في إعرابه.

وعلى كل حال كان ابن جني كشيخه أبي علي بصرياً، فهو يجري في كتبه ومباحثه على أصول المدرسة البصرية، فيدافع عنها ولا يألو جهداً في ذلك. على

(١) انظر مقدمة الخصائص لابن جني ص ٢٦.

أنه كان شغوفاً كثير الطلب للعلم يأخذه عن أهله وشيوخه، بصرياً كان الشيخ أو غير ذلك، ولهذا نجده كثيرة النقل عن ثعلب والكسائي وأمثالهما. وهو حين يذكرهما في كتبه يثني عليهما، فيقول مثلاً: «باب في قلب لفظ إلى لفظ بالصنعة والتلطف لا بالإقدام والتعجرف»، «وكان هذا الرجل كبيراً في السداد والثقة عند أصحابنا»، يعني الكسائي.

وقد يأخذ برأي البغداديين، والمدرسة البغدادية مدرسة وسط بين المدرستين البصرية والكوفية. يقول في الخصائص[1]: «ووجه ما ذكرناه من ملالتها الإطالة ـ مع مجيئها بها للضرورة الداعية إليها ـ أنهم لما أكدوا فقالوا: أجمعون أكتعون أبصعون أبتعون..». ويقول الرضيّ في شرح الكافية: «وأما أكتع وأخواته البصريون ـ على ما حكى الأندلسي عنهم ـ جعلوا النهاية أبصع ومتصرّفاته، والبغدادية جعلوا النهاية أبتع وأخواته...».

وفاته:

توفي عثمان بن جني سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، والمصادر متفقة على تحديد سنة وفاته، خلا ابن الأثير فقد جعلها ٣٩٣ هـ وتبعه أبو الفراء في المختصر. ويذكر ابن النديم أنه توفي في ليلة الجمعة، يقول: «توفي ليلة الجمعة من صفر».

وقد كانت وفاته ببغداد، حيث اتخذها موطناً في آخر حياته، ودفن في مقابرها، ولا يعلم في أي مقبرة دفن، وهل دفن بجوار أستاذه أبي علي في الشونيزيّة. وقد خلفّ ابن جني ثلاثة أولاد: علي وعال وعلاء. قال ياقوت الحموي: «وكلهم أدباء فضلاء، قد خرجهم والدهم، وحسّن خطوطهم، فهم معدودون في الصحيحي الضبط وحسني الخط».

ولم يأت ياقوت في معجمه على غير ذكر عالٍ منهم حيث يقول: «أبو سعد البغدادي كان نحوياً أديباً حسن الخط، أخذ عن أبي الفتح بن جني، والوزير عيسى بن علي».

---

(١) ج ١ ص ٨٣.

مؤلفاته :

أثبت ياقوت في معجمه إجازة كتبها ابن جني بكتبه لبعض الآخذين عنه في سنة ٣٨٤ هـ، وذلك قبل وفاته بنحو ثماني سنوات وفيها :

١ ـ الخصائص.

٢ ـ التمام، تفسير ما أغفله السكّري من أشعار الهذليين.

٣ ـ سر الصناعة.

٤ ـ تفسير تصريف المازني (المنصف) وهو شرح تصريف المازني.

٥ ـ شرح مستغلق أبيات الحماسة واشتقاق أسماء شعرائها.

٦ ـ شرح المقصور والممدود لابن السكيت.

٧ ـ تعاقب العربية. في أقسام البدل والمبدل منه والعوض والمعوض منه.

٨ ـ تفسير ديوان المتنبي الكبير. ويسمّى الفسْر.

٩ ـ تفسير معاني ديوان المتنبي، وهو شرح ديوان المتنبي الصغير.

١٠ ـ اللمع في العربية. من كلام شيخه أبي علي الفارسي.

١١ ـ كتاب مختصر التصريف. المشهور بالتصريف الملوكي.

١٢ ـ كتاب مختصر العروض والقوافي.

١٣ ـ كتاب الألفاظ المهموزة.

١٤ ـ كتاب المقتضب. في اسم المفعول المعتل العين من الثلاثي.

١٥ ـ تفسير المذكر والمؤنث ليعقوب. (ذكر أنه لم يتمه).

١٦ ـ كتاب تأبيد تذكرة أبي علي.

١٧ ـ المحاسن في العربية. (ذكر أنه فُقد منه).

١٨ ـ النوادر الممتعة. (ذكر أنه فُقد منه).

١٩ ـ الخاطريات. يقول في مقدمته: «ما أحضرنيه الخاطر من المسائل المشهورة مما أمللته أو حصل في آخر تعاليقي عن نفسي وغير ذلك مما هذه حاله وصورته».

٢٠ ـ كتاب المحتسب في شرح شواذ القراءات.

٢١ ـ تفسير أرجوزة أبي نواس.

٢٢ ـ تفسير العلويات. (أربع قصائد للشريف الرضي).

٢٣ ـ كتاب البشرى والظفر (صنعه لعضد الدولة).
٢٤ ـ رسالة في مدّ الأصوات ومقادير المدّات (كتبها إلى أبي إسحق إبراهيم بن أحمد الطبري).
٢٥ ـ كتاب المذكر والمؤنث.
٢٦ ـ المنتصف (لعله تحريف المنصف). سبق ذكره.
٢٧ ـ كتاب مقدّمات أبواب التصريف.
٢٨ ـ كتاب النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي وتخطئته.
٢٩ ـ المعْرب في شرح القوافي.
٣٠ ـ كتاب الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام.
٣١ ـ كتاب الوقف والابتداء (في أحكام الوقف والابتداء النحوية، وليس في أحكام الوقف والابتداء القرآنية).
٣٢ ـ كتاب المعاني المحرّرة.
٣٣ ـ كتاب الفرق.
٣٤ ـ كتاب الفائق.
٣٥ ـ كتاب الخطيب (الخطب المنبرية وغيرها).
٣٦ ـ كتاب الأراجيز.
٣٧ ـ كتاب ذي القدّ (جمعه من كلام أبي علي أستاذه).
٣٨ ـ شرح الفصيح لثعلب.
٣٩ ـ كتاب شرح الكافي في القوافي للأخفش.
٤٠ ـ كتاب التلقين في النحو.
٤١ ـ كتاب التذكرة الأصفهانية.
٤٢ ـ كتاب التهذيب (تهذيب تذكرة أبي علي).
٤٣ ـ كتاب المهذّب.
٤٤ ـ كتاب التبصرة.
٤٥ ـ كتاب الزجر.
٤٦ ـ مسألتان من كتاب الإيمان لمحمد بن الحسن الشيباني.
٤٧ ـ كتاب علل التثنية.

٤٨ ـ كتاب المسائل الواسطية (مسائل أملاها على الشريف أبي علي الجوّاني نقيب العلويين في واسط).

٤٩ ـ كتاب شرح الإبدال ليعقوب بن السكيت.

من مسائل ابن حني:

يقول ابن جني في كتابه سرّ الصناعة، في حرف النون: «.. كما قال الآخر:

أن تهبطين بلاد قوم ٍ يرتعون من الطلاح

فهذا على تشبيه «أن» بـ «ما» التي في معنى المصدر، في قول الكوفيين، فأمّا على قولنا نحن فإنه أراد أنّ الثقيلة وخفّفها ضرورة، وتقديره: أنك تهبطين.

وفي حرف الكاف من الكتاب عينه، يقول: «فإذا قلت: أنت كزيد، وجعلت الكاف اسماً فلا ضمير فيها، كما أنك إذا قلت: أنت مثل زيد فلا ضمير فيه (مثل) كما لا ضمير في الأخ ولا الابن إذا قلت: أنت أخو زيد وأنت ابن زيد. هذا قول أصحابنا، وإن كان قد أجاز بعض البغداديين أن يكون في هذا النحو الذي هو غير مشتق من الفعل ضمير كما يكون في المشتق».

ومن آرائه النحوية تجويزه إظهار متعلق الظرف الواقع خبراً في الكون العام، نحو زيد عندك. قال ابن يعيش[1]: وقد صرح ابن جني بجواز إظهاره.

وهو يجيز أيضاً أن يقال: مررت بزيد وعمراً، بعطف عمراً» على محل زيد المجرور بالحرف، وهذا لا يجيزه النحويون، لأن شرط العطف على المحل عندهم ظهور الإعراب المحلّي في فصيح الكلام[2].

---

(١) شرح المفصّل ١: ٩٠.

(٢) الخصائص ١: ١٠٦.

ابن مالك

٦٠٠ - ٦٧٢ هـ

أبو عبدالله جمال الدين محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجياني الشافعي النحوي، نزيل دمشق. وقد عرّف به ابن طولون الصالحي ضمن أعلام مزارات الصالحية[1] فقال: هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عبدالله بن عبدالله. واكتفى بعضهم بذكر: محمد بن عبدالله بن مالك، أو محمد بن مالك، اكتفاء بالمشهور. وينتسب ابن مالك إلى قبيلة طيىء. قال ابن حزم: جماع أنساب اليمن من جرم بن كهلان وحمير بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وجرم بطن في طيىء، وهو ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن جلهمة، وهو طيىء بن أدد، وإليه ينتسب أبو عبدالله محمد بن مالك النحوي.

ولد محمد بجيّان، من مدن الأندلس، وكان مولده سنة ٦٠٠ هـ على أكثر الروايات وأصحّها، وقد ذكر ابن غازي أن مولده سنة ٥٩٨ هـ، وأشار إليه المقري في نفح الطيب وقال: وبه أخذ ابن الجزري في غاية النهاية[2].

لم تذكر المصادر شيئاً عن أسرته بجيّان ولا عن أبويه، لأن ابن مالك لم يذكر ذلك، ولم يتعرض أحد من الرواة لذكر أسرته ووالديه، والمرجح أن والديه توفيا وهو صغير السن، وإن كان هذا الترجيح صحيحاً، فقد يمكن اعتباره داعياً من دواعي الرحلة، وسبباً من أسباب الإقامة بالشرق وعدم العودة إلى مسقط رأسه كما فعل أكثر علماء الأندلس من قبله[3].

---

(١) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، القسم الثاني، لمحمد بن طولون الصالحي.

(٢) ج ٢ ص ١٨٠.

(٣) مقدمة كتاب تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق محمد بركات ص ٣.

تحصيله وشيوخه:

على غرار ما عهد في عصره ومصره، بدأ ابن مالك بحفظ القرآن الكريم، ثم استتبع هذا بطبيعة الحال دراسة القراءات وعلوم الدين والنحو واللغة. وقد ذكره ابن الجزري في طبقات القراء، قال[1]: «قد شاع عند كثير من منتحلي العربية أن ابن مالك لا يعرف له شيخ في العربية ولا في القراءات، وليس كذلك، بل قد أخذ العربية في بلاده عن ثابت بن خيار، وحضر عند الأستاذ أبي علي الشلوبين نحو العشرين يوماً».

وذكر المقري في نفخ الطيب أنه أخذ العربية عن غير واحد، فمن أخذ عنهم بجيان: أبو المظفر، وقيل أبوالحسن ثابت بن خيار الكلاعي، من أهل لبلة، وأخذ القراءات عن أبي العباس أحمد بن نوار، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبدالله بن مالك المرشاني. على أن ما هو مبين في تكملة كتاب الصلة لابن الأبّار، أن ثابت بن خيار هو الذي أخذ القراءات على أبي العباس أحمد بن نوار وقرأ كتاب سيبويه على المرشاني.

رحلته إلى الشرق:

نشأ ابن مالك بالأندلس في أيام الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، من ملوك الموحدين، وقد ولي الأندلس سنة ٥٩٥ هـ، وكان ملكاً عظيماً فتح ميورقة وتحرك إلى إفريقية، ثم عاد إلى الأندلس والتقى بملك النصارى، فكانت الهزيمة الكبرى على المسلمين سنة ٦٠٩ هـ، ولم تقم بعدها الأندلس من كبوتها، ومات الناصر سنة ٦١٠ هـ. ويبدو أن نشأة ابن مالك في الأندلس لم تكن هادئة، بل كان يغلب عليها القلق والاضطراب، ولهذا فقد عزم ابن مالك على الرحيل للحج والدراسة. ويرجح أن تكون هذه الرحلة قد تمت بين سنة ٦٢٥ هـ وسنة ٦٣٠ هـ، وذلك أن ابن مالك قد أخذ عن ثابت بن خيار بالأندلس، وثابت توفي سنة ٦٢٨ هـ، وقد سمع بعد ذلك بدمشق من أبي صادق الحسن بن صباح، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ، وبدليل ما ذكره بروكلمان من أنه قدم في شبابه المبكر إلى دمشق، وقد أشار القفطي حين ترجم للجزولي وعرض لمقدمته النحوية المعروفة بالجزولية، حيث قال: «وشرحها شاب نحوي من أهل جيان من الأندلس، متصدر

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢ ص ١٨٠، ١٨١.

بحلب، لإفادة هذا الشأن، فجمع بعض أقوال هؤلاء المقدم ذكرهم ـ من شراحها ـ وأحسن في الإيجاز».

فإذا صحّ هذا كله، يمكن القول إن ابن مالك رحل شاباً بين الخامسة والعشرين والثلاثين، ولذلك فهو لم يكمل تحصيله في الأندلس، وإنما كان ذلك بدمشق، وأن رحيله كان في عصر الأيوبيين (٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ)، وقد أدرك جانباً من حكم الظاهر بيبرس.

رحل ابن مالك إذاً عن الأندلس والفتن قائمة في أكثر البلاد، من اضطرابات النصارى والموحدين والطوائف، ولكنه فرّ منها إلى فتن الصليبيين والتتار ومنازعات خلفاء صلاح الدين في الشرق. ويظهر أن هذه الاضطرابات كانت العامل الأكبر في عدم استقرار ابن مالك بمصر، ومسيره منها إلى الشام بعد أن حج، حيث طوف ببلاد الشام، دمشق وحلب وحماة وبعلبك. ولعل إقامة ابن يعيش بحلب هذه الفترة، والهدوء النسبي الذي كان بحلب وقتذاك، جعل ابن مالك يطيل إقامته بحلب، فيحضر حلقات ابن يعيش ويجالس تلميذه ابن عمرون، ويستمر بها حتى يستكمل دراسته، ويبدأ في التصدر للتدريس والإمامة والتصنيف.

وفد ابن مالك على الشرق، والنحاة يتدارسون مفصل الزمخشري إلى جانب كتاب سيبويه، وإيضاح الفارسي، وجمل الزجاجي، وأغلب الظن أنه حضر جانباً من شرح المفصل عند ابن يعيش، ولعله اطلع على شرح المفصل للسخاوي وابن معط وابن الحاجب، وعرف أيضاً كافية ابن الحاجب في النحو ونظمها المعروف بالوافية.

إذاً يمكن إيجاز رحلته بأنه قدم دمشق ثم توجه إلى حلب فنزل بها وبحماة، وأخذ عنه بهذين البلدين، ثم قدم دمشق مستوطناً. وذكر الدماميني قال: إنه ارتحل إلى حماة من البلاد الشامية وأقام بها مدة ونشر فيها علماً جماً ثم استوطن دمشق.

وذكر السيوطي في بغية الوعاة أنه سمع بدمشق من السخاوي، وجالس بحلب ابن عمرون وغيره، وله شيخ جليل هو ابن يعيش الحلبي، وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل، وتصدر بالتربة العادلية والجامع المعمور[1].

---

(١) بغية الوعاة ص ٥٣ وما بعدها.

من الأندلس إلى الشرق، كانت الرحلة آنذاك أمراً مألوفاً بين العلماء، وشجع على هذا الأمر، أن الوطن العربي كان وحدة علمية متصلة الأطراف. وقد كان لهذه الرحلة أثرها الشديد في ابن مالك، في خلقه ومذهبه وثقافته ومسلكه. فقد كان ابن مالك قبل رحيله مالكي المذهب، لغلبة مذهب مالك على عموم أهل الأندلس، فلما رحل إلى المشرق عدل إلى مذهب الشافعي، وتغيير المذهب في ذلك الوقت لم يكن بالأمر اليسير على النفس، فقد كان من أهم سمات العالم في ذلك العصر ذكر مذهبه الديني إلى جانب اسمه ولقبه وكنيته، فتغيير مذهب ابن مالك لا شك أثر من آثار الرحلة إلى المشرق، وضرورة اقتضاها عمله بالعادلية والسلطانية.

قال ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب: وخالف المغاربة في حسن الخلق والسخاء والمذهب، ولا شك أن إقامته بالمشرق واتخاذه دمشق موطناً له أثر من أهم آثار الرحلة الموفقة، التي أضافت إلى العلماء علماً من الأعلام المبرزين، كما أضافت إلى العلم ذخيرة قيمة لا تزال زاداً للعلماء والمتعلمين. فقد تأثر ابن مالك بالبيئة المشرقية عموماً، وبالطريقة الفاضلية التي تمتاز بالاعتماد على المحسنات البديعية إلى حد كبير.

ذكرنا أن ابن مالك أخذ بالأندلس عن ثابت بن خيار وأبي علي الشلوبين، وكان الأول من كبار المقرئين، والثاني من كبار النحاة واللغويين. أما في الشرق، فعلى ما يظهر من أخبار رحلته، فقد بدأت دراسته بدمشق عند نزوله بها أول مرة، قبل رحيله إلى حماة وحلب، وفي دمشق أخذ عن أبي الحسن علي بن محمد السخاوي النحوي المقرىء الشافعي، وأبي صادق الحسن بن صباح المخزومي المصري الكاتب، وأبي المفضل مكرم بن محمد بن حمزة المعروف بابن أبي الصقر. ثم سمع بابن يعيش وهو بحلب، فرحل إليه وأخذ عنه وجالس تلميذه ابن عمرون في حلقته.

إن دراسات ابن مالك كانت دراسات واسعة متنوعة شملت كل ما عرفه العصر من علوم القرآن والحديث واللغة والدين. ذكر المقري في نفح الطيب حين عرض للحديث عن دراسات ابن مالك، أنه صرف همته إلى إتقان لسان العرب، حتى بلغ فيه الغاية وأربى على المتقدمين، وكان إماماً في القراءات وعالماً بها،

وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية، وأما اللغة فكان إليه المنتهى فيها. قال الصفدي في الوافي بالوفيات: أخبرني أبو الثناء محمود تلميذ ابن مالك، قال: ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في كتاب تهذيب اللغة، وهذا أمر معجز، لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما في الكتابين. وأما النحو والتصريف فكان بهما بحراً لا يشق لجه، وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو واللغة، فكان أمره فيها عجيباً، وكان الأئمة الأعلام يتحيرون في أمره، وأما الاطلاع على الحديث، فكان فيه آية، لأنه كان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، فإن لم يجد فيه شاهداً عدل إلى أشعار العرب.

وذكر ابن الجزري في غاية النهاية[1] أن ابن مالك قد نظم في القراءات قصيدتين إحداها دالية والأخرى لامية.

اشتغاله بالإمامة والتدريس:

أورد الصفدي[2] أن ابن مالك قد أخذ العربية عن غير واحد، وتصدر بحلب لإقراء العربية، وكان إماماً في القراءات وعللها. ثم قال: وأخبرني الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود عن ابن مالك، أنه كان إذا صلّى في العادلية، لأنّه كان إمام المدرسة، يشيعه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان إلى بيته تعظيماً له، وقد أقام بدمشق يصنف ويشتغل بالجامع والتربة العادلية. وقال ابن الجزري[3]: إنه قدم دمشق فأخذ عن السخاوي وغيره، ثم توجه إلى حلب فنزل بها وبحماه، وأخذ عنه بهذين البلدين، ثم قدم دمشق مستوطناً، ونزل بالعادلية الكبرى، وولي مشيختها التي من شرطها القراءات والعربية.. وأقام بالعادلية وألف المصنفات المفيدة في فنون العربية من ذلك: «التسهيل» الذي لم يسبق إلى مثله. وذكر المقري[4]: وقال بعض من عرف بابن مالك إنه تصدر بحلب وأمّ السلطانية، ثم تحول إلى دمشق وتكاثر عليه الطلبة وحاز قصب السبق، وصار يضرب به المثل في

---

(١) ج ٢ ص ١٨.

(٢) الوافي بالوفيات ج ٣ ص ٣٥٩ وما بعدها.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء ج ٢ ص ١٨٠ وما بعدها.

(٤) نفح الطيب ج ٧ ص ٢٧٨.

دقائق النحو وغوامض الصرف وغريب اللغات وأشعار العرب، مع الحفظ والذكاء والتحري لما ينقله والتحرير فيه.

وخلاصة القول إن ابن مالك قد أتم دراسة القراءات والحديث واللغة والنحو على علماء دمشق وحلب الذين سلف ذكرهم، وإنه بدأ الاشتغال بالإمامة والتدريس والتصنيف في حلب، وإن التي أم بها وتصدر في حلب هي السلطانية وليس العادلية ـ كما ذكر في دائرة المعارف ـ وإنه مرَّ بحماه في طريق عودته إلى دمشق فأخذ عنه بها، واستقرّ بعد ذلك في دمشق يشتغل بالتدريس والتصنيف وإمامة العادلية.

أسرته وزواجه وأولاده:

سبق القول إن المراجع لم تذكر شيئاً عن أسرته في جيان ولا عن والديه. والذي يمكن استخلاصه من مجرى حياته بعد ذلك أنه استقر بدمشق ورضي بها موطناً له على أثر زواجه من بين أسرها. كما أن تاريخ وفاة ابنه بدر الدين كهلاً سنة ٦٨٦ هـ، يرجح أن يكون مولده حوالى سنة ٦٤٠ هـ أو بعدها بقليل، فإذا كان هو أكبر أبنائه، رجح أن يكون زواجه في حدود سنة ٦٤٠ هـ أو قبل ذلك بقليل بعد أن طوف بالشام واستقرّ في دمشق، ولعل هذا الزواج كان أول داع لاستقراره بدمشق بين أسرة زوجته وأسرته الناشئة بعد أن أنجب ولديه بدر الدين وتقي الدين الأسد.

وفاته:

كانت وفاة ابن مالك بدمشق سنة ٦٧٢ هـ وصلّي عليه بالجامع الأموي، وكان آخر من روى عنه الإمام شهاب الدين أحمد بن سليمان الكاتب كتاب الخلاصة عرضاً، ودفن بسفح جبل قاسيون بتربة القاضي عزالدين بن الصائغ، وقال العجيسي: بتربة ابن جعوان [(١)].

مؤلفاته:

وهب ابن مالك قدرة فائقة على النظم العلمي، فأخرج الكثير من مؤلفاته النحوية واللغوية نظماً، وجاء هذا النظم على جفاف مسائله وصعوبة موضوعاته عذباً سائغاً، ولعل هذا من أهم العوامل التي ساعدت على رواج مؤلفاته وخاصة

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٢٧٣.

الألفية التي حجبت ما سبقها من مؤلفات في النحو. وقد كانت مؤلفاته عديدة وفيرة في النحو والصرف واللغة والقراءات.

أما مؤلفاته النحوية فهي:

ـ الكافية الشافية. منظومة في ما يقرب من ثلاثة آلاف بيت من مزدوج الرجز، تضم النحو والصرف معاً.

ـ الوافية «في شرح الكافية الشافية». شرح للكافية نثراً وعليه تعليقات. وشرحها أيضاً ولده بدر الدين.

ـ الخلاصة (الألفية). منظومة في نحو ألف بيت أودع فيها ابن مالك خلاصة ما في الكافية الشافية من نحو وتصريف، ومطلعها:

قال محمد هو ابن مالك أحمد ربي الله خير مالك

ـ التسهيل «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد». تناول فيه مسائل النحو والتصريف في ثمانين باباً تتضمن مائتين وأحد عشر فصلاً.

ـ شرح التسهيل.

ـ المؤصل في نظم المفصّل. وهو نظم لمفصل الزمخشري.

ـ سبك المنظوم وفك المختوم. رسالة موجزة في النحو. وقيل هو فك لنظم المفصل.

ـ عمدة الحافظ وعدة اللافظ مختصر يضم أصول النحو.

ـ شرح عمدة الحافظ وعدة اللافظ (شرح العمدة).

ـ إكمال العمدة.

ـ شرح إكمال العمدة.

ـ شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح أو إعراب مشكل البخاري.

ـ المقدمة الأسدية. رسالة صغيرة في النحو قيل إنه صنفها لولده تقي الدين الأسد.

ـ شرح الجزولية. والجزولية مقدمة في النحو مشهورة باسم مؤلفها أبي موسى الجزولي.

ـ نكته النحوية على مقدمة ابن الحاجب.

ابن هشام

٧٠٨ - ٧٦١ هـ

أبو محمد عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، جمال الدين الأنصاري المصري. ولد في القاهرة في ذي القعدة سنة ٧٠٨ هـ. لزم الشهاب عبداللطيف بن المرحل، وتلا على ابن السراج، وسمع على أبي حيان ديوان زهير بن سلمى المزني، ولم يلازمه ولا قرأ عليه غيره، وحضر دروس التاج التبريزي، وقرأ على التاج الفاكهاني شرح الإشارة له إلّا الورقة الأخيرة، وحدّث عن ابن جماعة بالشاطبية، وتفقّه على مذهب الشافعي، ثم تحنبل فحفظ مختصر الخرقي قبيل وفاته.

اشتهر بهذه الكنية ـ ابن هشام ـ قبل أبي محمد عبدالله جماعة منهم الإمام عبدالملك بن هشام بن أيوب المعافري الذي هذّب سيرة النبي ﷺ التي صنّفها ابن إسحاق، وقد توفي ابن هشام هذا سنة ٢١٣ هـ بمصر وقيل سنة ٢١٨ هـ. ومنهم العلّامة أحمد بن عبدالله بن هشام بن إبراهيم بن خلف اللخمي السبتي النحوي، أحد أعيان القرن السادس الهجري، ومنهم محمد بن يحيى بن هشام الخضراوي، المعروف بابن البرذعي، وكان إماماً في اللغة العربية وتوفي بتونس سنة ٦٤٦ هـ. ومن أسرة ابن هشام أبي محمد اشتهر بهذه الكنية أيضاً جماعة منهم حفيده محمد بن عبد الرحمن المتوفى في سنة ٨٨٦ هـ، ومحب الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن، وهو ابن الحفيد السالف الذكر، وتوفي في سنة ٩٠٧ هـ.

وقد فاق أبو محمد أقرانه بل شيوخه، وبزّ من تقدمه، وأعيا من أتى بعده، وتصدّر للدرس، فنفع الطلاب وأفادهم كثيراً، وأقبل الناس عليه من كل صوب. وكان كثير المخالفة لأبي حيّان شديد الانحراف عنه. على أنه كان صالحاً ورعاً

شديد التواضع. قال عنه شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة»: «لقد انفرد ابن هشام بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط، والاقتدار على التصرف في الكلام، والملكة التي كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد، مسهباً وموجزاً، مع التواضع والبرّ، والشفقة ودماثة الخلق، ورقة القلب».

أما ابن خلدون المؤرخ العلامة فيقول عنه: «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية، يقال له ابن هشام، أنحى من سيبويه».

وقال عنه في مناسبة ثانية: «إن ابن هشام على علم جمّ يشهد بعلوّ قدره في صناعة النحو، وكان ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنّي، واتبعوا مصطلح تعاليمه، فأتى من ذلك بشيء عجيب يدل على قوة ملكته واطلاعه».

وكان ابن هشام بالإضافة إلى تبحّره في علم النحو خبيراً بالشعر ونظمه، فمن شعره:

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيلهِ ... ومن يخطبِ الحسناءَ يصبر على البذلِ
ومن لا يذلّ النفس في طلب العلا ... يسيراً يعشْ دهراً طويلاً أخا ذلِّ

وكانت وفاته ليلة الجمعة الخامس من ذي القعدة سنة ٧٦١ هـ، ودفن عند باب النصر بالقاهرة. وقد رثاه كثير من الشعراء، منهم ابن نباتة المصري، يقول:

سقى ابن هشامٍ في الثرى نوءُ رحمةٍ ... يجرُّ على مثواه ذيلَ غمامِ
سأروي له في سيرة المدحِ مسنداً ... فما زلتُ أروي سيرة ابن هشامِ

وقد ذكر حاجي خليفة في غير موضع من كتابه «كشف الظنون» أنه توفي في سنة ٧٦٢ هـ وهو ما تفرد به عن غيره ممّن أرّخوا لابن هشام.

مؤلفاته:

- الإعراب عن قواعد الإعراب.
- الألغاز. مسائل نحوية صنفه ابن هشام لخزانة السلطان الملك الكامل.
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك.

- كتاب التذكرة. ذكر السيوطي أنه في خمسة عشر مجلداً.
- التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل.
- الجامع الصغير.
- الجامع الكبير.
- رسالة في انتصاب «لغة» و«فضلا» وإعراب «خلافاً» و«أيضاً» و«هلم جرّا» وهي جميعها في كتاب «الأشباه والنظائر» للسيوطي.
- رسالة في استعمال المنادى في تسع آيات من القرآن.
- رفع الخصاصة عن قرّاء الخلاصة.
- الروضة الأدبية في شواهد علوم العربية وهو شرح شواهد «اللُّمع» لابن جنّي.
- شذور الذهب في معرفة كلام العرب.
- شرح البردة. ولعله شرح قصيدة بانت سعاد، لأن من العلماء من يسميها «البردة» بسبب أن رسول الله ﷺ أجاز كعب بن زهير قائلها ببردته[١].
- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب.
- شرح شواهد الصغرى.
- شرح الشواهد الكبرى.
- شرح قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير.
- شرح القصيدة اللغزية في المسائل النحوية.
- شرح قطر الندى وبل الصدى.
- شرح اللمحة لأبي حيان.
- عمدة الطالب في تحقيق صرف ابن الحاجب.
- فوح الشذا في مسألة كذا. وهو شرح لكتاب الشذا في مسألة كذا لأبي حيان.
- قطر الندى وبل الصدى.
- القواعد الصغرى.
- القواعد الكبرى.

(١) شرح قطر الندى وبل الصدى، لابن هشام، ص ٨.

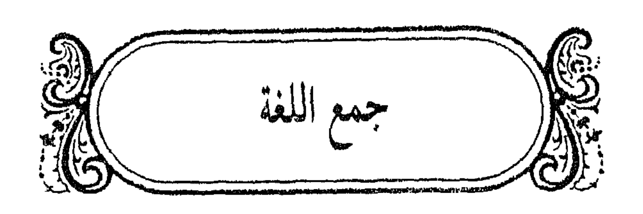
ـ مختصر الانتصاف من الكشاف. وهو اختصار لكتاب صنفه ابن المنير في الرد على آراء المعتزلة التي ذكرها الزمخشري في تفسير الكشاف، واسم كتاب ابن المنير «الانتصاف من الكشاف».

ـ المسائل السفرية. في النحو.

ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب.

ـ موقد الأذهان وموقظ الوسنان. تعرض فيه لكثير من مشكلات النحو.

ذكرنا أن ابن هشام له حاشية على ألفية ابن مالك، وهو (الألفية) مرجع هام في نحو اللغة العربية، ذاع صيته، وانتشر في الآفاق ذكره، وبما أوتي ابن هشام من طول الباع في البحث والتدقيق، ولانفراده بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة، والاستدراكات العجيبة، فقد كان عمله فيه على نحو ما بين في مقدمته، قال: «. . . فإنّ كتاب «الخلاصة الألفية في علم العربية» نظم الإمام العلامة جمال الدين أبي عبدالله محمد بن مالك الطائي ـ رحمه الله ـ كتاب صغر حجماً، وغزر علماً غير أنه لإفراط الإيجاز، قد كاد يعدُّ من جملة الألغاز. وقد أسعفت طالبيه، بمختصر يدانيه، وتوضيح يسايره ويباريه، أحل به ألفاظه، وأوضح معانيه، وأحلل به تراكيبه، وأنقح مبانيه، وأعذب به موارده، وأعقل به شوارده، ولا أخلي منه مسألة من شاهد أو تمثيل، وربما أشير فيه إلى خلاف أو نقد أو تعليل، ولم آل جهداً في توضيحه وتهذيبه، وربما خالفته في تفصيله وترتيبه، وسميته «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك».



جمع اللغة

حدُّ اللغة أصوات يعبِّر بها كل قوم عن أغراضهم. وأما تصريفُها فهي فُعْلة من لَغَوْت أي تكلمت، وأصلها لغوة ككُرة وقُلة وثُبة، كلها لاماتها واوات، لقولهم كروت بالكرة وقلوت بالقلة، ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب. وقالـوا فيها لغات ولُغون كثُبات وثُبون، وقيل منها لَغِيَ يلْغَى إذا هَذَى. وكذلك اللغو، قال تعالى ﴿وإذا مرّوا باللغو مرُّوا كـراماً﴾ أي بالباطل. وفي الحديث: «من قال في الجمعة صَـهْ فقد لغا: أي تكلم. وقال ابن الحاجب في مختصره: حدُّ اللغة كل لفظٍ وضع لمعنى. وقال الأسنوي في شرح منهاج الأصول: اللغـات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني.

برز علماء اللغة وأصبحت من ثمّ الرواية اللغويـة علماً تُعـد له الأصـول ويشترط فيه الأركان، وشهر علماؤه في البصرة بادىء الأمر، ثم في الكوفة بعد ذلك، قبل أن يظهر في بغداد والأمصار. فحين دعت الحاجة إلى جمع العربية وتدوينها، نشطت لهذا الأمر مدرستان الأولى في البصرة والثانية في الكوفة، وكان الأصل عند المدرستين التسليم بما نطق به العربي الخالص العروبة، والأصـل الوحيد الخالص هو القرآن الكريم، وهو أصل لا يجمع كل ألفاظ العربية، فذهب كل فريق يلتمس اللغة من أفواه خُلّص الأعراب في بواديهم، فطافوا في الفيافي والربوع إلى قلب الجزيرة يستمعون فيها إلى كل من صادفهم من غير تمييز، ما دام قد تحقق شرط البـداوة أو خلوص العروبة فنقلوا عن الرجال والنساء والإماء والصبيان والمجانين.

وقد كان اللغويون الأوائـل من الغلوّ بحيث كانـوا يفضلون العَلَمَ الحافظ للكثير من غوامض اللغة أو غريبها، فكان الزبيدي يصف يحيى بن يَعْمر بأنه كان

فصيحاً عالماً بالغريب، وكان الغريب بغية الأصمعي فقد ألف فيه كتـاباً بـاسم غريب الحديث ووحشيّـه. وقد جدّ البصريون بإدراك ما لا يمكن إدراكه من اللغة، فكان أبو عمرو بن العلاء يجمع اللغة تحت كليات مطردة، إلى أن سأله سائل فقال له: أخبرني عمّا وضعت ممّا سميته عربية، أيدخل فيه الكلام كله؟ فقال ابن العلاء: لا.

فقال: فما تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجّة؟

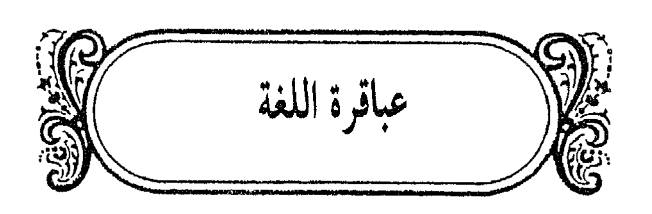
قال: أعمل على الأكثر، وأسمي ما خالفني لغات.

وحين بدأ جمع اللغة في البصرة، حاول الرواة وضع مجاميع لكل موضوع، وحاول الخليل بن أحمد أن يجمع المستعمل من اللغة في كتاب، ولم يأت كلام الرواة كله متفقاً، فاستعان الكثير منهم بشواهد من كلام العرب، وهذه الشواهد أيضاً لم تكن فوق مستوى الشبهات، فاختلفت معايير التوثيق عند العلماء الرواة.

طاف علماء العربية في البادية وسمعوا من القبائل القريبة في البحرين ونجد، ثم أوغلوا في الحجاز وسمعوا من الرجال والنساء، وعرفوا أسماء الأطعمة والألوان والأدوات، وعادوا بعلم غزير. وقد حدّد أبو زيد القبائل التي اختارها فقال: «لست أقول قالت العرب إلّا إذا سمعته من هؤلاء: بكر بن هوازن، وبني كلاب، وبني هلال، أو من عالية السافلة [نجد] أو سافلة العالية [المدينة].

ولمّا كان حديث الأعراب مصدراً من أهم المصادر اللغوية، فقـد حرص جامعو العربية على أسماع الأعراب وملاحظة مخارج الحروف، وتعلّقوا بمن نزل منهم البصرة إلى أن قلت الثقة بهم لطول بقائهم في الحواضر، فكـان على طلاب هذه اللغة أن يطوفوا في البادية للأخذ عن سكانهـا. وقد كـان في أمثال الأعـراب وشعرهم مـادة كثيرة للجـامعين أثمـرت مصنفـات في خلق الإنسـان والوحش والنبات، وبرزت في كتب الصفات كما في كتاب الصفـات للنضر بن شميل، وظهرت كتب الغريب ككتاب أبي عبيد بن سلام، وكتاب الألفاظ لابن السكيت. ثم تبعتها كتب المعاجم التي حاولت إحصاء اللغة العربية بكل أبعادها، فكان لنا منهـا كتاب العين للخليـل بن أحمد، وهـو أول معجم لغوي عـربي، والجمهرة لابن دريد، والبارع في اللغة لأبي علي القالي، ثم التهذيب للأزهري،

وصحاح العربية للجوهري، والقاموس المحيط للفيروزابادي، وتاج العروس للزبيدي، واللسان لابن منظور، والعباب للصاغاني، وأساس البلاغة للزمخشري، ومخصص ابن سيده ومحكمه، إلى غير هذه المعاجم التي حاول فيها جامعوها الإحاطة باللغة وشواردها وغريبها.



عباقرة اللغة

الخليل بن أحمد

١٠٠ ـ ١٧٠ هـ

الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم، أبو عبد الرحمن، الفراهيدي الأزدي اليحمدي البصري. ولد بعُمان على شاطىء الخليج الفارسي، ولكن غلبة البصري عليه واشتهاره بهذا اللقب دون غيره يفيد بأن إقامته بعُمان لم تكن طويلة، ولهذا عرف بالبصري نظراً إلى ما كان للبصرة من النسبة إليها تميزاً عن الكوفة، ونعني مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة. ويقال إن نسبه ينتهي إلى فرهود بن شيبان بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبدالله بن كعب بن الحارث بن عبدالله بن مالك بن نصر بن الأزد، أزد عمان، ولهذا عرف بالفراهيدي أيضاً، لأن فرهود بن شيبان جده من أزد عمان.

كان مولده في العام المتممّ مائة من الهجرة، غير أن ابن حجر في تهذيب التهذيب ينفرد بذكر مولده في عبارة تقول: وجد بخط الذهبي أنه ولد سنة ١٠٥ هـ، وعاش في زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، لتمتد به الحياة فيشهد نهاية الدولة الأموية، وكان قد جاوز الثلاثين، ليستقبل الدولة العباسية ليعيش في كنفها سنوات طويلة.

أخذ العلم عن أبي عمرو بن العلاء، وكان علماً في علم القراءة والعربية، وعليه أخذ مع الخليل أيضاً يونس بن حبيب وابن المبارك الزيدي. كما أخذ عن شيوخ غيره نذكر منهم: أيوب السختياني البصري وعاصم الأحول بن النضر البصري وعثمان بن حاضر الأزدي والعوام بن حوشب وغالب بن خطاف القطان. وكان الخليل في شبابه يذهب مذهب الأباضية غير أنه ما لبث أن رجع عن ذلك بعد مجالسة شيخه السختياني، وإذا كان السختياني قد توفي بين ١٢٥ و١٣١ هـ، فهذا

يعني أن الخليل أخذ برأي الأباضية شاباً وترك رأيهم مبكراً، والذين ترجموا لحياته أجمعوا على زهده وانقطاعه إلى الله. وقد ذكر أنه كان يعيش في بيت من الشعر في البصرة لا يقدر على فلسين بينما كان تلامذته يكسبون بعلمه الأموال الوفيرة. وقد أرسل إليه سليمان بن علي والي البصرة لتأديب أولاده لقاء راتب يجريه عليه، فأخرج خبزاً يابساً وقال: ما دام هذا عندي فلا حاجة لي فيه. وكان النضر بن شميل يقول: أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو في خص لا يشعر به.

لقد جعل الخليل من الزهد زاداً لآخرته، ولبى نداء الحج سنة بعد سنة، وكان يقول: إن لم تكن هذه الطائفة[1] أولياء الله تعالى فليس لله ولي. وكان يقول: إني لأغلق على بابي فما يجاوزه همي. وكثيراً ما كان يردّد في مجالسه بيت الأخطل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

ومن بليغ قوله: أربع تعرف بهنّ الآخرة: الصفح قبل الاستقالة، وتقديم حسن الظن قبل التهمة، والبذل قبل المسألة، ومخرج العذر قبل العتب. هكذا كان الخليل بن أحمد في حياته، مستعداً للآخرة زاهداً في الدنيا، مقبلاً على التعليم، متزهداً في خصٍّ[2] في البصرة يجمع إليه تلاميذه.

روي أن الخليل بن أحمد اجتمع ليلة بطولها مع ابن المقفع، فتذاكرا ثم افترقا، فسئل الخليل عن ابن المقفع فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه.

وقد كان الخليل فطناً ذكياً، حتى إنه قيل: إنه لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع لعلم العرب منه. ويروى أنه كان عند رجل عقّار لظلمة العين ينتفع به الناس، فمات هذا الرجل واحتاج الناس إلى ذاك العقار، فقال الخليل: أله نسخة معروفة؟ قالوا: لا. قال: فهل له آنية كان يصنعه فيها؟ قالوا: نعم. قال: جيئوني بها. فجاءوه بها فجعل يشم الإناء ويخرج نوعاً نوعاً حتى أخرج الأخلاط جميعاً، وأخذ يتعرّف أقدارها إلى أن اهتدى إلى تركيب العقار. ثم وجدت النسخة

(١) يعني العلماء.
(٢) بيت من الشعر.

بعد ذلك بين أوراق الرجل، فوجد أن تركيب الأخلاط كما اهتدى إليها الخليل بن أحمد.

كان الخليل إماماً في العربية، كما كان علماً وغايةً في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، وكان أول من استنبط علم العروض. ولا شك أن علمه بالإيقاع والنظم أعانه على استخراج هذا العلم الذي لم يأخذه عن أستاذ ولا احتذاه على مثال سابق، ولكن ذلك تأتى له من ذكاء متوقد وعقل ثاقب، ويروون أن استنباطه علم العروض تأتى له عندما كان يمر بسوق الصفارين فيسمع وقع مطرقة على طست، فكان يردد بيتاً من الشعر، فإذا الترديد يناسب ويوائم ما يسمع، وتنجم عنده فكرة تقسيم وتقطيع الشعر تقطيعاً انتهى به إلى وضع علم العروض (بحور الشعر).

وقد شغل الخليل بهذا العلم شغلاً طويلاً ولهج به، حتى غلب التقطيع على أمره وبات يردد الأوزان عن غير إدراك ووعي، حتى إن ابناً له دخل عليه وهو يقطع بيتاً من الشعر فظنّ أن أباه قد أُصيب في عقله، فخرج من عنده وأبوه يصرخ فيه، ويقول: إن أبي قد جُنّ. فيدخل القوم فيجدونه على حاله تلك ويعلمون ما يبتغيه من ترديد التقطيع، فيقول الخليل لابنه:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنتُ أعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمتُ أنك جاهل فعذرتكا

وكما أخذ الخليل عن أبي عمرو بن العلاء، فقد أخذ عن الخليل سيبويه، وكل ما يحكيه سيبويه في الكتاب فهو عن أستاذه الخليل، وحين يقول سيبويه في كتابه: فسألته، فهو يعني الخليل. وقد كان إلى جانب سيبويه في الأخذ عن الخليل النضر بن شميل وأبو فيد مؤرج السدوسي وعلي بن نضر.

وكما حدث الخليل عن شيوخه فقد حدث عنه شيوخ أيضاً، فقد روى عنه حماد بن زيد وأيوب بن المتوكل والأصمعي وهارون بن موسى ووهب بن جرير وداود بن المحبر وأخوه هذاب.

وفاته:

اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاة الخليل، فمنهم من جعلها سنة خمس

وسبعين ومائة، ومنهم من ذكر أنه توفي سنة سبعين ومائة، وآخرون ذكروا أن وفاته كانت سنة نيف وستين ومائة. ومنهم من قال إنه مات سنة ستين ومائة. على أن ابن خلكان في وفيات الأعيان انفرد أيضاً بإيراد قول بعيد عن أقوال هؤلاء جميعاً، فيقول: وقال ابن الجوزي في كتابه الذي سماه شذور العقود إنه توفي سنة ثلاثين ومائة. ثم يستدرك هذا القول بالتعقيب عليه فيقول: وهذا غلط قطعاً. هذا الاختلاف في تحديد سنة المولد ثم سنة الوفاة بعد ذلك لم يمنع من الاتفاق على تحديد البصرة مكان الوفاة. وقد روى المؤرخون في سبب موته أنه دخل يوماً المسجد وهو مشغول الفكر، فشرد عن أن يبصر ما بين يديه فصدمته سارية فوقع ومات. ومن هؤلاء من ذهب إلى أنه كان يريد أن يصنع حساباً تمضي به الجارية إلى البائع فلا يمكنه ظلمها، وأنه دخل المسجد وهو يجهد في إعمال فكره بهذا الحساب فصدمته السارية فانقلب على ظهره فمات. وربما قال آخرون إنه كان يقطع بيتاً من الشعر.

روى أبو بكر بن الصيرفي قال: قيل لسيبويه: هل رأيت مع الخليل كتباً يملي عليك منها؟ قال: لم أجد معه كتباً إلّا عشرين رطلاً فيها بخط دقيق ما سمعته من كلام العرب، وما سمعت من النحو فأملاه من قبله. وهكذا لم يدوّن الخليل إلّا قسماً من علمه قرأه على تلاميذه، وجعل قلبه وعاء للقسم الآخر الذي أملاه عليهم.

وروى الأصمعي قال: قال الخليل: العلوم أربعة، فعلم له أصل وفرع وعلم له أصل ولا فرع له، وعلم له فرع ولا أصل له، وعلم لا أصل له ولا فرع. فأما الذي له أصل وفرع فالحساب، ليس بين أحد من المخلوقين فيه خلاف، وأما الذي له أصل ولا فرع له فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم، وأما الذي له فرع ولا أصل له فالطب وأهله منه على التجارب إلى يوم القيامة، والعلم الذي لا أصل له ولا فرع فالجدل[1].

والجدير بالذكر أن الخليل كان ذا قدرة فائقة على النظم والتحكم فيه، وقد اكتسب هذه القدرة من معرفته النغم والإيقاع، فقد ذكرت له قصيدة على «فعلن فعلن» ثلاثة متحركات وساكن، يقول فيها:

---

(١) يعني الجدل بالباطل.

سُئلوا فأبوا فلقد بخلوا	فلبئس لعمرك ما فعلوا
أبكيت على طللٍ طرباً	فشجاك وأحزنك الطللُ

وروي له قصيدة على فعْلن ساكنة العين، يقول فيها:

هذا عمرو يستعفي من	زيدٍ عند الفضل القاضي
فانهوا عمراً، إني أخشى	صول الليث العادي الماضي
ليس المرء الحامي أنفاً	مثل المرء الضيم الراضي

وقد ساعدت قدرته هذه على التحكم بالنظم على استنباط أوزان الشعر التي لم يسبق إليها فكان مبتكرها والعلم المبرّز فيها.

مؤلّفاته:

ذكر له ابن خلكان في وفيات الأعيان وابن النديم في الفهرست طائفة من كتبه، نذكر منها:

- كتاب الإيقاع.
- كتاب تصريف الفعل.
- كتاب التفاحة، في النحو.
- كتاب جملة آلات العرب.
- كتاب شرح صرف الخليل.
- كتاب الشواهد.
- كتاب العروض.
- كتاب فائت العين، على ما فاته في كتابه المعجم الموسوم بالعين.
- كتاب في العوامل.
- كتاب في معنى الحروف.
- كتاب النغم.
- كتاب النقط والشكل.
- كتاب العين، وهو أول معجم عربي في تاريخ اللغة العربية.

كان الخليل بن أحمد الأول في تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على مخارج حروف الهجاء. كان لدى الخليل الحروف العربية على صورتين، صورة معروفة

معهودة وهي الأبجدية العربية: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ، وهي الكلمات التي تنتظم حروف الهجاء مرتبة على هذا السياق الذي تصوره. وإلى جانب تلك الصورة، كانت لديه صورة ثانية تنتظم حروف الهجاء العربية تضم الحروف المتشابهة بعضها إلى بعض كما هي الحال في اللغة الحبشية وإن كانت تختلف شيئاً عن النسق الحبشي الذي لا تزال صورته محفوظة في الترتيب المغربي وهو: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي، وهو عند العرب المشارقة: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ي. وكان بمقدور الخليل أن يرتب معجمه (العين) على أحد النسقين المذكورين، لكنه عدل إلى ترتيب معجمه إلى نسق جديد يخضع لمخارج الحروف. فقد رتب الحروف العربية على مخارجها من الحلق على النظام التالي: ع ـ ح ـ هـ ـ خ ـ غ ـ ق ـ ك ـ ج ـ ش ـ ض ـ ص ـ س ـ ز ـ ط ـ ت ـ د ـ ظ ـ ث ـ ر ـ ل ـ ن ـ ف ـ ب ـ م ـ و ـ أ ـ ي.

وقد ذكرها ابن منظور في مقدمة «لسان العرب» وهو يصف كتاب العين على هذا النحو: ع ـ ح ـ هـ ـ خ ـ غ ـ ق ـ ك ـ ج ـ ش ـ ض ـ ص ـ س ـ ز ـ ط ـ د ـ ت ـ ظ ـ ذ ـ ث ـ ر ـ ل ـ ن ـ ف ـ ب ـ م ـ ي ـ و ـ أ.

وإذا كان الخليل قد عد العين أقصى الحروف مخرجاً، فإن سيبويه يذكر أن الهمزة أقصى الحروف مخرجاً. غير أن ابن كيسان يروي أنه سمع من يذكر عن الخليل أنه قال: لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلّا زائدة أو مبدلة ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحصن في التأليف. وليس العلم بتقدم شيء على شيء لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته، فبأي بدأت كان حسناً وأولاها بالتقديم أكثرها تصرّفاً.

وقد بسّط الخليل في العين الكلام في هذه الحروف ومخارجها فعدّها تسعة وعشرين حرفاً جعل منها خمسة وعشرين حرفاً صحاحاً لها أحياز ومدارج كما جعل منها أربعة هوائية.

ولقد وسم الخليل كتابه المعجم هذا باسم أول حرف اعتمده وهو العين،

ولقد جاء بعده من حذا حذوه ومنهم تلميذه النضر بن شميل في كتابه «الجيم»، وأبو عمرو الشيباني وله «الجيم» أيضاً. وإذا كان الخليل أول واضع للكلم العربي في صورة معجمية، فقد كان عليه أن يستقصي الكلمات، فكان اعتماده على ما أورده الصرفيون من حصر لأبنية الكلمة، فجعلها إما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية. ولذلك وجد أن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير تكرار اثنا عشر ألف ألف وثلاثمئة ألف وخمسمائة آلاف وأربعمائة واثنا عشر.

هذا الإحصاء اعتمد فيه الخليل على تنقل الحرف في بنيته من الكلمة، فالحرف في الكلمة الثنائية تنتج عن تنقله صورتان يكون أولاً ويكون ثانياً، والحرف في الكلمة الثلاثية تنتج عن تنقله صور ثلاث يكون أولاً وثانياً وثالثاً، والحرف في الكلمة الرباعية تنتج عن تنقله صور أربع، وفي الكلمة الخماسية خمس صور. هذه الصور التي ابتدعها الخليل ليحصر بها الكلمات جعل كل تقليب منها على الحرف الأول مخرجاً ليتيسّر له الحصر وليأمن التكرار. ولقد سمى كل صورة فصلاً كما سمى ما ينتج عن الصورة مادة. فالفصل في باب الثنائي يشتمل على مادتين وفي الثلاثي على ست مواد وهكذا.

إذاً.. كان الخليل أول معجمي اقتفى أثره الكثيرون، فوضع القالي معجمه «البارع» ثم الأزهري في «التهذيب» ثم الصاحب بن عباد في «المحيط» ثم ابن سيده في «المحكم».

وانتفعت أيضاً به المدرسة المعجمية التي حاولت التحلل من الترتيب على مخارج الحروف، فقد أفادت الكثير من مادته، وإن لم تجر مجراه، فكان معجم «الجمهرة» لابن دريد، و«المجمل» و«المقاييس» لابن فارس.

الأصمعي

١٢٢ - ٢١٣ هـ

عبد الملك بن قُرَيب بن عبد الملك بن علي بن أصمع (ونسبته إليه) بن مظهرٍ ابن رياح بن عبد شمس بن أعيْا بن سعد بن عبد بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر، وكان الأصمعي يقول: «لستُ من باهلة، لأن قتيبة بن معن لم تلِدْه باهلة قط»[١]. كان يكنى أبا سعيد، واسم قريب عاصم ويكنى أبا بكر، وكان عبد الملك صاحب نحو ولغة وغريب وأخبار وملح[٢]. ولد سنة ١٢٢ هـ بالبصرة، وكان كثير التطواف في البوادي يقتبس علومها ويتلقى أخبارها ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر. قال الأخفش: ما رأينا أحداً أعلم بالشعر من الأصمعي. وقال أبو الطيب اللغوي: كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حفظاً.

قال عمر بن شبّة الحافظ الأخباري: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد: كان أبو زيد صاحب لغة وغريب ونحو، وكان أكثر من الأصمعي في النحو، وكان أبو عبيدة أعلم من أبي زيد والأصمعي بالأنساب والأيام والأخبار، وكان للأصمعي يد غرّاء في اللغة لا يعرف فيها مثله، وفي كثرة الرواية، وكان دون أبي زيد في النحو.

وحكى محمد بن هبيرة، قال: قال الأصمعي للكسائي وهما عند الرشيد. ما معنى قول الشاعر:

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٤٥ / ٣٤٦.

(٢) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ١١٢.

قتلوا ابن عفّان الخليفة مُحرماً ودعا فلم أرَ مثلَه مقتولا

قال الكسائي: كان محرماً بالحج[1]، قال الأصمعي: فقوله:

قتلوا كسرى بليلٍ محرماً فتولّى لم يمتّع بكفن

فهل كان محرماً بالحج؟ فقال هارون للكسائي: يا علي، إذا جاء الشعر فإياك والأصمعي.

قال الأصمعي: قوله «محرماً» أي في حُرمة الإسلام، ومن ثمّ قيل: مسلم محرم أي لم يحلّ من نفسه شيئاً يوجب القتل. وقوله «محرماً» في كسرى يعني حرمة العهد الذي كان له في عنق أصحابه.

قال أبو عبدالله بن الأعرابيّ: شهدتُ الأصمعي وقد أنشد نحواً من مائتي بيت، ما فيها بيت عرفناه. وكان الأصمعي صدوقاً في الحديث، أخذ عن عبدالله بن عون وشُعبة بن الحجاج وحمّاد بن سلمة وحمّاد بن زيد والخليل بن أحمد، ويحكى أنه أراد أن يقرأ عليه العروض وشرع في تعلّمه فتعذّر ذلك عليه، فيئس الخليل منه، فسأله عن معصوب الوافر، فقال له: يا أبا سعيد، كيف تقطّع قول الشاعر:

إذا لم تستطعْ شيئاً فدعْهُ وجاوِزه إلى ما تستطيعُ

فعلم الأصمعي أن الخليل قد تأذّى ببعده عن علم العروض، فلم يعاوده فيه[2].

أخذ عنه ابن أخيه عبد الرحمن بن عبدالله، وأبو عبيد القاسم بن سلّام، وأبو حاتم السجستاني، وأبو الفضل الرياشي، وأحمد بن محمد اليزيدي، ونصر بن علي الجهضمي وغيرهم.

قال محمد بن عبد الرحمن مولى الأنصاري[3]: حدثنا الأصمعي، قال: بعث إليّ الأمين وهو وليّ عهد. فصرت إليه فقال: إن الفضل بن الربيع يحدّث

---

(١) فسره المبرد في الكامل، قال: قوله محرماً يريد في الشهر الحرام وكان قتل في أيام التشريق رحمه الله.

(٢) نزهة الألباء ص ١١٤.

(٣) نزهة الألباء ص ١١٦.

عن أمير المؤمنين أنه يأمر بحملك إليه على ثلاث دواب من دواب البريد ـ وكان حينئذٍ بالرقة ـ فجهِّزت وحملت إليه، فلما وصلت الرقة أوصلت إلى الفضل بن الربيع، فقال: لا تلقينّ أحداً ولا تكلّمه حتى أوصلك إلى أمير المؤمنين، وأنزلني منزلاً أقمت فيه يومين أو ثلاثة، ثم استحضرني فقال: جئني وقت المغرب حتى أدخلك على أمير المؤمنين. فجئته فأدخلني على الرشيد وهو جالس منفرد، فسلّمت فاستدناني وأمرني بالجلوس فجلست، فقال لي: يا عبد الملك، وجّهت إليك بسبب جاريتين أهديتا إليّ، قد أخذتا طرفاً من الأدب، أحببت أن تبور[1] ما عندهما، وتشير فيهما بما هو الصواب عندك، ثم قال: ليُمْضَ إلى عاتكة فيقال لها: أحضري الجاريتين فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط فقلت لإحداهما: ما اسمك يا فلانة؟ فقالت: فلانة. قلت: ما عندكِ من العلم؟ قالت: ما أمر الله تعالى به في كتابه، ثم ما ننظر فيه من الأشعار والآداب والأخبار. فسألتها عن حروف من القرآن، فأجابتني كأنها تقرأ الجواب من كتاب، وسألتها عن النحو والعروض والأخبار فما قصّرت. فقلت: بارك الله تعالى فيكِ، فما قصّرت في جوابي في كل فن أخذت فيه، فإن كنت تقرضين من الشعر فأنشدينا شيئاً، فاندفعت في هذا الشعر:

يا غياث البلاد في كل مُحلٍ | ما يريدُ العبادُ إلّا رضاك
لا ومن شرّف الإمام وأعلى | ما أطاع الإلّه عبدٌ عصاك

ومرّت في الشعر إلى آخره، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما رأيت امرأة في مَسْك[2] رجل مثلها، وسألت الأخرى فوجدتها دونها، إلّا أنها إنْ ووظبَ عليها لحقَتْها. فقال: يا عبّاسي: فقال الفضل: لبيك يا أمير المؤمنين، فقال: لتردّ إلى عاتكة ويقال لها: تصنع هذه التي وصفها بالكمال لتحمل إليّ الليلة. ثم قال لي: يا عبد الملك، أنا ضجر، قد جلست أحب أن أسمع حديثاً أتفرّج به، فحدّثني بشيء. فقلت: لأي الحديث تقصد يا أمير المؤمنين؟ فقال: مما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس وطرائف أخبارهم، فقلت: يا أمير المؤمنين، وكان صاحب لنا في بدو بني فلان، كنت أخشاه وأتحدث إليه، وقد أتت عليه ست وتسعون سنة،

---
(١) تجرّب وتختبر.
(٢) الجلد.

أصحّ الناس ذهناً وأجودهم أكلاً وأقواهم يداً، فغبرت عنه زماناً ثم قصدته، فوجدته ناحل البدن، كاسفَ البال، متغيّر الحال، فقلت له: ما شأنك؟ أأصابتك مصيبة؟ قال: لا. قلت: فمرض عراك؟ قال: لا. قلت: فما سبب هذا الذي أراه بك؟ قال: قصدتُ بعض القرابة في حيّ بني فلان، فألفيت عندهم جارية قد لاثَتْ رأسها، وطلتْ بالورس ما بين قرنها إلى قدمها، وعليها قميص وقناع مصبوغان، وفي عنقها طبل عليه، وتنشد هذا الشعر:

محاسنُها سهامٌ للمنايا ... مُرَيّشة بأنواع الخطوبِ
برى ريبُ الزمان لهنَّ سهماً ... يصيبُ بنصْله مهجَ القلوبِ

فأجبتها:

فقفي شفتي في موضعِ الطبلِ ترتعي ... كما قد أبحْتِ الطبل في جيدك الحسنْ
هبيني عوداً أجوفاً تحت شنّةٍ ... تمتع فيما بين نحرك والذَّقَنْ

فلما سمعت الشعر مني نزعت الطبل ورمته في وجهي، وبادرتْ إلى الخباء، فلم أزل واقفاً إلى أن حميت الشمس على مفرق رأسي، لا تخرج ولا تُرجع إليّ جواباً، فقلت: إنّا لله! أنا والله معها كما قال الشاعر:

فوالله يا سلمى لطالَتْ إقامتي ... على غير شيء يا سُليمى أراقُبهْ

ثم انصرفت سخين العين قرحَ القلب، فهذا الذي ترى بي من التغيّر من عشقي لها. قال: فضحك الرشيد حتى استلقى، وقال: ويحك يا عبد الملك! ابن ست وتسعين يعشق! قلت: قد كان كذلك يا أمير المؤمنين.

وحكى المبرّد، قال: دخل الأصمعي على الرشيد بعد غيبة كانت منه، فقال له: يا أصمعي، كيف أنت بعدنا؟ فقال: ما لاقْتني بعدك أرض، فتبسّم الرشيد، فلما خرج الناس قال: يا أصمعي، ما معنى قولك: ما لاقتني أرض؟ فقال: ما استقرّت بي أرض. فقال: هذا حسن، ولكن لا ينبغي أن تكلّمني بين يدي الناس إلّا بما أفهمه، فإذا خلوتُ فعلّمني، فإنه يقبُح بالسلطان ألّا يكون عالماً، لأنه لا يخلو إمّا أن أسكت أو أجيب، فإذا سكت فيعلم الناس أنّي لا أعلم إذ لم أجِبْ، وإذا أجبتُ بغير الجواب، فيعلم من جوابي أني لم أفهم ما قلتَ. قال الأصمعي: فعلّمني أكثر ممّا علّمته.

ذكر أبو العباس المبرد أن رجلاً كان يألف حلقة الأصمعي، فإذا صار إلى ضيعته أهدى إلى الأصمعي ممّا يحمل منها، فترك حلقة الأصمعي، وألِفَ حلقة أبي زيد، وكان أبو زيد لا يقبل شيئاً، قال: فمرّ الرجل يوماً بالأصمعي فأنشده الأصمعي للفرزدق:

ولجَّ بك الهجرانُ حتى كأنّما ترى الموتَ في البيتِ الذي كنت تألفُ

وقال الربيع بن سليمان راوي كتب الشافعي[1]: سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول: ما عَبَر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي.

وروى الرياشي قال: سمعت عمرو بن مرزوق صاحب البخاري، يقول: رأيت الأصمعي وسيبويه يتناظران، وهذا يغلبه بلسانه في الظاهر - يعني الأصمعي[2].

وقال نصر بن عليّ: كان الأصمعي يتّقي أن يفسّر حديث رسول الله ﷺ كما يتّقي أن يفسّر القرآن[3].

مصنفات الأصمعي:

- كتاب خلق الإنسان.
- كتاب الأجناس.
- كتاب الأنواء.
- كتاب الهمز.
- كتاب المقصور والممدود.
- كتاب الفرق (بين أسماء الأعضاء من الإنسان والحيوان).
- كتاب الصفات.
- كتاب الأثواب.
- كتاب الميسر والقداح.
- كتاب خلق الفرس.
- كتاب الخيل.

---

(١) نزهة الألباء ص ١٢١.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٢.

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٢.

- كتاب الإبل.
- كتاب الشاة.
- كتاب الأخبية والبيوت.
- كتاب الوحوش.
- كتاب الأوقاف.
- كتاب فعل وأفعل.
- كتاب الأمثال.
- كتاب الأضداد.
- كتاب الألفاظ.
- كتاب السلاح.
- كتاب اللغات.
- كتاب الاشتقاق.
- كتاب النوادر.
- كتاب أصول الكلام.
- كتاب القلب والإبدال.
- كتاب جزيرة العرب.
- كتاب الدلو.
- كتاب الرحل.
- كتاب معاني الشعر.
- كتاب مصادر كتاب القصائد الست.
- كتاب الأراجيز.
- كتاب النحلة.
- كتاب النبات والشجر.
- كتاب الخراج.
- كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه.
- كتاب غريب الحديث.
- كتاب السرج واللجام والقوى والنعال.
- كتاب نوادر الأعراب.

- كتاب مياه العرب.
- كتاب النسب.
- كتاب الأصوات.
- كتاب المذكر والمؤنث.
- كتاب المترادف.
- كتاب الدارات.
- كتاب أسماء الخمر.
- كتاب ما تكلّم به العرب فكثر في أفواه الناس.
- وله قطعة كبيرة من أشعار العرب ليست بالمرضية عند العلماء لقلّة غربتها واختصار روايتها[1].

قال أبو العيناء: توفي الأصمعي وأنا حاضر سنة ثلاث عشرة ومائتين. ويقال: سنة سبع عشرة ومائتين في خلافة المأمون [2].

وقال محمد بن أبي العتاهية: لما بلغ أبي موتُ الأصمعي جزع عليه ورثاه فقال:

أسِفتُ لفقد الأصمعي لقد مضى	حميداً له في كل صالحة سهمُ
تقضّتْ بشاشات المجالس بعده	وودَّعنا إن ودّعَ الأنس والعلمُ
وقد كان نجمَ العلم فينا حياته	فلما انقضت أيامه أفل النجمُ

وذكر ابن النديم[3] عن أبي العيناء، قال: توفي الأصمعي بالبصرة وأنا حاضر سنة ثلاث عشرة ومائتين وصلّى عليه الفضل بن أبي إسحاق، وسمعت عبد الرحمن ابن أخيه في جنازته يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقلت: ما عليه لو استرجع كما علمه الله.

ويقال: مات الأصمعي في سنة سبع عشرة ومائتين.

قال إبراهيم الحربيّ: كان أهل البصرة أهل العربية، منهم أصحاب الأهواء،

---

(١) انظر فهرست ابن النديم ص ٨٣.
(٢) نزهة الألباء ص ١٢٣ / ١٢٤.
(٣) الفهرست ص ٨٢.

إلّا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنّة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأصمعي.

وقال محمد بن إبراهيم الطرسوسي: سمعتُ الإمام أحمد بن محمد بن حنبل يُثني على الأصمعي بالسنة. قال: وسمعت علي بن المديني يثني عليه، وقال: وسمعت الإمام أحمد ابن حنبل ويحيى بن معين يثنيان عليه في السنة.

ورُوي عن ابن أبي خيثمة، قال: سمعت يحيى بن معين، يقول: الأصمعي ثقة.

وحكي عن الشافعي أنه قال: ما رأيت بذلك المعسكر أصدق من الأصمعي.

وحكي أنه سُئل أبو داود صاحب السنن عن الأصمعي، فقال: صدوق.

وقال نصر بن عليّ: حضرت الأصمعي، وقد سأله سائل عن معنى قول الرسول ﷺ: «جاءكم أهل اليمن وهم أبخعُ أنفسًا»، ما معنى أبخعُ؟ قال: يعني أقتل، ثم أقبل متندّماً على نفسه كاللائم لها، فقلت له: لا عليك، فقد حدّثنا سفيان بن عُيينة عن أبي نجيح عن مُجاهد في قوله تعالى: ﴿**فلعلّك باخِعٌ نفسك**﴾[1]، أي قاتل نفسك، فكأنّه سُرّيَ عنه.

---

(١) صورة الكهف آية ٦.

ابن السّكيت

١٨٦ - ٢٤٤ هـ

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت، والسكيت لقب أبيه إسحاق، قيل إنه سمي بذلك لأنه كان كثير السكوت طويل الصمت[١]. وكان إسحاق أبوه من أصحاب الكسائي عالماً بالعربية واللغة والشعر، وكان يعقوب يقول عن أبيه: «أنا أعلم من أبي بالنحو، وأبي أعلم مني بالشعر»[٢].

نشأ ابن السّكيت في بغداد، وكان أبوه آنذاك مؤدّباً يشتغل بتعليم الصبيان، فكان الابن يؤدب مع أبيه في درب القنطرة حتى احتاج إلى الكسب فجعل يتعلم النحو. وحكى عن أبيه أنه حج فطاف البيت وسعى بين الصفا والمروة، وسأل الله أن يعلّم ابنه النحو، فتعلّم النحو واللغة. وجعل يختلف إلى قوم من أهل القنطرة، فأجروا له كل دفعة عشرة دراهم وأكثر، حتى اختلف إلى بشر وهارون ابني هارون، أخوين كانا يكتبان لمحمد بن عبدالله بن طاهر، فما زال يختلف إليهما وإلى أولادهما دهراً، واحتاج إذ ذاك ابن طاهر إلى رجل يعلم ولده، وجعل ولده في حجر إبراهيم بن إسحاق المصعبي، فرتب يعقوب وجعل له خمسمائة درهم ثم جعلها ألف درهم[٣].

وكان ابن السكيت قد خرج قبل ذلك إلى سرّ من رأى في أيام المتوكل، فصيّره عبيدالله بن يحيى بن خاقان عند المتوكل، فضمّ إليه ولده وأسنى له

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٤٤٣.

(٢) الفهرست لابن النديم ص ١١٤.

(٣) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٧٣.

الرزق[1]. فأدب المؤيد والمعتز ابني المتوكل. وله مع المعتز نادرة روتها بعض المصادر تقول: «وكان المتوكل ألزم يعقوب ليؤدب المعتز بالله، فلما جلس عنده، قال له: بأي شيء يحب الأمير أن نبدأ من العلوم؟ قال له: بالانصراف! قال: فأقوم؟ قال المعتز: أنا أخف نهوضاً منك. فقام المعتز واستعجل فعثر بسراويله وسقط، فالتفت إلى ابن السكيت كالخجل، فأنشأ ابن السكيت:

يُصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته في القول تذهب رأسه ... وعثرته في الرجل تبرا على مهل

فلما كان من الغد دخل يعقوب على المتوكل، فأخبره بما جرى، فأمر له بخمسين ألف درهم، وقال: «قد بلغني البيتان»[2].

شيوخه:

تلقى ابن السكيت العلم على جماعة من علماء عصره، كان منهم أبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم، وأبو عبدالله محمد بن زياد بن الأعرابي، وأبو عمر وإسحاق بن مرار الشيباني، وأبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي، وأبو علي محمد بن المستنير المعروف بـ«قطرب»، وأبو الحسن علي بن حازم اللحياني، وأبو نصر أحمد بن حاتم الباهلي (صاحب الأصمعي)، وبالإضافة إلى ما أخذه عن جميع هؤلاء، فقد روى ابن السكيت في كتبه كثيراً عن بعض الأعراب الذين سماهم فيها، يقول أبو الطيب اللغوي[3]: «وكان ربما حكى عن أعراب ثقات عنده».

وقال الأزهري[4]: «ويروي مع ذلك عن فصحاء الأعراب الذين لقيهم ببغداد».

ويروي ابن النديم[5]: «وقد لقي فصحاء الأعراب وأخذ عنهم وحكى في كتبه ما سمعه منهم».

تلاميذه:

تلمذ عليه بعض الأعلام النابهين، ومنهم أحمد بن فرح بن جبريل أبو جعفر

---

(١) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ١٧٩.
(٢) نور القبس للمرزباني ص ٣٢٠.
(٣) مراتب النحويين ص ٩٦.
(٤) تهذيب اللغة ١ / ٢٣.
(٥) الفهرست ص ١١٤.

الضرير المقرىء، وأبو بشر اليمان بن أبي اليمان البندنيجي، وأبو شعيب عبدالله بن الحسن الحرّاني، وأبو حنيفة الدينوري أحمد بن داود، وأبو سعيد السكري الحسن بن الحسين، وعبدالله بن محمد بن رستم مستملي يعقوب، وأبو عكرمة الضبي عامر بن عمران، وغيرهم.

ويروي أبو العباس ثعلب في سبب شهرة ابن السّكيت قصة يقول فيها: «كان سبب قعود ابن السكيت وقصدهم إياه، أنه عمل شعر أبي النجم وجوّده، فقلت له: ادفعه إليّ لأنسخه، فقال: عليَّ يمين يا أبا العباس بالطلاق أنه لا يخرج من يدي، ولكنه بين يديك فانسخه. فقلت له: فأحضر يوم الخميس. فلما واصلت عرف أصحابنا، فحضروا بحضوري، ثم انتشر ذلك، فحضر الناس»[1].

ذكر المرزباني بأنه «كان عالماً بنحو الكوفيين وعلم القرآن واللغة والشعر، راوية ثقة وهو صحيح السماع»[2].

وهو عند ابن الأنباري: «من أكابر أهل اللغة»[3].

ويراه ابن العماد الحنبلي: «سبق أقرانه في الأدب، مع حظ وافر في السنن والدين»[4] ويقول عنه الأزهري: «وكان ديّناً فاضلاً صحيح الأدب»[5].

اشتهر ابن السكيت بجمع قصائد الشعراء في دواوين، وممن جمع له قصائده امرؤ القيس، وبشر بن أبي خازم، وتميم بن أبي بن مقبل، وجرير، والحطيئة، وحميد الأرقط، وحميد بن ثور الهلالي، وسحيم بن وثيل الرياحي، والعباس بن مرداس، والكميت، ولبيد بن ربيعة، والمزرّد بن ضرار الغطفاني، ومهلهل بن ربيعة، والنابغة الجعدي، وقد ذكرنا أنه عمل ديوان أبي النجم العجلي كما رواه ثعلب.

كما شرح ابن السكيت دواوين بعض من الشعراء، مثل ديوان أبي نواس، والذي جعله في اثني عشر صنفاً في ثمانمائة ورقة[6]، وشرح ديوان الخنساء،

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص ٢٢٣.
(٢) نور القبس ص ٣١٩.
(٣) نزهة الألباء ص ١٧٨.
(٤) شذرات الذهب ٢ / ١٠٦.
(٥) تهذيب اللغة ١ / ٢٣.
(٦) طبقات النحويين واللغويين لابن قاضي شهبة ص ٣٠٧ من الجزء الثاني.

وطرفة بن العبد، وأبي دؤاد الإيادي، وطفيل الغنوي، وعروة بن الورد، وقيس بن الخطيم، والنابغة الذبياني، والأخطل، والأعشى، وزهير بن أبي سلمى، وعمر بن أبي ربيعة، وعمرو بن قميئة، والقتال الكلابي، وشرح المعلقات أيضاً.

وفاته:

قيل إن المتوكل قتله، فالزبيدي يروي بسنده عن أحمد بن عبيد سبب ذلك، فيقول(١): «قال أحمد بن عبيد: شاورني أبو يوسف يعقوب بن السكيت في منادمة المتوكل فنهيته، فحمل قولي على الحسد، وأجاب إلى ما دُعي إليه من المنادمة، فبينما هو معه في بعض الأيام، إذ مرّ ابنان للمتوكل، فقال له: يا يعقوب، من أحب إليك، ابناي هذان، أم الحسن والحسين؟ فغضّ من ابنيه وذكر الحسن والحسين بما هما أهله، فأمر الأتراك فديس بطنه فحمل وقيذاً وعاش يوماً وبعض يوم».

لكن الأزهري يروي في موته سبباً آخر فيقول(٢): «قال أبو يوسف الحراني: وقتل المتوكل يعقوب بن السكيت، وذلك أنه أمره أن يشتم رجلاً من قريش وأن ينال منه، فلم يفعل، فأمر القرشي أن ينال منه فنال منه، فأجابه يعقوب، فلما أن أجابه قال له المتوكل: أمرتك أن تفعل، فلما أن شتمك فعلت! فأمر به فضرب، فحمل من عنده صريعاً مقتولاً، ووجه المتوكل من الغد إلى ابن يعقوب عشرة آلاف درهم ديته».

وكانت وفاة ابن السكيت في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة ٢٤٤هـ، ويقال إنه بلغ عند وفاته ثمانياً وخمسين سنة(٣).

مؤلفاته:

إلى جانب اشتغاله في جمع قصائد الشعراء في دواوين، وشرح دواوين شعراء آخرين، فقد خلف ابن السكيت ثروة علمية عظيمة في علوم العربية، شهدت له بالتفوّق والإبداع في التأليف، وقد ضاع الكثير منها وحفظ التاريخ لنا البعض الآخر، ومن كتبه:

---

(١) طبقات النحويين للزبيدي ص ٢٢١.

(٢) تهذيب اللغة ١ / ٢٣.

(٣) تاريخ بغداد ١٤ / ٢٧٤.

ـ كتاب الإبل.
ـ كتاب أبيات المعاني.
ـ كتاب الأجناس (كتاب كبير).
ـ كتاب إصلاح المنطق (في اللغة).
ـ كتاب الأصوات (ذكره ابن سيده في المخصص ١/١٢).
ـ كتاب الأضداد.
ـ كتاب الألفاظ (ذكره البغدادي في خزانة الأدب ١/١١).
ـ كتاب الأمثال.
ـ كتاب الأنساب.
ـ كتاب الأنواء.
ـ كتاب الأيام والليالي.
ـ كتاب البحث.
ـ كتاب البيان.
ـ كتاب التوسعة في كلام العرب.
ـ كتاب الحشرات.
ـ كتاب خلق الإنسان.
ـ كتاب الدعاء.
ـ كتاب الزبرج (ذكره ابن سيده في المخصص ١/١٢).
ـ كتاب السرج واللجام.
ـ كتاب سرقات الشعراء وما اتفقوا عليه.
ـ كتاب طبقات الشعراء.
ـ كتاب غريب القرآن.
ـ كتاب الفرق (ذكره ابن سيده في المخصّص ١/١٢).
ـ كتاب فعل وأفعل.
ـ كتاب القلب والإبدال.
ـ كتاب المثنى والمبني والمكنى (ذكره ابن سيده في الخصائص ١/١٢).
ـ كتاب مجاز ما جاء في الشعر وحرّف عن جهته.
ـ كتاب المذكر والمؤنث.

- كتاب معاني الشعر الصغير.
- كتاب معاني الشعر الكبير.
- كتاب المقصور والممدود.
- كتاب منطق الطير.
- كتاب النبات والشجر.
- كتاب النوادر.
- كتاب الوحوش.

كتاب الحروف التي يتكلم بها في غير موضعها (أشار إليه رمضان عبد التواب)[1].

أشهر كتب ابن السكيت كتابه «إصلاح المنطق»، وقد اشتهر به إلى درجة أنه سُمي في بعض المصادر «صاحب إصلاح المنطق». قال عنه المبرّد: «ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب يعقوب بن السكيت في المنطق»[2]. وكان العلماء يقولون: إصلاح المنطق كتاب بلا خطبة، وأدب الكاتب تأليف ابن قتيبة خطبة بلا كتاب، لأنه طول الخطبة وأودعها فوائد». كما قال بعض العلماء، «ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل إصلاح المنطق، ولا شك أنه من الكتب النافعة الممتعة الجامعة لكثير من اللغة، ولا نعرف في حجمه مثله في بابه»[3].

قصد ابن السكيت في إصلاح المنطق، إلى إصلاح أخطاء النطق التي كانت شائعة في عصره، بمعنى إصلاح النطق. ونجد أن ابن السكيت قسم كتابه إلى قسمين (جزءين) وقسم بعد ذلك كل جزء إلى أبواب يغلب عليها مراعاة الصيغ والأبنية المختلفة. وقد اهتم ببيان اللهجات العربية واختلافها في النطق. ونلاحظ أنه روى الكثير عن الأعراب الفصحاء وذكر أسماءهم.

وقد عقد في إصلاح المنطق أيضاً لتطور الدلالة ثلاثة أبواب، اثنان منها بعنوان: «ومما تضعه العامة في غير موضعه» والثالث بعنوان «ومما يضعه الناس في

---

(١) تراث الإنسانية مجلد ٨ / ٩ ص ٧.

(٢) نزهة الألباء ص ١٧٩.

(٣) طبقات النحويين لابن قاضي شهبة ص ٣٠٨ ج ٢.

غير موضعه»، وتحتوي الأبواب الثلاثـة على بعض التعبيرات اللغـوية والأمثـال العربية. ثم نجد في الكتاب أمثلة أخرى متناثرة لتطور الدلالة، كقوله: وتقول هي المزادة للتي يستقى فيها الماء، ولا تقل راوية، إنما الـراوية البعيـر أو البغل أو الحمار الذي يحمل عليه الماء.

وتناول أيضاً بعض قواعد الصرف والاشتقاق من مثل تناوله طريقة اشتقاق المضارع من الماضي المفتوح العين ثم هناك باب للعدد شرح فيه بعض قواعده، وعرض لبعض المؤنثات السماعية وهي ما تخلو من إحدى علامات التأنيث وذكر منها ما يجوز تذكيره في الكلام العربي مثل: السكين والدلو والسلاح.

ويذكر ابن السكيت بعد هذا كله أبواب عديدة لما لا يستعمل إلّا منفياً من العبارات. ثم عقد بـاباً لمـا جاء مثنى وهـو يشتمل على بعض أمثلة مـا يسمى بـ«المثنيات اللغوية وهي الألفاظ التي سمعت مثناة للدلالة على اثنين وهي في كلام العرب على ثلاثة أنواع: نوع إذا أفرد لم يفد المعنى الموضوع له في التثنية، والنوع الثاني يشمل المثنيات التي يطلق مفردها على واحد من الاثنين ولا يطلق على الآخر. والنوع الثالث: هو المثنى الحقيقي وهو الذي يطلق مفرده على كل واحد من الاسمين مثل قولهم: العوفان، لعوف بن سعيـد، وعوف بن كعب بن سعد.

ويختم ابن السكيت كتابه بباب من الألفاظ، وبابين بما جاء على وزن فُعَلة أحدهما للصفات والثاني للأسماء.

إصلاح المنطق لابن السكّيت ترك أثراً واضحاً في ما جاء بعده من كتب اللغة، فقد كان مصدراً هاماً من المصادر التي اعتمد عليها الأزهري في تهذيب اللغـة، وابن سيده في المخصص، وابن فـارس في المقـاييس، والفيـومي في المصبـاح المنير، والـزبيدي في تـاج العـروس، والبكـري في فصـل المقـال، والسيوطي في المزهر، والبغدادي في خزانة الأدب.

ابن دريد

٢٢٣ - ٣٢١ هـ

أبو بكر محمد بن الحسن بن دُريد بن عتاهية بن حَنْتم بن الحسن بن حَماد بن جرو بن واسع بن وهب بن سلمة بن حاضر بن أسد بن عديّ بن عمرو بن مالك بن فهم بن غَنْم بن دوس بن عدنان بن عبدالله بن زهران الأزدي العماني. ودُريد تصغير أدرد[١]، وهو تصغير ترخيم. إمام عصره في اللغة والأدب والشعر.

ولد بالبصرة، في سكة صالح، في خلافة المعتصم سنة ٢٢٣ هـ[*]، وأقام بها، وقرأ على علمائها، ثم غادرها مع عمه الحسين إلى عُمان، وكانت موطن قومه الأزد في فتنة الزنج، وبقي في عمان اثنتي عشرة سنة يتعلّم اللغة وأشعار العرب، ثم عاد إلى البصرة وسكنها. وكان يتنقل بعد ذلك بين البصرة وعُمان وجزائر البحر وفارس وبغداد، إلّا أن البصرة كانت محل إقامته لما كان لها من المكانة العلمية آنذاك ثم خرج إلى نواحي فارس عندما قلّد المقتدر بالله عبدالله بن محمد بن ميكال الأعمال بكور الأهواز، فضم إليه ابنه إسماعيل أبا العباس، وطلب ابن دريد لتأديب ابنه هذا، فقد كانت شهرة ابن دريد قد ذاعت وشُهر، فرحل ابن دريد إلى كدر الأهواز لتأديب إسماعيل بن عبدالله. وهناك صحب ابني ميكال فقلّداه ديوان فارس، وكانت كتب فارس تصدر عن رأيه، ولا ينفذ أمر إلّا بعد توقيعه، فأفاد من ذلك مالاً جمّاً.

---

(١) هو الذي سقطت أسنانه وبقيت أصولها.

(*) ذكر العتبي عن العتكي أنه قال: دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعته يقول: ولدت ليلة الجمعة في أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين.

وفي سنة ٣٠٨ هـ عاد إلى بغداد بعد وفاة عبدالله بن محمد بن ميكال، فأنزله علي بن محمد بن الخواري في جواره وأغدق عليه، وعرف الخليفة المقتدر بالله خبره ومكانته العلمية، فأمر بأن يجرى عليه خمسون ديناراً في كل شهر، فأُجري ولم ينقطع إلى حين وفاته(١).

شيوخه:

كان أول شيوخ ابن دريد عمه الحسين الذي صحبه إلى عُمان، ثم أخذ عن أبي حاتم السجستاني وأبي الفضل الرياشي وعبدالرحمن بن عبدالله المعروف بابن أخي الأصمعي وأبي عثمان سعيد بن هارون الأشناندانی(٢) وإبراهيم بن سفيان الزيادي وغيرهم.

تلاميذه:

اشتهر من تلاميذه الكثير من جهابذة الأدب واللغة، منهم أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني، وأبو علي إسماعيل بن القاسم القالي صاحب كتاب الأمالي، وأبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي صاحب الموازنة، وأبو عبدالله المرزباني صاحب معجم الشعراء، وأبو سعيد السيرافي النحوي، والزجاجي، وابن خالويه، وأبو بكر بن شاذان، والحسن بن عبدالله العسكري، والرمّاني النحوي، وأبو العباس إسماعيل بن ميكال، وابن مقلة الوزير، وأحمد بن عبيد البغدادي، وأبو إسحاق إبراهيم بن الفضل الهاشمي، وعمر بن محمد بن سيف، وغيرهم.

كان ابن دريد كريماً سخياً حتى لا يمسك درهماً مع كثرة استفادته، وله خاصية امتاز بها وهي قوة الحفظ ما لم يدانه أحد فيها، وكان يقرأ عليه دواوين الشعر فيسابق إلى إتمامها من حفظه، وكان واسع الرواية، قال بعض العلماء: ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء.

سئل الدارقطني عن ابن دريد: أثقة هو أم لا؟ فقال: تكلموا فيه.

وزعم بعضهم أنه كان يتسامح في الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له.

وذكر المسعودي(٣) قال: لقد كان إمام عصره في اللغة والأدب عبقرياً،

---

(١) وفيات الأعيان ٣: ٤٤٩. (٢) صاحب كتاب «المعاني». (٣) مروج الذهب ٤: ٣٢٠.

يروه

وبرع في الشعر، وروى من أخبار العرب وأشعارها ما لم يراه كثير من أهل العلم، وكان حسن القريحة، وهو الذي انتهت إليه لغة البصريين وقام مقام الخليل بن أحمد في اللغة. وقيل إنه تصدر في العلم ستين سنة، كما قيل إنه ما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد[1].

وقد تذاكروا المتنزّهات يوماً وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق، وقال آخرون: بل نهر الأُبلّة، وقال آخرون: بل سُغْد سمرقند، وقال بعضهم: نهروان بغداد، وقال بعضهم: شِعب بوّان بأرض فارس، وقال بعضهم: نوبُهار بلخ.

فقال ابن دريد: هذه متنزهات العيون، فأين أنتم عن متنزهات القلوب؟

فقالوا: وما هي يا أبَا بكر؟

قال: عيون الأخبار للقتبي، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر، ثم أنشأ يقول:

ومن تكُ نزهتَه قينةٌ ... وكأس تُحثُّ وكأس تُصَبْ

فنزهتنا واستراحتنا ... تلاقي العيون ودرسُ الكتبْ

قال المرزباني: قال ابن دريد: سقطت من منزلي بفارس، فانكسرت ترقوتي، فلما كان آخر الليل غمضت عيني فرأيت رجلاً طويلاً أصفر الوجه كوسجاً[2] دخل عليّ وأخذ بعضادتي الباب وقال: أنشدني أحسن ما قلت في الخمر، فقلت: ما ترك أبو نواس لأحد شيئاً، فقال: أنا أشعر منه، فقلت: ومن أنت؟ قال: أنا أبو ناجية من أهل الشام، وأنشدني:

وحمراءَ قبل المزج صفراءَ بعدَه ... أتتْ بين ثوبيّ نرجسٍ وشقائقِ

حكتْ وجنةَ المعشوقِ صرفاً فسلّطوا ... عليها مزاجاً فاكتست لونَ عاشقِ

فقلت له: أسأت.

فقال: ولِمَ؟

---

(١) مراتب النحويين، لأبي الطيب اللغوي ص ٨٤.

(٢) لحيته على ذقنه.

قلت: لأنك قلت: وحمراءَ، فقدمت الحمرة، ثم قلت: بين ثوبي نرجس وشقائق، فقدمتَ الصفرة، فهلاّ قدمتها على الأخرى كما قدمتها على الأولى؟

فقال: ما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض[1]؟

وروى الخطيب عن ابن دريد قال: كان أبو عثمان الأشناندانى معلمي، وكان عمي الحسين بن دريد يتولى تربيتي، فإذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان يأكل معه، فدخل عمي يوماً وأبو عثمان يرويني قصيدة الحارث بن حلّزة التي أولها: آذَنَتْنا ببيْنها أسماءُ فقال لي عمي: إذا حفظت هذه القصيدة وهبتُ لك كذا وكذا. ثم دعا بالمعلّم ليأكل معه فدخل إليه فأكلا وتحدّثا بعد الأكل ساعة، فإلى أن رجع المعلم حفظت ديوان الحارث بن حلزة بأسره. فخرج المعلم فعرّفته ذلك، فاستعظمه وأخذ يعتبره عليّ فوجدني قد حفظته، فدخل إلى عمي فأخبره فأعطاني ما كان وعدني به[2].

شعره:

كان ابن دريد شاعراً مفلقاً، قال المسعودي[3]: «وكان يذهب بالشعر كل مذهب، فطوراً يجزل وطوراً يرقّ، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتي على أكثره».

وقال الأنباري: «وكان من أكابر علماء العربية، شاعراً كثير الشعر»[4].

وقال ابن البكري[5]: «هو أشعر العلماء قاطبة بلا اختلاف».

ذكر المرزباني عن ابن دريد أنه قال: خرجتُ أريد زهران بعد دخولي البصرة فمررت بدار كبيرة قد خربت، فكتبت على حائطها:

أصبحوا بعد جميعٍ فِرقاً ... وكذا كلُّ جميعٍ مُفترِقْ

فمضيت، ورجعت فإذا تحته مكتوب:

ضحكوا والدهرُ عنهم صامتٌ ... ثم أبكاهم دماً حين نطقْ

وكان شعره جزلاً متعدد الغايات، فيه من الحكم والمواعظ والأمثال

(١) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ١٩٢.
(٢) إنباه الرواة للقفطي ٣: ٩٤.
(٣) مروج الذهب ٤: ٣٢٠.
(٤) نزهة الألباء ١٩١.
(٥) اللآلي ١٤٤.

والحوادث التاريخية، وفيه من المدح والهجاء والنسيب والحماسة شيء كثير، فتارة يبرز عبقريته اللغوية وملكته الأدبية، وطوراً يستعمل السلاسة وسهولة المنطق، وهو يقول على البديهة.

ومن جيّد شعره وأجمله مقصورته المشهورة التي أحاط فيها بأكثر المقصور، وهي من غرر القصائد، وقد أنشأها في مدح الأميرين ابني ميكال عبدالله بن محمد وابنه أبي العباس إسماعيل. وكانت هذه القصيدة سبب شهرته، وهي أربعة وخمسون ومائتا بيت، ضمنها كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم والحكم المفيدة.

وفاته:

عرض لابن دريد وهو على مشارف التسعين من عمره فالج سُقي له الترياق فبرىء منه وصحّ، ورجع إلى أفضل أحواله، ولم ينكر من نفسه شيئاً، ورجع إلى إسماع تلاميذه وإملائه عليهم. ثم عاوده الفالج بعد سنة لغذاء ضار تناوله، فكان يحرك يديه حركة ضعيفة، وبطل من محزمه إلى قدميه، فكان إذا دخل عليه الداخل ضجّ وتألّم لدخوله وإن لم يصل إليه.

قال أبو علي القالي، وكان تلميذه، فكنت أقول في نفسي إنّ الله عزّ وجل عاقبه بقوله في قصيدته المقصورة حين ذكر الدهر:

مارَسْتُ مَن لو هَوَت الأفلاكُ مِن جوانب الجوّ عليه ما شكا

وكان يصيح من علته صياح مَن يمشى عليه أو يُسلّ بالمسالّ والداخل بعيد منه. وكان مع هذه الحال ثابت الذهن كامل العقل يردّ فيما يسأل عنه ردّاً صحيحاً. وكنت أسأله ـ والكلام للقالي ـ عن شكوكي في اللغة وهو بهذه الحال فيردّ بأسرع من النّفس بالصواب.

وقال لي مرة، وقد سألته عن بيت شعر: لأن طفئت شحمتا عينيّ لم تجد من يشفيك من العلم.

وقال أبو علي أيضاً: وآخر شيء سألته عنه جاوبني أن قال لي: حال الجريض دون القريض، فكان هذا الكلام آخر ما سمعته منه.

وكانت وفاة ابن دريد يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة

٣٢١ هـ ببغداد. وقال السيوطي[١]: «مات بعُمان في رمضان سنة ٣١١ هـ.

وفي اليـوم الذي مـات فيه مـات أبو هـاشم عبد السـلام بن محمد الجُبّـائي المتكلم، فقال الناس: اليوم مات علم اللغة والكلام بموت ابن دريد والجبّائي.

ودفن ابن دريد في مقبرة الخيزران في يوم مطير[٢].

مؤلفاته:

- كتاب الجمهرة، وهو من الكتب المعتبرة في اللغة.
- كتاب الاشتقاق (في تفسير الأعلام وأسماء القبائل).
- كتاب السرج واللجام.
- كتاب الخيل الكبير.
- كتاب الخيل الصغير.
- كتاب المجتنى (في شرح أحاديث المصطفى).
- كتاب الأمالي.
- كتاب الملاحن.
- كتاب المقتبس.
- كتاب المقصور والممدود.
- كتاب الوشاح (على حذو المحبّر لابن حبيب).
- كتاب الأنواء.
- كتاب السلاح.
- كتاب وصف المطر والسحاب وما نعتته العرب الرواد من البقاع.
- كتاب اللغات.
- كتاب غريب القرآن (لم يتمه).
- كتاب فعلت وأفعلت.
- كتاب أدب الكاتب.
- كتاب الأنباز.

---

(١) المزهر ٢: ٤٦٥.

(٢) وقيل إنه دفن بمقبرة العباسية من الجانب الشرقي في ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم (انظر مقدمة كتاب الملاحن لابن دريد)، تعليق إبراهيم طفيش، ص ك.

ـ كتاب المقتنى.

أشهر كتب ابن دريد على الإطلاق مقصورته والجمهرة. أمـا المقصورة التي مطلعها:

إمّـا تـري رأسيَ حـاكى لـونُـه   طُـرَّةَ صبحٍ تحت أذيـال الـدّجى

فهي من غرر القصائد ـ كما أسلفنا ـ ضمّنها الكثير من أخبار العرب وأمثالهم والحكم المفيدة. وقد عُني بها كثير من المتقدمين والمتأخرين، فشرحوها وتكلّموا على ألفاظها، وخمّسوها، وسمطوها، وعارضوها. وهي من كامل بحر الرجز، وهو مركب من مستفعلن ستّ مرات، وأعاريضه أربع، وأضربُه خمسة، وقد استغنى ابن دريد في مقصورته ـ كما قال السيوطي ـ ذكر الشرط وتاء الخطاب عن تقدم ذكر المخاطب لدلالة المذكور على المحذوف.

والجمهرة الذي أملاه في كور الأهواز لم يقصد فيه إلى الطعن على الخليل في العين، أو تصحيح بعض ما جاء فيه، فإنه أشاد بمؤلف العين في تقديم الجمهرة قال: «ولم أجر في إنشاء هذا الكتاب ـ الجمهرة ـ إلى الإزراء بعلمائنا، ولا الطعن في أسلافنا، وإنما على مثالهم نحتذي، وبسلبهم نقتدي، وعلى ما أصلوا نبني، وقد ألف أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي رضوان الله عليه كتاب العين، فأتعب من تصدى لغايته، وعنّى من سما إلى نهايته، فالمنصف له بالغلب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده له تبع».

فهو يختلف مع الخليل في كون الأخير يريد حصر ألفاظ العربية على جهة الاستقصاء ويضعها أمام الخاصة والعامة كمعين من العلم يغترف منه من شاء بحسب قدرته، ولكن ابن دريد وجد منهج الخليل يستعصي على العامة ولا يستطيع الانتفاع بمنهجه إلّا من أوتي حظاً من المعرفة والعلوم العربية، فقربه ابن دريد من أفهام الناس، وأجرى كتابه على ترتيب الأبجدية العادية إذا كان علم العامة بها كعلم الخاصة[1].

بدأ ابن دريد الجمهرة بالثنائي (بالهمزة والباء، ثم الهمزة والتاء) وهو ما جاء

(١) مصادر اللغة، د. عبد الحميد الشلقاني ص ٥٩٢.

على فَعْلٍ وفُعْلٍ وفِعْلٍ، ولما انتهى ترتيب الثنائي الصحيح المدغم بـدأ في أبواب الثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر، ثم عقد باباً للثنائي المعتل وما تفرع منه.

وفي أبواب الثلاثي بدأ بالباء ب ت ث / ب ت ج / إلخ ولم يبدأ بالهمزة، وبالتقاليب نفسها التي كانت في كتاب العين وعاد وعقد باباً من الثلاثي يجتمع فيه حرفان مثلان في موضع العين واللام أو العين والفاء أو الفاء واللام من الأسماء والمصادر وما تشعب منه. ثم جعل للمعتل أبواباً، فهذا ما كان عين الفعل منه أحد حروف اللين، ثم ما لحق الثلاثي الصحيح بحرف من حروف اللين.

ثم أتبع بعد ذلك بأبواب الرباعي الصحيح بدأه بباب البـاء والتاء مـع ما بعدها. ثم الرباعي الذي فيه حرفان مثلان (دردق ـ كركم ـ قرقف)..

ثم بعد هذه الأبواب وما تبعها لجأ إلى الصفات.

وفي آخر الجمهرة عقد أبواباً في النوادر تضمنت خصائص العربية وفرائدها.

وقد وصف أبو العباس إسماعيل بن عبدالله الميكالي طريقة وضع الجمهرة قال: «أملى عليّ أبو بكر الدريدي كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظاً في سنة سبع وتسعين ومائتين فما رأيته استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلاّ في باب الهمزة واللفيف[1]، فإنه طالع له بعض الكتب.

---

(١) أسماه ابن دريد لفيفاً لقصر أبوابه والتفاف بعضها على بعض.

الأزهري

٢٨٢ - ٣٧٠ هـ

محمد بن أحمد الأزهر بن طلحة بن نوح بن الأزهر بن نوح بن حاتم بن سعيد بن عبد الرحمن الأزهري، أبو منصور، اللغوي الشافعي المذهب الهروي. ولد سنة ٣٠٢[1]، وقيل سنة ٢٨٢ هـ في هراة بخراسان، ونسب إليها فقيل الهروي. أخذ عن أبي الفضل محمد بن أبي جعفر المنذري عن ثعلب وغيره فأكثر، وعن أبي محمد المزني عن أبي خليفة الجمحي، وعن أبي محمد عبدالله بن عبد الوهاب البغوي عن الربيع بن سليمان عن الشافعي، وعن عبدالله بن محمد بن هاجك، وأبي القاسم عبدالله بن محمد بن عبد العزيز البغوي.

ورد بغداد وأدرك ابن دريد فلم يروِ عنه. قال: ودخلت داره ببغداد مرة فألفيته على كبر سنه سكران لا يكاد يستمر لسانه على الكلام من سكره. وفي بغداد أخذ الأزهري عن أبي عبدالله إبراهيم بن عرفة نفطويه وعن ابن السراج، وفيها صنّف التهذيب في اللغة.

ذكر الأزهري عن نفسه، قال: وكنت امتحنتُ بالأسار سنة عارضتِ القرامطة الحاجّ بالهبير[2]، وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عرباً نشأوا بالبادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع، ويرجعون إلى إعداد المياه في محاضرهم زمن القيظ ويرعون النعم ويعيشون بألبانها ويتكلمون بطباعهم البدوية وقرائحهم التي اعتادوها، ولا يكاد يكون في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، فبقيت في أسارهم

(١) رواه الحاكم عن ابن الفرات في تاريخ السنين، وانظر الأعلام للزركلي ٦: ٢٠٢.

(٢) كانت سنة الهبير سنة ٣١١ هـ وقيل سنة ٣١٣ هـ.

دهراً طويلاً، وكنا نتشتى الدهناء ونتربع الصمّان ونتقيظ الستّارين، واستفدت من مخاطباتهم ومحاورة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمة ونوادر كثيرة أوقعت أكثرها في الكتاب وستراها في مواضعها إذا أنت قرأتها علينا إن شاء الله تعالى. وذكر في تضاعيف كتابه ـ التهذيب ـ أنه أقام بالصمّان شتوتين.

ورأى الأزهري ببغداد أبا إسحاق الزجاج وأبا بكر بن الأنباري ولم يذكر أنه أخذ عنهما شيئاً.

أخذ عن الأزهري أبو عبيد الهروي صاحب الغريبين، وكان أديباً فاضلاً، قال: سمعت الأزهري يقول في قوله تعالى: **﴿هو أهلُ التقوى وأهل المغفرة﴾**، المعنى أنه يؤنس باتقائه، لأنه يؤدي إلى الجنة، ويؤنس بمغفرته لأنه غفور، يقال، أَهَلْتُ بفلان آهل به: إذا أنست به، وهم أهلي وآهلتي، أي هم الذين آنس بهم.

روى عنه المبرّد أنه قال: النبع والشوْحَط والشرّيان شجرة واحدة، ولكنّها تختلف أسماؤها بحسب اختلاف أماكنها، فما كان منها في قُلّة الجبل فهو النّبع، وما كان في سفح الجبل فهو الشّريان، وما كان منها في الحضيض فهو الشّوحط.

توفي الأزهري في هراة كما ذكره أبو النصر عبد الرحمن بن عبد الجبار بن أبي سعيد الفامي في تاريخ هراة في سنة ٣٧٠ هـ ووافقه الحاكم أبو عبدالله الحسين بن محمد الكتبي الهروي في كتاب الوفيات وزاد في ربيع الآخر.

له من المؤلفات:

- كتاب التهذيب في اللغة.
- كتاب معرفة الصبح.
- كتاب التقريب في التفسير.
- كتاب تفسير ألفاظ كتاب المزني.
- كتاب علل القراءات.
- كتاب في الروح وما جاء فيه من القرآن والسنة.
- كتاب تفسير أسماء الله عزّ وجل.
- كتاب معاني شواهد غريب الحديث.
- كتاب الرد على الليث.

- كتاب تفسير شواهد غريب الحديث.
- كتاب تفسير إصلاح المنطق.
- كتاب تفسير السبع الطوال.
- كتاب تفسير شعر أبي تمام.
- كتاب الأدوات.

ذكر ابن الأنباري في نزهة الألباء[1] أن تهذيب اللغة هو أكبر كتاب صُنّف في اللغة وأحسنه وقد قدم الأزهري لكتابه بالتعريف بقدماء اللغويين ومؤلفاتهم التي انتهى علمه إليها، وكيفية وصولها إليه حتى سمعها شفاهاً من شيوخه، فكان تعريفه هذا مادة خصبة ومهمة كأهمية مادة تهذيبه. وقد كان عنوان هذا التعريف «باب ذكر الأئمة الذين اعتمادي عليهم فيما جمعت في هذا الكتاب» فأولهم أبو عمرو بن العلاء أخذ عنه البصريون والكوفيون من الأئمة الذين صنفوا الكتب في اللغات وعلم القرآن والقراءات، وكان من أعلم الناس بألفاظ العرب ونوادر كلامهم وفصيح أشعارهم وسائر أمثالهم.. وحدثني.. أنه قال: كان عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل.. وكان عيسى بن عمر أخذ عن ابن أبي إسحاق، وأخذ يونس عن أبي عمرو بن العلاء، ومن هذه الطبقة خلف الأحمر.. وكان الخليل بن أحمد ومن هذه الطبقة المفضل بن محمد الضبي الكوفي.

وكلامه عن هؤلاء الأئمة يطول، يقول في نهاية التعريف بهم: «ولو أني أودعت كتابي هذا ما حوته دفاتري من كتب غيري ووجدته في الصحف التي كتبها الوراقون، وأفسدها المصحفون، لطال كتابي ثم كنت أحد الجانين على لغة العرب ولسانها، ولقليل لا يخزي صاحبه خير من كثير يفضحه».

«ولم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلّا ما صحّ لي سماعاً منهم أو رواية عن ثقة أو حكاية عن خط ذي معرفة ثاقبة اقترنت إليها معرفتي اللهم إلّا حروفاً وجدتها لابن دريد وأبي المظفر في كتابيهما فبينت شكي فيها، وارتيابي بها، وستراها في مواقعها من الكتاب ووقوفي فيها».

---

(1) ص ٣٢٤.

ويتطرق إلى تسمية كتابه، يقول «وقد سميت كتابي هذا تهذيب اللغة لأني قصدت بما جمعت فيه من نفي ما أُدخل في لغات العرب من الألفاظ التي أزالها الأغبياء عن صيغتها، وغيرّها الغتمُ عن سننها، فهذّبت ما جمعت في كتابي من التصحيف والخطإ بقدر علمي، ولم أحرص على تطويل الكتاب بالحشو الذي لم أعرف أصله، والغريب الذي لم يسنده الثقات من العرب».

ولعل الملفت للنظر تحامله على الخليل في العين بالنيل من الليث، مع أنه في تهذيبه ينقل عن الليث، ويعتمد عليه أكثر من أي نحوي آخر، ثم إنه ينتقل إلى النيل من ابن دريد وجمهرته، يقول في مقدمته:

«وممن ألّف في عصرنا الكتب، فوسم بافتعال العربية، وتوليد الألفاظ التي ليس لها أصول وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامهم أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي صاحب كتاب الجمهرة، وكتاب اشتقاق الأسماء وكتاب الملاحن، وحضرته في داره ببغداد غير مرة فرأيته يروي عن أبي حاتم والرياشي وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي، فسألت إبراهيم بن محمد بن عرفه الملقب بنفطويه عنه فاستخف به ولم يوثقه في روايته».

فعلى نمط الأستاذ نفطويه سار تلميذه الأزهري في التحامل على الخليل وابن دريد، بل لقد تعدّى ذلك إلى النيل من أحمد بن محمد الخارزنجي البشتي مصنف التكملة (تكملة العين) وأبي الأزهر البخاري صاحب كتاب الحصائل (تحصيل ما أغفله كتاب العين للخليل بن أحمد).

ونتابع مع الأزهري في مقدمته لنسمع منه أسباب تصنيف تهذيبه، يقول: «ولقد دعاني إلى ما جمعت في هذا الكتاب من لغات العرب وألفاظها خلال ثلاث: منها تقييد نكت حفظتها ووعيتها من أفواه العرب الذين شاهدتهم وأقمت بين ظهرانيهم سنيات، إذ كان ما أثبته كثير من أئمة أهل اللغة في الكتب التي ألفوها والنوادر التي جمعوها لا ينوب مناب المشاهدة ولا يقوم مقام الدربة والعادة. ومنها النصيحة الواجبة على أهل العلم لجماعة المسلمين في إفادتهم ما لعلهم يحتاجون إليه، وقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال (ألا إن الدين النصيحة لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم).

والخلة الثالثة هي التي لها أكثر القصد، أني قرأت كتباً تصدى مؤلفوها لتحصيل لغات العرب فيها مثل كتاب العين المنسوب إلى الخليل، ثم كتب من احتذى حذوه في عصرنا هذا، وقد أخلَّ بها ما أنا ذاكره من دخلها وعوارها.. وألفيت طلاب هذا الشأن من أبناء زماننا لا يعرفون من آفات الكتب المصحفة المدخولة ما عرفته، ولا يميزون صحيحها من سقيمها كما ميزته، وكان من النصيحة التي التزمتها توخياً للمثوبة من الله عليها أن أنضح عن لغة العرب ولسانها العربي الذي نزل به الكتاب وجاءت به السنن والآثار»[1].

ولم يختلف ترتيب الأزهري ـ رغم تحامله عليه ـ عن ترتيب العين للخليل، ولم يستطع أن يتخلص من تبعيته له، على أنه حاول في تقديمه أن ينهج منهجاً آخر، ولكنه نقل مقدمة الخليل في ترتيب حرف المعجم بحسب مخارجها وأحيازها، كما تأثر بترتيب الأبواب كما هي في العين كأبواب المضاعف من حروف العين، وجاء بها مع الحاء والهاء والخاء، ثم أبواب الثلاثي الصحيح من حروف العين مرتبة على هذا النهج، ثم الثلاثي المعتل، واللفيف والرباعي والخماسي[2].

أنموذج من التهذيب:

ـ قال الليث في ن هـ ع.

نهع ينهع نهوعاً إذا تهوع للقيء ولم يقلس شيئاً.

قلت (والكلام للأزهري): هذا حرف مريب ولا أحقه[3].

ـ وقال الليث: الهيمع: الموت الوحيّ، قال: وذبحه ذبحاً هميعاً أي سريعاً.

قلت: هكذا قال الليث الهيمع بالعين والياء قبل الميم. وقال أبو عبيد سمعت الأصمعي يقول: الهميع: الموت، وأنشد للهذلي:

---

(١) تهذيب اللغة ج ١: ٥ ـ ٧.

(٢) انظر مصادر اللغة د. الشلقاني ص ٦٢٢.

(٣) تهذيب اللغة ١: ١٤٧.

من المربعين ومن آزل إذا جنّه الليل كالناحط

وقبله:

إذا وردوا مصرهم عوجلوا من المرت بالهميع الذاعط

هكذا رواه الرواة بكسر الهاء والياء بعد الميم.

قلت: وهو الصواب. قلت: والهيمع عند البصراء تصحيف[1].

أما في المَقلوب، فنسمع الأزهري يقول: ذكر الليث:

ـ العيهرة من النساء التي لا تستقر نزقاً في مكان في غير عفّة.

ـ وقال الليث أيضاً: يقال هيعرت المرأة وتهيعرت إذا كانت لا تستقر في مكان.

قلت: كأنه عند الليث مقلوب من العيهرة لأنه جعل معناها واحداً[2].

وكان الأزهري في الأمثال يشير إليها ويتمم شرحه لها ويستطرد إليها لتأخذ مكانها كالشواهد. ففي مادة ع ق، يقول: «ومن أمثال العرب السائرة في الرجل يسأل ما لا يكون، مما لا يقدر عليه: كلفتني الأبلق العقوق، ومثله: كلفتني بيض الأنوق.

والأبلق ذكر والعقوق الحامل، ولا يحمل الذكر، وأنشد اللحياني:

طلب الأبلق العقوق فلمّا لم يجده أراد الأنوق[3]

وفي ع ج يقول: «قال أبو العباس، قال ابن الأعرابي: الجعجع صوت الرحى، ومنه مثل العرب: جعجعة ولا أرى طحناً.

وفي ع س يقول: من أمثالهم في الحث على الكسب قولهم: كلب عس خير من كلب ربض، وبعضهم يقول: كلب عاس خير من كلب رابض.

ومن أمثالهم: عم ثوباء الناعس، يضرب للحدَث ببلدة ثم يتعداه إلى سائر البلدان، وأصله أن الناعس يتثاءب في المجلس فيعدي ثؤباؤه أهل مجلسه.

---

(١) تهذيب اللغة ١: ١٤٩.

(٢) تهذيب اللغة ١: ١٤٠.

(٣) تهذيب اللغة ١: ٦٩.

ابن فارس

٣٢٩ ـ ٣٩٥ هـ

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء بن حبيب الرازي، والرواة يختلفون في نسبه وموطنه. ففي اسمه زعم ابن الجوزي ـ على ما ذكره ياقوت ـ أن اسمه أحمد بن زكريا بن فارس، لكن ياقوتاً يذهب، إلى أن قوله «لا يعاج به» فقد ذكر ابن فارس نفسه اسم والده في مقدمة «المقاييس» وكذلك في خاتمة «الصاحبي» فقال: فارس بن زكريا، وهو نص صحيح يُبعد ما زعمه ابن الجوزي في كتابه المنتظم. أما موطنه فقد ذكر القفطي قال: «واختلفوا في وطنه، فقيل كان من قزوين، ولا يصح ذلك، وإنما قالوه لأنه كان يتكلم بكلام القزاونة، وقيل: كان من رستاق الزهراء من القرية المدعوة كرسف جياناباذ». وقال ياقوت: «وجدت على نسخة قديمة لكتاب المجمل من تصنيف ابن فارس ما صورته: تأليف الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الزهراوي الأستاذ خرزي. واختلفوا في وطنه، فقيل كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة بكرسفة وجياناباذ. وقد حضرت القريتين مراراً. ولا خلاف في أنه قروي. حدثني والدي محمد بن أحمد، وكان من جملة حاضري مجالسه، قال: أتاه آت فسأله عن وطنه، فقال: كرسف. قال: فتمثل الشيخ:

بلاد بها شُدّت عليّ تمائمي وأول أرض مسّ جلدي ترابها

وكتبه مجمع بن محمد بن أحمد بخطه، في شهر ربيع الأول سنة ست وأربعين وأربعمائة». قال ياقوت: «وكان في آخر هذا الكتاب ما صورته أيضاً: «قضى الشيخ أبو الحسين أحمد بن فارس رحمه الله في صفر سنة خمس وتسعين

وثلاثمائة بالريّ، ودفن بها مقابل مشهد قاضي القضاة أبي الحسن علي بن عبد العزيز يعني الجرجاني».

وروى القفطي أيضاً أن «أصله من همذان ورحل إلى قزوين إلى أبي الحسين إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن سلمة بن فخر، فأقام هناك مدة، ورحل إلى زنجان إلى أبي بكر أحمد بن الحسن بن الخطيب راوية ثعلب، ورحل إلى ميانج».

ويروي ياقوت أيضاً عن يحيى بن منده الأصفهاني، قال: «سمعت عمي عبد الرحمن بن محمد العبدي يقول: سمعت أبا الحسين أحمد بن زكريا بن فارس النحوي يقول: دخلت بغداد طالباً للحديث، فحضرت مجلس بعض أصحاب الحديث وليست معي قارورة، فرأيت شاباً عليه سمة من جمال، فاستأذنته في كتب الحديث من قارورته، فقال: «من انبسط إلى الإخوان بالاستئذان فقد استحق الحرمان».

من هذه الرواية نعلم أن ابن فارس تنقل في عدد من البلاد ساعياً لتحصيل العلم، وبذلك كثرت أنسابه لكثرة انتقاله وإقامته في كل بلد من هذه البلاد.

قضى ابن فارس الشطر الكبير من حياته في همذان، يقول ابن خلكان: «وكان مقيماً بهمذان». ويذكر الثعالبي[1] في ترجمته: «أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المقيم بهمذان، من أعيان العلم وأفذاذ الدهر. يجمع إتقان العلماء، وظرف الكتاب والشعراء، وهو بالجبل كابن لنكك بالعراق، وابن خالويه بالشام، وابن العلاف بفارس، وأبي بكر الخوارزمي بخراسان».

وفي همذان تلمذَ له في أثناء إقامته الطويلة فيها الأديب المعروف بديع الزمان الهمذاني. قال الثعالبي في ترجمة بديع الزمان: «وقد درس على أبي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ما عنده، واستنفد علمه، واستنزف بحره».

بعد أن ذاع صيت ابن فارس في همذان وشهر، استُدعي إلى بلاط آل بويه بمدينة الريّ ليقرأ عليه أبو طالب بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة الحسن بن بويه الدَّيلمي. وفي الري التقى بالصاحب إسماعيل بن عباد، وكان قبل لقائه به

---

(١) يتيمة الدهر ٣: ٢١٤.

قد أنفذ إليه من همذان كتاباً من تأليفه هو «كتاب الحجر»[1]. واصطفاه الصاحب بعد ذلك وأخذ عنه الأدب، واعترف له بالأستاذية والفضل، وكان يقول فيه: «شيخنا أبو الحسين ممن رزق حسن التصنيف، وأمن فيه من التصحيف».

شيوخ ابن فارس:

أخذ ابن فارس عن أبيه الفقه الشافعي، فقد كان والده فقيهاً شافعياً لغوياً، وروى عنه في كتبه. قال ابن فارس: «سمعت أبي يقول: سمعت محمد بن عبد الواحد يقول...»، كما ذكر في مقدمة مقاييس اللغة نصاً على أنه روى كتاب المنطق لابن السكيت عن أبيه فارس بن زكريا.

ومن شيوخه أيضاً أبو بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب، وهذا ما يفسّر لنا أن ابن فارس كان نحوياً على الطريقة الكوفية. ومن شيوخه كذلك أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان، وقد أكثر ابن فارس من الرواية عنه في «الصاحبي»، ونص في مقدمة المقاييس أنه قرأ عليه كتاب العين. ثم كان من شيوخه أبو الحسن علي بن عبد العزيز صاحب أبي عبيد القاسم بن سلام، وقد روى عنه كتابي أبي عبيد غريب الحديث ومصنف الغريب. ثم أبو بكر محمد بن أحمد الأصفهاني، وعلي بن أحمد الساوي، وأبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. وكان ابن فارس معجباً بشيخه أبي عبدالله أحمد بن طاهر المنجم، وفيه يقول: «ما رأيت مثل أبي عبدالله بن طاهر، ولا أرى هو مثل نفسه»[2].

تلاميذه:

كان من أشهر تلاميذ ابن فارس بديع الزمان الهمذاني، وأبو طالب بن فخر الدولة البويهي، والصاحب إسماعيل بن عباد، وعلي بن القاسم المقري، وقد قرأ عليه كتابه «أوجز السير لخير البشر»، والجدير بالذكر أن الكتاب يُفهم من أن ابن فارس أقام في الموصل زمناً وقرأ عليه المقري الكتاب[3].

---

(١) ذكر ياقوت في معجمه «كان الصاحب منحرفاً عن أبي الحسين بن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم، فأنفذ إليه من همذان كتاب الحجر من تأليفه، فقال الصاحب: رد الحجر من حيث جاءك. ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلة.

(٢) راجع نزهة الألباء، ترجمة ابن فارس.

(٣) راجع مقدمة مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون ص ٨ من الجزء الأول.

وفاته:

اتفق معظم المؤرخين على أن وفاة ابن فارس كانت في مدينة الـريّ (أو المحمدية) وهي محلة بالري، وأنه دفن بها مقابل مشهد قاضي القضاة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني. أما عن تاريخ وفاته فهنـاك بعض الاختلاف في تحديد سنة الوفاة. فقد نقل ياقوت الحموي عن الحميدي أنه توفي سنة ٣٦٠ هـ، وذكر ابن الجوزي في كتابه المنتظم، أنه توفي سنة ٣٦٩، ثم عدّه ابن الأثير في تاريخه في وفيات سنة ٣٦٩ هـ. أما ابن خلكان ففي ترجمته ذكر أنه توفي سنة ٣٧٥ بالمحمدية، وقيل إنه توفي سنة ٣٩٠ هـ. على أنّ أصـح الأقوال ما ذكره القفطي في إبناه الرواة، والسيوطي في بغية الوعاة عن الذهبي، قال: «وهو أصح ما قيل في وفاته»، وهو أن وفاته كانت سنة ٣٩٥ هـ. وهو ما أثبته ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة، واستظهره ياقوت، إذ وجد هذا التاريخ على نسخة قديمة من كتاب المجمل كما أسلفنا.

مؤلفاته:

حفظ التاريخ لابن فارس مؤلفات عديدة أخذت من كل فن بنصيب وافر. وهي:

ـ الإتباع والمزاوجة. في اللغة، قال عنه السيوطي[1]: «وقد ألّف ابن فارس المذكور تأليفاً مستقلاً في هذا النوع، وقد رأيته مرتباً على حروف المعجم، وفاته أكثر مما ذكره، وقد اختصرت تأليفه وزدت عليه ما فاته في تأليف لطيف سمّيته: الإلماع في الإتباع.

ـ كتاب اختلاف النحويين. ذكره السيوطي وحاجي خلـيفة باسم «اختلاف النحاة»، وذكره ياقوت باسم «كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين».

ـ أخلاق النبي ﷺ.

ـ كتاب أصول الفقه.

ـ كتاب الإفراد.

ـ كتاب الأمالي. ذكره ياقوت في معجم البلدان (أوطاس) ونقل عنه.

---

(١) المزهر ١: ٤١٤.

ـ كتاب أمثلة الأسجاع. ذكر ابن فارس في نهاية كتابه «الإتباع والمزاوجة» قال: «وسترى ما جاء من كلامهم في الأمثال وما أشبه الأمثال من حكمهم على السجع، في كتاب أمثلة الأسجاع إن شاء الله تعالى».

ـ كتاب الانتصار لثعلب.

ـ كتاب التاج[1].

ـ كتاب تفسير أسماء النبي ﷺ. في الاشتقاق اللغوي.

ـ كتاب تمام فصيح الكلام. جعله ذيلاً لفصيح ثعلب.

ـ كتاب الثلاثة.

ـ كتاب جامع التأويل. في تفسير القرآن.

ـ كتاب الحجر. أشار إليه في كتابه «الصاحبي». وهوَ الذي أنفذه إلى الصاحب بن عباد.

ـ كتاب حلية الفقهاء.

ـ كتاب الحماسة المحدثة.

ـ كتاب خُضارة[2]. ذكره ابن فارس في كتابه «الصاحبي»، وهو كتاب نعت الشعر.

ـ كتاب خلق الإنسان. في أسماء أعضائه وصفاته.

ـ كتاب دارات العرب. قال عنه ياقوت[3]: «ولم أر أحداً من الأئمة القدماء زاد على العشرين دارة إلاّ ما كان من أبي الحسين بن فارس، فإنه أفرد له كتاباً فذكر نحو الأربعين...».

ـ كتاب ذخائر الكلمات.

ـ كتاب ذم الخطإ في الشعر.

ـ كتاب ذم الغيبة.

ـ سيرة النبي ﷺ، ولعله المعروف باسم «رائع الدرر ورائق الزهر في أخبار سيد البشر»، ولعله أيضاً «أخلاق النبي»، وعرف أيضاً باسم «أوجز السير لخير البشر».

---

(١) ذكره ابن خير الإشبيلي في فهرست ما رواه عن شيوخه ص ٣٧٣.

(٢) علم جنس للبحر.

(٣) معجم البلدان ٤: ١٤.

- شرح رسالة الزهري[1] إلى عبد الملك بن مروان.
- شرح الشيات والحلي.
- كتاب «الصاحبي» وهو الاسم الذي شهر به كتابه فقه اللغة، صنّفه للصاحب بن عباد، يقول في أوله: «هذا الكتاب الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها، وإنما عنونته بهذا الاسم لأني لما ألفته أودعته خزانة الصاحب».
- كتاب العم والخال.
- كتاب غريب إعراب القرآن.
- كتاب فتيا فقيه العرب. يحث فيه الفقهاء على معرفة اللغة، ويلقي عليهم مسائل فيخجلهم بها ليكون داعياً إلى حفظ اللغة.
- كتاب الفرق. ذكره في نهاية تمام الفصيح، قال: «فأما الفرق فقد كنت ألفت على اختصاري له كتاباً جامعاً، وقد شهر، وبالله التوفيق».
- كتاب الفريدة والخريدة.
- كتاب قصص النهار وسمر الليل.
- كتاب كفاية المتعلمين في اختلاف النحويين، ولعله كتاب «اختلاف النحويين».
- كتاب اللامات.
- كتاب الليل والنهار، لعله «قصص النهار وسمر الليل».
- كتاب مأخذ العلم.
- كتاب متخيّر الألفاظ.
- كتاب المجمل. وهو من كتبه المشهورة.
- كتاب مختصر في المؤنث والمذكر.
- مقالة كلّا وما جاء منها في كتاب الله، ذكرها ابن فارس في الصاحبي، قال: «وقد ذكرنا وجوه كلّا في كتاب أفردناه».
- كتاب مقاييس اللغة (المقاييس).
- كتاب مقدمة الفرائض.

---

(١) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبد الله بن شهاب الزهري، أحد أعلام التابعين.

- كتاب مقدمة في النحو.
- كتاب النيروز.
- كتاب اليشكريات.

ولع ابن فارس باللغة ولوعاً شديداً، فقد ألّف فيها صنوفاً من التواليف، بحيث أنه حث فقهاء عصره على تعرف اللغة والتبحر فيها، فألف لهم كتاب «فتيا فقيه العرب»، وقد ذكر المؤرخون لابن فارس أن الحريري في مقامته الثانية والثلاثين «الطيبية» قد اقتبس من ابن فارس أسلوبه في وضع المسائل الفقهية في معرض اللغة.

ولعلّ ابن فارس من أوائل من استعمل الشعر في تقييد مسائل اللغة العربية. قال ياقوت: «قرأت بخط الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الرحيم السُلمي: وجدت بخط ابن فارس على وجه المجمل، والأبيات له، ثم قرأتها على سعد الخير الأنصاري، وأخبرني أنه سمعها من ابن شيخه أبي زكريا عن سليمان بن أيوب، عن ابن فارس:

يا دار سُعدى بذات الضال من أضمٍ   سقاك صوبُ حياً من واكف العينِ

العين: سحاب ينشأ من قبل القبلة.

تُدنى معشّقة منّا معتّقة   في كل إصباح يومٍ قرةُ العين

العين هنا: عين الإنسان وغيره.

إذا تمزّزها شيخ به طرق   سرت بقوتها في الساق والعينِ

العين ها هنا: عين الركبة. والطرق: ضعف الركبتين.

والزقُّ ملآن من ماء السرور فلا   تخشى تولُّه ما فيه من العينِ

العين ها هنا: ثقب يكون في المزادة. وتولّه الماء: أن يتسرّب.

وغاب عذّالنا عنّا فلا كدرٌ   في عيشنا من رقيب السوء والعينِ

العين ها هنا: الرقيب.

يقسّم الودّ فيما بيننا قِسَماً   ميزان صدقٍ بلا بخسٍ ولا عينِ

العين ها هنا: العين في الميزان.

وفائض المال يغنينا بحاضرة   فنكتفي من ثقيل الدين بالعينِ

العين ها هنا: المال الناض.

اشتهر ابن فارس إذاً باللغة، وكتابه «المجمل» لا يقل أهمية عن كتاب العين للخليل والجمهرة لابن دريد والصحاح للجوهري. وقد عُرف بالتزامه إيراد الصحيح من اللغات. قال السيوطي في المزهر[1] بعد ذكر عدد من كتب اللغة المعروفة: «وغالب هذه الكتب لم يلتزم فيها مؤلفوها الصحيح، بل جمعوا فيها ما صحّ وغيره، وينبهون على ما لم يثبت غالباً. وأول من التزم الصحيح مقتصراً عليه الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ولهذا سمى كتابه «الصحاح» ثم قال: «وكان في عصر صاحب الصحاح ابن فارس، فالتزم أن يذكر في مجمله الصحيح، قال في أوله: قد ذكرنا الواضح من كلام العرب والصحيح منه دون الوحشي والمستنكر. وقال في آخر المجمل: قد توخيت فيه الاختصار، وآثرت فيه الإيجاز، واقتصرت على ما صحّ عندي سماعاً، ومن كتاب صحيح النسب مشهور، ولولا توخّي ما لم أشكك فيه من كلام العرب لوجْدت مقالاً».

ابن فارس واللغة:

حرص ابن فارس في المقاييس على إيراد الصحيح من اللغات، فقد كان صادق التحرّي، متحرّجاً من إثبات ما لم يصحّ، وهو إلى جانب اعتماده على ابن دريد، فإنه كان ينقد بعض ما جاء في «جمهرته» من اللغات، فيمتحنه ويستوثقه، فإذا فيه الزيف والريب[2].

وقد انفرد ابن فارس في المقاييس بهذا التأليف، بحيث لم يسبقه أحد إليه، فقد بلغ فيه الغاية من سبرِ كنه أسرار اللغة وفهم أصولها، إذ كان يردُّ مفردات كل مادة من مواد اللغة إلى أصولها المعنوية المشتركة، وكان ابن دريد من قبل قد فعل ذلك في كتابه «الاشتقاق» بحيث رد أسماء القبائل وعمائرها وأفخاذها وبطونها.. إلى أصول لغوية اشتقت منها هذه الأسماء، وعلى هذا الأساس سار ابن فارس في مقاييسه على قاعدة الاشتقاق فيما صحّ لديه من كلام العرب[3].

---

(١) ١: ٩٧.

(٢) انظر مقاييس اللغة (جعم ٤٦١ س ١٠ ـ ١١ وجلز س ١ ـ ٢).

(٣) مقدمة مقاييس اللغة لابن فارس، ص ٢٤، بتحقيق عبد السلام هارون.

ابن فارس في المجمل والمقاييس.

اتبع ابن فارس طريقة فريدة في صنع معجميه اللغويين المجمل والمقاييس، فهو لم يعتمد الترتيب المعروف على أوائل الحروف وتقليباتها كما صنع ابن دريد في الجمهرة، ولم يأت على أبواب أواخر الكلمات كما ابتكرها الجوهري في الصحاح أو ابن منظور في اللسان والفيروزابادي في المحيط، وكذلك لم يجعلها على أوائل الحروف كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة والفيومي في المصباح المنير، بل عمد ابن فارس إلى طريق جدّ خاص به، لم يطرقه أحد من قبله أو فطن إليه أحد من الذين صنفوا في المعاجم اللغوية. ففي معجميه هذين نراه يتبع الأسلوب التالي:

- يقسّم مواد اللغة إلى كتب بادىء ذي بدء، بادئاً بكتاب الهمزة منتهياً بكتاب الياء. ثم يقسم كل كتاب إلى ثلاثة أبواب: باب الثنائي في المضاعف والمطابق، وباب الثلاثي الأصول من المواد، والثالث باب ما جاء على أكثر من ثلاثة أحرف أصلية.

وقد التزم ابن فارس في القسمين الأوّلين ترتيباً خاصّاً، وهو ألاّ يبدأ بعد الحرف الأول إلاّ بالذي يليه، ولذا جاء باب المضاعف في كتاب الهمزة، وباب الثلاثي مما أوله همزة وجاء مرتباً ترتيباً عادياً على نسق حروف الهجاء.

يقول ابن فارس في مقدمة مقاييس اللغة: «إنّ للغة العرب مقاييس صحيحة، وأصولاً تتفرّع منها فروع. وقد ألّف الناس في جوامع اللغة ما ألّفوا، ولم يُعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس، ولا أصل من الأصول. والذي أومأنا إليه باب من العلم جليل، وله خطر عظيم. وقد صدّرنا كل فصل بأصله الذي يتفرع منه مسائله، حتى تكون الجملة الموجزة شاملة للتفصيل، ويكون المجيب عما يُسأل عنه مجيباً عن الباب المبسوط بأوجز لفظٍ وأقربه».

وابن فارس يعني بكلمة المقاييس ما سمّاه اللغويون الاشتقاق الكبير الذي يرجع مفردات كل مادة إلى معنى أو معانٍ تشترك فيها هذه المفردات. قال في الصاحبي[1]: «أجمع أهل اللغة، إلاّ من شذّ منهم، أن للغة العرب قياساً، وأن

---

(١) ص ٣٣.

العرب تشتق بعـض الكلام من بعض، وأن اسم الجن مشتق من الاجتنان». وهو لا يعتمد اطراد القياس في جميع مواد اللغة، بل ينبه على الكثير من المواد التي لا يطرد فيها القياس، ويذهب إلى أن الكلمات الدالة على الأصوات وكثيراً من أسماء البلدان ليس مما يجري عليه القياس.

الجوهري

ـ نحو ٣٩٦ هـ

إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر الفارابي، ابن أخت أبي إسحاق الفارابي صاحب ديوان الأدب، وكان الجوهري من أعاجيب الزمان ذكاء وفطنة وعلماً. أصله من بلاد الترك من فاراب. وهو إمام في علم اللغة والأدب، وخطه يضرب به المثل في الجودة، ولا يكاد يفرق بينه وبين خط ابن مقلة، وهو مع ذلك من فرسان الكلام في الأصول، وكان يؤثر السفر على الحضر، ويطوف الآفاق واستوطن الغربة على ساق.

دخل العراق فقرأ علم العربية على شيخي زمانه أبي علي الفارسي وأبي سعيد السيرافي، وسافر إلى أرض الحجاز وشافه باللغة العرب العاربة، وقد ذكر ذلك في مقدمة «الصحاح». وطوّف بلاد ربيعة ومضر وأجهد نفسه في الطلب، ولما قضى وطره من الطواف عاد راجعاً إلى خراسان وتطرق الدامغان، فأنزله أبو علي الحسين بن علي، وهو من أعيان الكتّاب وأفراد الفضلاء عنده، وأخذ عنه وسمع منه ثم سرحه إلى نيسابور، فلم يزل مقيماً بها على التدريس والتأليف وتعظيم الخط وكتابة المصاحف والدفاتر حتى مضى سبيله عن آثار جميلة[1].

ذكره أبو الحسين الباخرزي فقال: هو صاحب الصحاح (صحاح اللغة) لم يتأخر فيها عن شرط أقرانه ولا انحدر عن درجة أبناء زمانه. أنشدني الأديب يعقوب بن أحمد قال: أنشدني الشيخ أبو إسحاق بن صالح الوراق تلميذ الجوهري رحمه الله له:

يا ضائع العمر بالأماني   أما ترى رونق الزمان

(١) إرشاد الأريب ٢٣ ص ٢٦٧.

فقم بنـا يـا أخـا المـلاهي	نخـرج إلى نهـر نشـتقـان
لـعـلنـا نـجـتـني سـروراً	حيث جـنى الـجنـتيـن داني
كـأنـنـا والقـصـور فيـهـا	بخـافتي كـوثـر الجـنـان
الـطير فـوق الغصون تحكي	بحسن أصـواتهـا الأغـاني

وذكره أبو الحسن علي بن فضال المجاشعي في كتابه «شجرة الذهب في معرفة أئمة الأدب» فقال: كان الجوهري قد صنف كتاب الصحاح للأستاذ أبي منصور عبدالرحيم بن محمد البيشكي، وسمعه منه إلى بـاب الضاد المعجمـة، واعترى الجوهري وسوسة فانتقل إلى الجامع القديم بنيسابور، فصعد إلى سطحه وقال: أيها الناس إني عملت في الدنيا شيئاً لم أسبق، فسأعمل للآخرة أمراً لم أسبق إليه، وضمّ إلى جنبيه مصراعي باب وتأبطهما بحبل وصعد مكاناً عالياً من الجامع وزعم أنه يطير فوقع فمات، وبقي بقيـة الكتاب مسـودة غير منقحـة ولا مبيضة، فبيّضه أبو إسحاق إبراهيم بن صالح الوراق تلميذ الجوهري بعد مـوته، فغلط فيه في عدة مواضع غلطاً فاحشاً.

وروى المجـاشعي أيضاً قـال: وكنت بحلب في سنة ٦١١ هـ في منـزل القـاضي الأكرم والصـاحب الأعـظم أبي الحسن علي بن يـوسف بن إبـراهيم الشيباني، فتجارينا أمر الجوهري وما وفق له من حسن التصنيف، ثم قلت له: ومن العجب أني بحثت عن مولده ووفـاته بحثاً شافيـاً، وسألت عنهمـا الواردين من نيسابور فلم أجد مخبراً عن ذلك. فقال لي: فقد كتبت قبلك عن ذلك فلم أرَ مخبراً عنه، فلما كان من غد ذلك اليوم جئته فقال لي: ألا أخبرك بظريفة، إنني رأيت في بارحتنا في النوم قائلاً يقول لي: مات إسماعيل بن حماد الجوهري في سنة ٣٨٦ هـ، ولعمري وإن كان المنام مما لا يقطع به ولا يعمل عليه، فهذا بلا شك زمانه وفيه كان أوانه، لأن شيخيه أبا علي وأبا سعيد ماتـا قبل هـذه المدة بسنين يسيرة. ثم وجدت نسخة بديوان الأدب بخط الجوهري بتبريز وقد كتبها في سنة ٣٨٣ هـ، ثم وقفت على نسخة بالصحاح بخط الجوهـري بدمشق عنـد الملك المعظم ابن العادل بن أيوب صاحب دمشق وقد كتبها في سنة ٣٩٦ هـ.

ونقل السيوطي عن ابن فضل الله في المسالك: «مات سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وقيل في حدود الأربعمائة».

مؤلفاته:

له من التصانيف:

- كتاب في العروض، جيد بالغ سماه عروض الورقة.
- كتاب الصحاح في اللغة.
- كتاب المقدمة في النحو.

وهذا الكتاب[1] الذي بأيدي الناس اليوم وعليه اعتمادهم أحسن تصنيفه، وجوّد تأليفه، وقرب متناوله وأثر من ترتيبه على من تقدمه يدل وضعه على قريحة سالمة، ونفس عالمة، فهو أحسن من الجمهرة وأوقع من تهذيب اللغة وأقرب متناولاً من مجمل اللغة، فيه يقول الشيخ إسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوري:

هذا كتاب الصحاح أحسن ما صنف قبل الصحاح في الأدب
يشمل أبوابه ويجمع ما فرق في غيره من الكتب

هذا مع تصحيف فيه في مواضع عدة أخذها عليه المحققون وتتبعها العالمون «ومن ما ساء قط، ومن له الحسنى فقط». فإنه رحمه الله غلط وأصاب، وأخطأ المرمى وأصاب، كسائر العلماء الذين تقدموه وتأخروا عنه، فإني لا أعلم كتاباً سلم إلى مؤلفه فيه، ولم يتبعه بالتتبع من يليه.

وذكر محمود بن أبي المعالي الحواري في «ضالة الأديب من الصحاح والتهذيب» بعد أن ذكر قصة الجوهري كما ذكرها المجاشعي، سواء من تصنيفه الكتاب للبيشكي وقراءة الناس عليه إلى باب الضاد، وشده مصراعي الباب وطيرانه، ثم قال: وسألت الإمام سعيد ابن الإمام أحمد بن محمد الميداني عن الخلل الواقع في هذا الكتاب، فقال مثل ما ذكرناه أن هذا الكتاب قرىء عليه إلى باب الضاد فحسب، وبقي أكثر الكتاب على سواده ولم يقدّر له تنقيحه ولا تهذيبه، فلهذا يقول في باب السين قيس أبو قبيلة من مضر واسمه إلياس بنقطتين تحتها، ثم يقول في فصل النون من هذا الباب الناس بالنون اسم قيس عيلان، فالأول سهو والثاني صحيح. ثم قال: ومن زعم أنه سمع عن الجوهري شيئاً من الكتاب زيادة على أول الكتاب إلى باب الضاد فهو مكذوب عليه، قال: ورأيت أنا نسخة السماع

(١) إرشاد الأريب ٢٣ ص ٢٦٨.

وعليها خطه إلى باب الضاد وهي الآن موجودة في بلادنا والله أعلم بحقيقته[1].
قال: والكتاب بخط مؤلفه عند أبي محمد إسماعيل بن محمد بن عبدوس النيسابوري، وفيه يقول: وذكر البيتين المتقدمين، قال: وقال الثعالبي في أثناء كتابه يعني يتيمة الدهر إن تلك النسخة بيعت بمائة دينار نيسابورية وحملت إلى جرجان والعلم عند الله في ذلك.

ذكر ياقوت عن أبي العوالي الحواري، قال: ووجدت على ظهر كتاب الصحاح وكانت مجلدة واحدة كاملة بخط الحسن بن يعقوب بن أحمد النيسابوري اللغوي الأديب ما صورته: قرأ عليّ هذا الكتاب من أول إلى آخره بما عليه من حواشيه من الفوائد معارضاً بنسختي مصححاً إياها صاحبه الفقيه الفاضل السديد الحسين بن مسعود الصرام بارك الله له فيه، وهو إجازة لي عن الأستاذ أبي منصور عبد الرحيم بن محمد البيشكي عن المصنف ـ أي الجوهري ـ وكتبه الحسن بن يعقوب بن أحمد في شهر الله الأصم سنة ٤٧١ هـ.

فهذا كما تراه مخالف لما تقدم من أن الجوهري لم يعمل من الكتاب إلّا إلى باب الضاد.

من الصحاح:

النخيس: البكرة يتسع ثقبها الذي يجري فيه المحور مما يأكله المحور، فيعمدون إلى خشيبة فيثقبون وسطها ثم يلقمونها ذلك الثقب المتسع، ويقال لتلك الخشيبة النخاس. وسألت أعرابياً بنجد من بني تميم وهو يستقي وبكرته نخيس، فوضعت أصبعي على النخاس فقلت: ما هذا، وأردت أن أتعرّف منه الخاء من الحاء، فقال: نخاس بخاء معجمة. فقلت: أليس قال الشاعر:

وبكرة نحاسها نحاس

فقال: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

● وفي باب بقّم. وقلت لأبي علي الفارسي: أعربي هو؟ فقال: معرب، قال: وليس في كلامهم اسم على فعَّل إلّا خمسة: خضّم بن عمرو بن تميم وبالفعل سمي، وبَقّم لهذا الصبغ، وشَلَّم موضع بالشام وهما أعجميان، وبَذَّر اسم

(١) إرشاد الأريب ن ٢ ص ٢٧١.

ماء من مياه العرب، وعَثَّر موضع، ويحتمل أن يكونا سميا بالفعل، فثبت أن فعَّل ليس من أصول أسمائهم وإنما يختص بالفِعْل، فإذا سميت به رجلاً لم ينصرف في المعرفة للتعريف ووزن الفعل وينصرف في النكرة.

الجوهري وصحاحه:

يعتبر الجوهري في صحاحه مبتكراً ومطوّراً في ترتيب المعاجم العربية، وهو مبدع من أعلام اللغة، أدرك بوعيه ما يقاسيه الباحث في معجم العين، وكذا في جمهرة ابن دريد التي أراد بها صاحبها أن يخفف عن قارئها فأثقل عليه ولم يوفق في مرماه، وكذلك الأزهري لم يغيّر كثيراً عن نهج من سبقه، فكانت مسألة اللغة عالقة بين هذه المعاجم، لا يتمكن القارىء بسبيل سهل إلى إدراك مبتغاه والوصول إلى ضالّته.

لهذا صبّ الجوهري جهده في وضع معجمه بحيث يتمكن المطلع من الوصول إلى ما يريد بما لا ينقص ولا يزيد، يقول في مقدمة الصحاح: «قد أودعت هذا الكتاب ما صحّ عندي من هذه اللغة التي شرف الله تعالى منزلتها وجعل علم الدين والدنيا منوطاً بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه في ثمانية وعشرين باباً، وكل باب منها ثمانية وعشرون فصلاً على عدد حروف المعجم وترتيبها، إلاّ أن يهمل من الأبواب جنس من الفصول بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتي بها العرب العاربة في ديارهم بالبادية..».

إذاً يفيد الجوهري من مقدمته هذه أنه قسم كتابه الصحاح إلى ثمانية وعشرين باباً بحسب أواخر الكلم، ثم نظر كرة ثانية إلى أوائل الكلم فجعل في كل باب فصوله، بعد أن يجرد المادة من حروف الزيادة في أولها وآخرها. فمثال المزيد: الأرنب، والأزيب، والأنبوبة، لأن الكلمة إذا كان في أولها ألف وبعدها ثلاثة أحرف فأكثر تكون زائدة لا تعد من الأصول، فيقال في أرنب وزنه أفعل، وفي أنبوبة أفعولة، فالحروف المقابلة للفاء والعين واللام هي الأصول، وتأسيساً على هذا الشرح فإنه يذكر هذه الألفاظ الثلاثة في فصل الراء والزاي والنون من باب الباء.

وكذلك ما بعد الحرف الأول رتبه على ترتيب حروف المعجم، فإذا قال:

باب الباء، بدأ فيه بفصل الألف، وجاء فيه بحروف الوسط على الترتيب حتى يصل إلى الألف التي تليها الواو، فيقدمها على ما تليها الهاء، وهكذا في كل فصل، يقدم فصل الواو من كل باب على فصل الهاء، ويؤخر الياء بخلاف الأبواب، فإنه قدم فيها باب الهاء قبل الواو ليجعلها مع الياء في باب واحد، فصارت الحروف التي بوّب لها سبعة وعشرين، إلاّ أنه لما كانت الألف على قسمين مهموزة وليّنة جعل الأولى في أول الأبواب، وعقد للثانية الليّنة غير المنقلبة عن ياء أو واو باباً أخيراً عقب باب الواو والياء الذي في ضمنه المنقلبة عن واو أو ياء فكملت الأبواب ثمانية وعشرين باباً.

وقد ورد غلط في الصحاح في مواضع كثيرة، فمنها قوله: الخِضمّ: المُسِنّ من الأبل، وإنما هو المِسَنّ، قال أبو وجْزة: على خِضمٍّ يُسقّى الماء عجّاجِ

أراد به المسنّ، لا المُسنّ من الإبل.

ومن أعجب ما فيه من التصحيف أنه صحّف فيه تصحيفاً مركباً، قال: الجرأضل: الجبل، فجعل الجرأضل كلمة واحدة بالجيم والضاد المعجمة، وإنّما هو الجرّ: أصل الجبل، كما قال الشاعر:

وقد قطعَتْ وادياً وجرّا

والجرّ أيضاً: حبل يشدّ من أداة الفَدان. والجرّ أيضاً. شيء يتخذ من سلاخة عرقوب البعير يجعل فيه الخلع يعلّق من مؤخّر العكم، فهو أبداً يتذبذب، وأنشد:

زوجُك يا ذات الثنايا الغرِّ والرّبلات والجبين الحُرِّ
أعيا فنطناه مناط الجرِّ ثم شددنا فوقه بمرِّ

والجرّ: أن ترعى الإبل وتسير، وكأنه مأخوذ من قولهم: جررت الحبل وغيره جرّاً.

وسبب هذا الغلط أن مؤلف الصحاح الجوهري مات قبل تبييضه، والذي بيّضه لم يقرأه عليه(1).

---

(1) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ٣٤٦.

ابن سيده

٣٩٨ - ٤٥٨ هـ

علي بن إسماعيل، وقيل ابن أحمد وقيل ابن محمد، ولكن ابن قاضي شهبة سمّاه «علي بن إسماعيل، وكذلك ابن بشكوال[1] جعله علي بن إسماعيل، أبو الحسن الضرير. ولد حوالى سنة ٣٩٨ هـ في مدينة شرقي قرطبة، وفي الصلة أنه من أهل مرسية من قرية منها تعرف ببني شيحانة على ثلث ميل من منتقودسي، وانتقل إلى دانية فتوفي بـها. كان ضريراً وكذلك كان أبـوه. وقال خليـل بن أيبك الصفدي[2]: أبو الحسن اللغوي الأندلسي المرسي الضرير. كان أبوه أيضاً ضريراً قال ياقوت: هكذا قال الحميدي: علي بـن أحمد. وفي كتاب ابن بشكوال (يعني الصلة): علي بن إسماعيل وفي كتاب القاضي صاعد الجيّاني: علي بـن محمد، وعلي بن إسماعيل.

تلقى العلم عن أبيه كما ذكر الصفدي، كان أبوه تلمذ للزبيدي، ثم أخذ عن أبي العلاء صاعد بـن حسن الربعي البغدادي الوافد على الأندلس، كما أخذ عن أبي عمر أحمـد بن محمد الطلمنكي الحافظ القارىء المفسر المحدث.

ذكر الوقشي عن أبي عمر الطلمنكي قال: دخلت مرسية فتشبّث بي أهلها ليسمعوا عليّ غريب المصنف. فقلت لهم: انظروا إلى من يقرأ لكم وأمسك أنا كتابي، فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيـده، فقرأه عليّ من أولـه إلى آخره، فعجبت من حفظه، وكان أعمى ابن أعمى[3].

(١) كتاب الصلة ص ٤١٧.

(٢) نكت الهميان ص ٢٠٤.

(٣) كتاب الصلة ص ٤١٨.

وذكره الحميدي في جذوة المقتبس قال: إمام في اللغة والعربية، حافظ لهما على أنه كان ضريراً قد جمع في ذلك جموعاً وله مع ذلك في الشعر حظ وتصرّف. ومات بعد خروجي من الأندلس قريباً من سنة ستين وأربعمائة.

كان ابن سيده إذاً ضريراً، ولكن الله عوضه عن فقدان البصر بنعمة البصيرة، فكان من أعلام الحفاظ وبلغ في العلم مرتبة رفيعة، قال عنه بعض من ترجم له: «لم يكن في زمانه أعلم منه في النحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها»[1]. وقال الصفدي[2]: «وكان مع توفّره على علوم العربية متوفراً على علوم الحكمة وألف فيها تواليف». وقال الحميدي في الجذوة: «كان ابن سيده منقطعاً إلى الأمير أبي الجيش مجاهد بن عبدالله العامري. ثم حدثت له نبوَة بعد وفاته في أيام إقبال الدولة ابن الموفق فهرب منه، ثم قال يستعطفه[3]:

ألا هل إلى تقبيل راحتك اليمنى ... سبيل فإنّ الأمن في ذاك واليُمنا

ضحيتُ فهل في برد ظلّك نومة ... لذي كبدٍ حرّى وذي مقلة وسنى

ونضْو همومٍ طلّحته ظُباته ... فلا غارباً أبقيْن منه ولا متنا

وهي طويلة، فوقع له الرضى عنه عند وصولها إليه، فرجع. وكان ابن سيده ثقة في اللغة وحجة.

وقال ابن سيده في المحكم عن نفسه: «إني أجد علم اللغة أقل بضائعي وأيسر صنائعي إذا أضفته إلى ما أنا به من علم حقيق النحو، وحوشي العروض وخفي القافية وتصوير الأشكال المنطقية والنظر في سائر العلوم الجدلية التي يمنعني من الإخبار بها نبوّ طباع أهل الوقت وما هم عليه من رداءة الأوضاع والمقت.

ويقول: «وأما ما في كتاب الإصلاح والألفاظ وكتب ابن الأعرابي وأبي زيد وأبي عبيدة والأصمعي وغيرهم من أمثال هذا الذي وضعت فأكثر من الذي يحصى مدده أو يحصر عدده، وهل يقوم باعتقاد هذا النوع إلّا مثلي من ذوي الحفظ

---

(١) بغية الوعاة ص ٣٢٧.

(٢) نكت الهميان ص ٢٠٤.

(٣) نكت الهميان ص ٢٠٥.

الجليل، والاضطلاع بعلم النحو وصناعة التحليل، وإن كنت بين حثالة جهلت فضلي وأساء الدهر في جمعهم بمثلي»[1].

وهكذا نجد ابن سيده معتدّاً بنفسه مسرفاً في ذكر علو شأنه وارتفاع مكانته، يلصق الجهل بمعاصريه من أئمة اللغة، ويعيب على الدهر جمعه بهم وجهلهم فضله. وهو في مقدمة المحكم يلتمس لنفسه العذر إذا هفا هفوة أو كبا كبوة، فله في المنفردين للغة أسوة، يقول: «وإذا كان المنفردون لكتابة اللغة وتكميشها واحتطابها وتقميشها كأبي عبيدة والأصمعي، قد غلطوا في بعض ما دوّنوا، فأنا أحرى بذلك، إذ هم جاوروا أهل البادية، وأطالوا احتلاب الإبل النابية» ثم يقول: «ولا أنكر في كل ذلك أن تختل قضية من خمسة آلاف، أو حرف من حروف عديدة أضعاف».

توفي ابن سيده بدانية سنة ٤٥٨ هـ، وكان يوم الجمعة صحيحاً سوياً إلى صلاة المغرب، فدخل المتوضأ وأُخرج منه وقد سقط لسانه وانقطع كلامه، وبقي على تلك الحالة إلى عصر يوم الأحد ثم قضى نحبه[2].

وقال القاضي صاعد بن أحمد: توفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وقد بلغ ستين سنة أو نحوها[3].

من تصانيفه:

- كتاب المحكم والمحيط الأعظم، في اللغة (١٨ جزءاً منه)، لا يقل عن المخصص إحاطة وشأناً.

- كتاب المخصص، مرتب على الأبواب كالغريب المصنف (١٧ مجلداً).
- كتاب شرح إصلاح المنطق لابن السكّيت.
- كتاب الأنيق في شرح الحماسة (٦ مجلدات).
- كتاب العالم في اللغة، على الأجناس (في غاية الاستيعاب).
- كتاب العالم والمتعلم (على المسألة والجواب).
- كتاب الوافي في علم أحكام القوافي.

(١) المحكم ١ : ٨.
(٢) نكت الهميان للصفدي ص ٢٠٥.
(٣) الصلة ص ٤١٨.

- كتاب شاذ اللغة.
- كتاب شرح كتاب الأخفش.
- كتاب شرح ما أُشكل من شعر المتنبي.
- كتاب في التذكير والتأنيث.

مخصص ابن سيده:

أتيح لابن سيده أن يسمع أمهات كتب اللغة وأعانته حافظته على استيعابها، ورأى أن يجمع تفاريق ما سمع ووعى في كتاب واحد، إذ ليس بين كتب المتقدمين ما يغني رغم احتوائها على غرر العربية وفوائدها، فنراه يذكر الدافع إلى تأليف كتابه يقول: «. . إلاّ أني وجدت ذلك نشراً غير ملتئم، ونثراً ليس بمنتظم، إذ كان لا كتاب نعلمه إلاّ وفيه من الفائدة ما ليس في صاحبه، ثم إني لم أرَ لهم فيها كتاباً مشتملاً على جلها فضلاً عن كلها»[1].

وهكذا وضع ابن سيده أمامه - سمعاً - كتب الأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد والنضر بن شميل، ووجد منه بمفرده، وما سمعه من مروياتهم في بطون الكتب من الطبقة التالية لهم من مثل أبي حاتم والرياشي والجرمي، وكان ابن السكّيت وأبو عبيدة القاسم بن سلام الجمحي قد جمعا علم البصرة إلى علم الكوفة فكانت هذه الحصيلة[2]. إلاّ أن ثروة ابن سيده لم تكن متوقفة على هذه الكتب التي ذكرنا، أو كتب الطبقة التي تلت، بل كان في المحكم أيضاً متكلاً عليها متوجهاً إليها، فكان في الكتابين يتجه اتجاهاً واحداً معتمداً فيهما على مصادر واحدة أثمرت ثمارها في الاثنين.

وهو في فائدة كل من المحكم والمخصص يقول: «لما وضعت كتابي الموسوم بالمحكم مجنساً لأدل الباحث على مظنة الكلمة المطلوبة، أردت أن أعدل به كتاباً أضعه مبوباً حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح المدره، والبليغ المفوّه، والخطيب المصقع، والشاعر المجيد المدقع، فإنه إذا كانت للمسمى أسماء كثيرة وللموصوف أسماء عديدة، تنقى الخطيب والشاعر منها ما شاءا واتسعا فيما يحتاجان إليه. .».

---

(١) مقدمة المخصص ص ٧.

(٢) انظر مصادر اللغة ص ٦٦٣.

إذاً على هذا الدرب سار في ترتيب المخصص، فرتبه بادئاً بخلق الإنسان، من بدء تكوينه، فحمله، فولادته، فإرضاعه، إلى نهاية موضوع خلقه، بحيث استوعب الموضوع الجزء الأول وجزءاً من الثاني.

وفيما يروي ابن سيده في سبب تأليف المخصص يقول: «فأمرني بالتجرد لهذه الإرادة.. فأعلقت وأفلقت، وألفت كتابي الملخص، الذي سميته المخصص، وهو على التبويب في نهاية التهذيب. ثم أمرني بالتأليف على حروف المعجم فصنفت كتابي الموسوم بـ «المحكم». وكان الذي أمره بذلك الأمير أبو الجيش مجاهد بن عبدالله العامري، بعد أن عاق الأمير عن التصنيف فيها ما نيط به من علائق السياسة وأعباء الرياسة. وصادف هذا الطلب قبولاً عند ابن سيده ورغبته في أن يجمع اللغة في نهريها بحسب الموضوعات كما في المخصص، وعلى سبيل الحصر كما أراد في المحكم.

ترتيب المحكم:

يعتبر ترتيب المحكم كترتيب الكتب التي بدأ بها الخليل بن أحمد وكذلك فعل القالي في البارع والأزهري في تهذيب اللغة والزبيدي في تاج العروس حين حاول اختصار العين، وابن سيده بالطبع وهو الذي تربطه بالقالي والزبيدي رابطة التلمذة. فقد طرح في المحكم ما تكرر من الشواهد، ولا يكاد يختلف عن هذا في شيء من الجوهر، وإنما هي وجهات النظر في ترتيب الحروف حسب المخارج وترتيب المواد طبقاً لها.

قسم ابن سيده المحكم إلى:

- الثنائي المضاعف الصحيح.
- الثلاثي الصحيح.
- الثنائي المضاعف المعتلّ.
- الثلاثي المعتل.
- الثلاثي اللفيف.
- الرباعي.
- الخماسي.

وكان ترتيبه مستمداً من ترتيب الزبيدي في مختصر العين، ثم زاد عليه باباً

أسماه السداسي أو (الملحق بالسداسي). يقول في خشع:

خشعَ بصره: انكسر، ولا يقال أخشعَ. قال ذو الرمّة:

تجلّى السّرى عن كل حزق كأنه ... صفيحة سيف طرفه غير خاشع

وقيل: الخشوع قريب من الخضوع، إلاّ أن الخضوع في البدن، وهو الإقرار بالاستخذاء والخشوع في الصوت والبصر كقوله تعالى: ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾[1] و﴿**وخشعت الأصوات للرحمن**﴾[2]، والتخشّع نحو التضرع، ويقول: الخاشع: الراكع في بعض اللغات[3].

الاختلاف في اللغة عند ابن سيده في المخصص:

تناول ابن سيده في المخصص مسألة الرد على أبي علي الفارسي الذي يقول إن اللغة من عند الله تعالى، وكان ابن جني من قبل قد تناول هذا الرأي، قال ابن سيده: «وقد اختلفوا في اللغة، أمتواطؤ عليها أم ملهم إليها، وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي ولا توفيق، إلاّ أن أبا علي الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن سليمان الفارسي النحوي قال: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾ وهذا ليس باحتجاج قاطع، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به»[4].

---

(١) سورة المعارج آية ٤٤.

(٢) سورة طه آية ١٠٨.

(٣) المحكم ١: ٦٩.

(٤) المخصص، المقدمة ٤.

الزمخشري

٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ

محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله، أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب. قال ابن أخته أبو عمر عامر بن الحسن السمسار: ولد خالي بزمخشر من أعمال خوارزم يوم الأربعاء السابع والعشرين من رجب سنة ٤٦٧ هـ، وأخذ الأدب عن أبي مضر محمود بن جرير الضبي الأصبهاني وأبي الحسن علي بن المظفر النيسابوري، وسمع من شيخ الإسلام أبي منصور نصر الحارثي ومن أبي سعد الشفاني. وأصابه خراج في رجله فقطعها واتخذ رجلاً من خشب. وقيل أصابه برد الثلج في بعض أسفاره بنواحي خوارزم فسقطت رجله. وروي أن الدامغاني المتكلم الفقيه سأله عن سبب قطع رجله فقال: دعاء الوالدة، وذلك أني أمسكت عصفوراً وأنا صبي صغير وربطت برجله خيطاً فأفلت من يدي ودخل خرقاً، فجذبته فانقطعت رجله، فتألّمت له والدتي وقالت: قطع الله رجلك كما قطعت، فلما رحلت إلى بخارى في طلب العلم سقطت عن الدابة في أثناء الطريق فانكسرت رجلي، وأصابني من الألم ما أوجب قطعها[١].

إذاً خرج محمود من زمخشر إلى بخارى طلباً للعلم، وتلمذ فيها على أخص أساتذته ابن جرير الضبي، ثم رحل إلى خراسان واتصل بالحياة العامة طلباً للمكانة فيها، وقد كانت حياة العلماء في تلك المجتمعات مرهونة بحماية الحكام وأولي الأمر، ولو أنه لم يظفر بمراده من ذوي السلطان، فرحل إلى أصبهان، ثم إلى بغداد قاصداً مكة للحج، وفي بغداد زاره الشريف أبو السعادات هبة الله بن

(١) إرشاد الأريب م ٧ ص ١٤٧.

الشجري مهنئاً له بقدومه، فلما جلس إليه أنشده متمثلاً[(١)]:

كانت مسائلة الركبان تخبرني عن أحمد بن داود أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأنشد أيضاً:

واستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر

ثم أخذ يثني عليه فلم ينطق الزمخشري حتى فرغ ابن الشجري من كلامه، فلما أتم كلامه شكر الشريف وعظمه وتصاغر له، ثم قال: إن زيد الخيل دخل على رسول الله ﷺ فلما بصر بالنبي ﷺ رفع صوته بالشهادتين، فقال له النبي ﷺ: يا زيد الخيل، كل رجل وصف لي وجدته دون الصفة إلّا أنت فإنك فوق ما وصفت. وكذلك سيدنا الشريف ثم دعا له وأثنى عليه. فتعجب الحاضرون من كلامهما، لأنّ الخبر كان أليقَ بالشريف، والشعر أليق بالزمخشري.

ومن بغداد بعد مناظرة العلماء والاستزادة من الرواية، قصد مكة للحج، وفيها جاور بالحرم الشريف مجاورته الأولى عامين، عاد بعدهما إلى خوارزم حيناً، ثم عاوده الحنين، إلى مكة، فاتخذ طريقه للعودة إليها ماراً بالشام، وجاور الحرم مجاورته الثانية لثلاث سنين، وبسبب هذه المجاورات اشتهر بلقب جار الله، وفي مكة ألّف كتابه الكشاف. وعاد أخيراً إلى خوارزم عن طريق بغداد حيث وافاه الأجل في مدينة جرجانية قصبة خوارزم سنة ٥٣٨ هـ[(٢)].

في تلك الرحلات لقي أمراء وذوي سلطان كانت له بهم صلات وله فيهم مدائح تردّد فيها بين تحمّل وترفع، عاهد الله بعدها على ألّا يطأ عتبة سلطان، ولاذ بجوار الله في بيته الحرام. وكان إلى ذلك قوي الاعتداد بنفسه، وهذا ما نلمحه من خلال إسرافه في التواضع في الرسالة التي بعث بها إلى حافظ الإسكندرية أبي الطاهر السلفي جواباً عن كتاب كتبه إليه يستجيره به[(٣)]، كما أنه يتوضح لنا هذا الاعتزاز في قوله مادحاً تفسيره الكشاف:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد وليس فيها لعمري مثل كشافي

---

(١) إرشاد الأريب م ٧ ص ١٤٧.

(٢) مجلة تراث الإنسانية م ٤ ص ٨٦.

(٣) انظر نص الرسالة في إرشاد الأريب م ٧ ص ١٥٠.

إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته   فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

يحكى أن بعض أهل الأدب أنكر عليه قوله: إنه ليس في كتاب سيبويه مسألة إلا وقد تضمّنها هذا الكتاب ـ يعني المفصّل في النحو ـ وذكر له مسألة من كتاب سيبويه، وقال: هذه ليست فيه، فقال: إنّها إن لم تكن فيه نصّاً فهي فيه ضمناً، وبيّن له ذلك[1]. ومدحه ابن دهاس السليماني فقيه مكة، فقال:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي   تبوّأها داراً فداء زمخشرا
وأحْرِ بأن تزهى زمخشرُ بامرئٍ   إذا عُدّ في أسد الشرى زمخَ الشرى

من شعره:

العلم للرحمن جلّ جلاله   وسواه في جهلاته يتغمغمُ
ما للتراب وللعلوم وإنما   يسعى ليعلم أنه لا يعلمُ

وقال أيضاً:

كثر الشك والخلاف وكلٌّ   يدعي الفوز بالصراط السوي
فاعتصامي بلا إله سواه   ثم حبي لأحمد وعلي
فاز كلب بحب أصحاب كهف   كيف أشقى بحب آل نبي

ومن كلامه في كتابه أطواق الذهب: استمسك بحبل مؤاخيك، ما استمسك بأواخيك، واصحبه ما صحب الحق وأذعن، وحلّ مع أهله وظعن، فإن تنكرت أنحاؤه، ورشحِ بالباطل إناؤه، فتعوّض عن صحبته وإن عوضت الشسع، وتصرف بحبله ولو أعطيت النسع، فصاحب الصدق أنفع من الترياق النافع، وقرين السوء أضرّ من السم الناقع.

مؤلفاته:

ذكر له ياقوت الحموي في إرشاد الأريب حوالى خمسين كتاباً، وهي في فنون شتى كالفقه وأصوله واللغة والنحو والأدب والتراجم والعقائد وغير ذلك[2].

ففي العقائد له:

ـ رسالة في كلمة الشهادة.

(١) نزهة الألباء لابن الأنباري ص ٣٩٢.

(٢) إرشاد الأريب م ٧ ص ١٥٠ / ١٥١.

وفي القرآن وعلومه:

- كتاب الكشاف في تفسير القرآن.
- كتاب إعراب غريب القرآن (نكت الأعراب في غريب الإعراب).

وفي الحديث له:

- كتاب الفائق في غريب الحديث (تفسير الحديث ولغته).
- كتاب مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة (مختصر موافقة الرازي).
- كتاب خصائص العشرة الكرام البررة.
- كتاب متشابه أسماء الرواة.

وفي اللغة:

- أساس البلاغة، وهو معجم يتميز عن غيره من المعاجم بتخير عبارات المبدعين واستعمالات المفلقين.

- كتاب مقدمة الأدب (ألفه لتعليم الفرس اللسان العربي وزوده بشروح باللغة الفارسية).
- كتاب جواهر اللغة.
- كتاب الأجناس.
- كتاب صميم العربية.

وفي النحو:

- كتاب الأنموذج (النموذج).
- كتاب المفصّل (له عليه شرح وحاشية).
- كتاب المفرد والمؤلف.
- كتاب محاجات ومتمم مهام أرباب الحاجات في الأحاجي والأغلوطات.
- كتاب الألغاز النحوية.
- شرح كتاب سيبويه.
- كتاب الأمالي في النحو.

وفي العروض له:

- كتاب القسطاس.

وفي الأدب:

- كتاب المستقصى في الأمثال.
- ربيع الأبرار فيما يسر الخواطر والأفكار.
- شرح لامية العرب للشنفرى.
- نزهة المستأنس (نزهة المؤتنس ونهزة المقتبس).

وفي الجغرافيا الأدبية:

- كتاب الأمكنة والجبال والمياه.

وله:

- كتاب نوابغ الكلم (الكلم النوابغ).
- أطواق الذهب، في المواعظ.
- مقامات (مجموعة من الرسائل الخلقية وتعرف باسم النصائح الكبار).
- شرح المقامات.
- ديوان خطب.

الزمخشري وأساس البلاغة:

اعتمد الزمخشري في أساس البلاغة نهجاً خرج به عن المسار الذي عرفناه في المعاجم التي سبقت معجمه، فهو لا يفسّر كلمة مكان كلمة، ولا كان هدفه حصر لغة العرب حصراً شمولياً ليعرّف بمفرداتها ومعانيها، ولكنه كان يتنقل في أنحاء البلاد التي رحل إليها فتسنح له الفرصة سماع الأعراب في البوادي والخطباء في النوادي، ويسمع من قراضبة نجد في أكلائها ومراتعها، ومن سماسرة تهامة في أسواقها ومجامعها، وما تراجزت به السقاة على أفواه قُلبها، وتساجعت به الرعاة على شفاه عُلبها، وما تقارضته قيس وتميم في ساعات المماتنة، وما تزاملت به سفراء ثقيف وهذيل في أيام المفاتنة، واستطاع أن يحصّل من بطون الكتب ومتون الدفاتر روائع وجوامع الكلم[1].

من هذه الكنوز اللغوية ومشافهة أصحابها وسماع أربابها استطاع الزمخشري أن يدرك أن اللفظة ومعناها ليسا الطريق للتعريف باللغة ولا يكشفان عن سر من أسرارها، وإنما يأتي التعريف بها وكشف سرّها من عملية تخيّر ما وقع في عبارات

---

(١) مقدمة أساس البلاغة للزمخشري.

المبدعين وانطوى تحت استعمالات المفلقين، أو ما جاز وقوعه فيها وانطواؤه تحتها من التراكيب التي تملح وتحسن. ولهذا صنف كتابه ووسمه بـ «أساس البلاغة» ليتجاوز به هدف مصنفي المعاجم الذين اقتصروا في عملهم على التعريف بالعربية في نطاق مفرداتها وتفسيرها كلمة مكان كلمة.

درج الزمخشري في معجمه مسلسلاً للكلمات بحسب أوائلها. وكانت طريقته في تصنيفه أن يبيّن للمطلع الأريب استعمال الكلمة في أساليب شتى مما جاء على ألسنة العرب وذلك بالاستكثار من نوابغ الكلم العادية إلى مراشد حر النطق. وكان هدفه من ذلك أن يؤسّس ركائز فصل الخطاب، والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة والكتابة عن التصريح[1].

فقد ابتدأ الزمخشري الأساس بباب الهمزة، مستهلاً بالهمزة مع الباء، فقال: أبب اطلب الأمر في إبانه وخذه بربانه أو أوله وأنشد ابن الأعرابي:

قد هزمتني قبل إبان الهرم   وهي إذا قلت كلي قالت نعم
صحيحة المعدة من كل سقم   لو أكلت فيلين لم تخش البشم

وأب للمسير إذا تهيّأ به وتجهّز، قال الأعشى:

صرمت ولم أصرمكم وكصارم   أخ قد طوى كشحاً وأب ليذهبا

وتقول: فلان راع له الحب، وطاع له الأب، أي زكا زرعه واتسع مرعاه.

ثم.. أبد.

لا أفعله أبد الآباد، وأبد الأبيد، وأبد الآبدين.

وتقول: رزقك الله عمراً طويل الآباد بعيد الآماد. وأبدّت الدواب وتأبّدت: توحّشت. وهي أوابد ومتأبدات، وفرس قيد الأوابد وهي نفر الوحوش، وقد تأبد المنزل: سكنته الأوابد، وتأبد فلان: توحّش، وطيور أوابد خلاف القواطع.

ومن المجاز فلان مولع بأوابد الكلام وهي غرائبه، وبأوابد الشعر وهي التي لا تُشاكل جودة، قال الفرزدق:

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم   وأوابدي بتنحّل الأشعار

---

(١) المقدمة.

وقال النابغة:

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها يهدي إليّ أوابد الأشعار

وجئنا بآبدة ما نعرفها.

يمتاز أساس البلاغة كما جاء على لسان الزمخشري نفسه[1]:

«ومن خصائص هذا الكتاب تخيّر ما وقع في عبارات المبدعين، وانطوى تحت استعمالات المفلقين، أو ما جاز وقوعه فيها، وانطواؤه تحتها، من التراكيب التي تملُح وتحسُن، ولا تنقبض عنها الألسن، لجريها رَسْلات على الأسلات، ومرورها عَذْبات على العذبات.

ومنها التوقيف على مناهج التركيب والتأليف وتعريف مدارج الترتيب والترصيف، بسَوْق الكلمات متناسقة لا مُرسلة بدداً، ومتناظمة لا طرائق قدداً، مع الاستكثار من نوابغ الكلم الهادية إلى مراشد حُر المنطق، الدالّة على ضالّة المنطق المفلق.

ومنها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح، بإفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح.

فمن حصّل هذه الخصائص وكان له حظ من الإعراب الذي هو ميزان أوضاع العربية ومقياسها، ومعيار حكمة الواضع وقسطاسها، وأصاب ذَرْواً من علم المعاني، وحظيَ برش من علم المباني، وكانت له قبل ذلك كله قريحة صحيحة، وسليقة سليمة، فحُل نثره، وجزُل شعره، ولم يطل عليه أن يناهز المقدّمين، ويخاطر المقرَمين.

وقد رُتّب الكتاب على أشهر ترتيب مُتداولاً، وأسهلهُ مُتناولاً، يهجم فيه الطالبُ على طلَبته موضوعة على طرف الثمام وحبل الذراع، من غير أن يحتاج في التنقير عنها إلى الإيجاف والإيضاع، وإلى النظر فيما لا يوصل إلاّ بإعمال الفكر إليه، وفيما دقّق النظر فيه الخليل وسيبويه، والله سبحانه وتعالى الموفق لإفادة أفاضل المسلمين، ولما يتصل برضا رب العالمين».

---

(١) مقدمة أساس البلاغة ص ٨.

الصاغاني

٥٧٧ ـ ٦٥٠ هـ

الحسن بن محمد بن حيدر بن علي العدوي الصاغاني[١]، رضي الدين أبو الفضائل القرشي. المحدث الفقيه الحنفي اللغوي النحوي. ولد في لاهور بالهند سنة ٥٧٧ هـ، ونشأ بغزنة من بلاد السند. قال ياقوت[٢]: قدم العراق وحجّ، ثم دخل اليمن ونفق له بها سوق وكان وروده إلى عدن سنة ٦١٠ هـ. وكان يقرأ عليه بعدن «معالم السنن» للخطابي، وكان معجباً به وبكلام مصنفه. ويقول: إن الخطابي جمع لهذا الكتاب جراميزه[٣]. وقال لأصحابه: احفظوا غريب أبي عبيد القاسم بن سلام، فمن حفظه ملك ألف دينار، فإني حفظته فملكتها، وأشرت على بعض أصحابي بحفظه فحفظه وملكها.

قال ياقوت[٤]: وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة كان بمكة، وقد رجع من اليمن، وهو آخر العهد به.

وقال الشيخ شمس الدين في حقه: هو صاحب التصانيف، ولد بمدينة لوهور سنة سبع وسبعين وخمسمائة، ونشأ بغزنة، ودخل بغداد سنة خمس عشرة وستمائة، وذهب منها بالرسالة الشريفة إلى ملك الهند سنة سبع عشرة، وأقام بها مدة، ثم رجع وقدم سنة أربع وعشرين، ثم أعيد إليها بالرسالة، ثم رجع إلى بغداد سنة سبع وثلاثين، وسمع بمكة واليمن والهند وبغداد، وكان إليه المنتهى في علم اللغة ومعرفة اللسان العربي.

---

(١) ويقال الصَغاني، وصاغان معرب جاغان قرية بمرو.
(٢) إرشاد الأريب م ٣ ص ٢١٧.
(٣) كناية عن الاستعداد والتشمير.
(٤) إرشاد الأريب م ٣ ص ٢١٨.

وقال الدمياطي: كان شيخاً صالحاً صموتاً من فضول الكلام، صدوقاً في الحديث، إماماً في اللغة والفقه والحديث، قرأت عليه وحضرت دفنه بداره بالحرم الظاهري، ثم نقل بعد خروجي من بغداد إلى مكة ودفن بها، وكان قد أوصى بذلك وأعدّ خمسين ديناراً لمن يحمله. وتوفي سنة خمسين وستمائة.

قال العلّامة قاضي القضاة تقي الدين السبكي: حكى لي الشيخ شرف الدين الدمياطي أن الصاغاني كان معه ولد، وقد حكم فيه بموته في وقت، وكان يترقب ذلك الوقت، فحضر ذلك اليوم وهو معافى قائم ليس به علة، فعمل لأصحابه وتلامذته طعاماً شكران ذلك، وفارقناه، وعديت الشط فلقيني من أخبرني بموته، فقلت له: الساعة فارقته، فقال: والساعة وقع الحمام بخبر موته فجأة، أو كما قال، رحمه الله تعالى، وعفا عنه وعنّا وعن جميع المسلمين بمنّه وكرمه[1].

له تصانيف في الأدب منها «تكملة العزيزي» وكتاب في التصريف، ومناسك الحج ختمه بأبيات قالها وهي[2]:

شوقي إلى الكعبة الغرّاء قد زادا	فاستحمل القلص الوخّادة الزادا
أراقكَ الحنظلُ العاميّ منتجعاً	وغيرك انتجع السعدانَ وارتادا
أتعبتَ سرحَك حتى آض عن كثبٍ	نياقها رزّحاً والصعبُ منقادا
فاقطع علائق ما ترجوه من نسبٍ	واستودع الله أموالاً وأولادا

وله أيضاً:

- كتاب مجمع البحرين، في اللغة (١٢ مجلداً).
- العباب الزاخر (٢٠ مجلداً) ألفه لابن العلقمي وزير المستعصم.
- كتاب الشوارد في اللغات.
- كتاب توشيح الدريدية.
- كتاب التراكيب.
- كتاب فعال.
- كتاب فعلان.
- كتاب الانفعال.

---

(١) فوات الوفيات للكتبي م ١ ص ٣٦٠.

(٢) فوات م ١ ص ٣٥٩.

ـ كتاب يفعول.
ـ كتاب الأضداد.
ـ كتاب العروض.
ـ كتاب أسماء العادة.
ـ كتاب أسماء الأسد وأسماء الذئب.
ـ كتاب التكملة (تكملة لصحاح الجوهري. (٦ مجلدات) (التكملة والذيل والصلة).
ـ كتاب مختصر الوفيات.
ـ كتاب ما تفرّد به بعض أئمة اللغة.
ـ كتاب في علم الحديث.
ـ كتاب مشارق الأنوار في الجمع بين الصحيحين.
ـ كتاب مصباح الدجى.
ـ كتاب الشمس المنيرة.
ـ كتاب شرح البخاري.
ـ در السحابة في مواضع وفيات الصحابة.
ـ كتاب الضعفاء.
ـ كتاب الفرائض.
ـ شرح أبيات المفصل.
ـ كتاب الأثر.
ـ كتاب في المناسك.

الصغاني والعباب الزاخر:

قال محمد صديق خان: «العباب الزاخر واللباب الفاخر في اللغة في عشرين مجلداً. . وترتيبه كصحاح الجوهري، وقد جمع تاج الدين بن مكتوم بينه وبين المحكم[1]».

وقال السيوطي في المزهر[2]: «وأعظم كتابٍ أُلّف في اللغة بعد عصر الصحاح كتاب المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن سيده الأندلسي

(١) البلغة في أصول اللغة ص ١٣٦. (٢) ج ١ ص ١٠٠.

الضرير، ثم كتاب العُباب للرضي الصّغاني، ووصل فيه إلى فصل «بكم»، حتى قال القائل:

إنّ الصغاني الذي حاز العلوم والحكم
كان قُصارى أمره أن انتهى إلى بكم

ثم كتاب القاموس للإمام مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي شيخ شيوخنا، ولم يصل واحد من هذه الثلاثة في كثرة التداول إلى ما وصل إليه الصحاح، ولا نقصت رتبة الصحاح ولا شهرته بوجود هذه، وذلك لالتزامه ما صحّ، فهو في كتب اللغة نظير البخاري في كتب الحديث، وليس المدار في الاعتماد على كثرة الجمع، بل على شرط الصحّة.

يقول الصغاني في كتابه العباب: «أؤلف كتاباً في صفة العرب يكون إن شاء الله تعالى جامعاً شتاتها وشاردها، حاوياً مشاهير لغاتها وأوابدها، يشتمل على أداني التراكيب وأقاصيها، ولا يغادر منها ـ سوى المهملة ـ صغيرة ولا كبيرة إلّا وهو يحصيها. . ».

وقد ذكرنا فيما سبق أن الصغاني وضع كتاباً أسماه التكملة والذيل والصلة كان ثمرة دراسته لصحاح الجوهري، وكذلك كتابه مجمع البحرين، ويبدو أنه حاول أيضاً في العُباب أن يجمع ما تشتت في المعاجم الأخرى فقال: «هذا كتاب جمعت فيه ما تفرّق في كتب اللغة المشهورة، والتصانيف المعتبرة المذكورة، وما بلغني ما جمعه علماء هذا الشأن والقدماء الذين شافهوا العرب العرباء، وساكنوها في داراتها وسايروها في نقلها من مورد إلى مورد، ومن منهل إلى منهل، ومن منتجع إلى منتجع، ومن بعدهم ممن أدرك زمانهم ولحق أوانهم، آتياً على عامة ما نطقت به العرب خلا ما ذهب منها بذهاب أهلها من المستعمل الحاضر والشارد والنادر، مستشهداً على صحة ذلك بآي من الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبغرائب أحاديث من هو بمعزل من خطل القول وخلفه، فكلامه هو الحجة القاطعة والبيّنة الساطعة، وبغرائب أحاديث صحابته الأخيار وتابعيهم الأحبار، وبكلام من له ذكر في حديث أو قصة في خبر وهو عويص، وبالفصيح من الأشعار والسائر من الأمثال».

وهو في العباب إذ يحتجُّ بالأحاديث ويستشهد بها، فإنه يعمد دائماً إلى

ضبطها والتأني لها، يقول في مقدمته: «وقد سردت الأحاديث الغريبة المعاني المشكلة الألفاظ تامّة مستوفاة، فإن كان في حديث عدة ألفاظ أتيت به تاماً، وفصلت كل لفظة منها في بابها وتركيبها، وذكرت أن تمام الحديث مذكور في تركيب كذا، ليعلم سياق الحديث ويؤمن التكرار والإعادة». أما طريقته هذه في الضبط والتأني فيعللها بقوله أيضاً: «إني رأيت في ما جمع من قبلي... غير مبيّني النبوي من الصحابي، والصحابي من التابعي، وربما أطلقوا لفظ الحديث على المثل ولفظ المثل على الحديث».

أمّا وقد ذكرنا أن ترتيب العباب كترتيب الصحاح، فلنقرأ في باب الهمزة، فصل الهمزة:

أجأ ـ ابن الأعرابي.

وأجأ أحد جبلي طيّىء، والآخر سلمى، وأجأ مؤنث، قال ذلك ابن الأنباري في كتاب المذكر والمؤنث من تأليفه، وأنشد لامرىء القيس:

أبت أجأ أن تسلم العام جارها   فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

وإنما صرفها لضرورة الشعر، ومن العرب من لا يهمزها، فحينئذٍ موضع ذكرها من الحروف الليّنة.

وقال ابن الكلبي: أجأ لبني نبهان خاصة، وسلمى لسائر طيىء، وتزعم العرب أن أجأ في الأصل كان اسم رجل، وكان عاشقاً سلمى، وكانت العوجاء وهي امرأة أخرى تجمع بينهما، وأنهم أُخذوا فصلبوا على هذه الأجبل، يعني أجأ، وسلمى، والعوجاء، فسميت الأجبل بأسمائهم.

وقال محمد بن حبيب: أجأ هو ابن عبد الجن، عشيق سلمى بنت حام بن حمى من بني عمليق بن حام، وهي أول امرأة سمّيت سلمى، فهرب بها أجأ، فأتبعها أخوتها منهم الغميم، وفدك، وفائد.. فأدركوهم بالجبلين، فأخذوا سلمى ففقأوا عينيها ووضعوها على أحد الجبلين فسمي سلمى، وكتّفوا أجأ، ووضعوه على الجبل الأحمر فسمي أجأ[1].

---

(١) العباب ج ١ ص ١٠.

ابن منظور

٦٣٠ - ٧١١ هـ

محمد بن جلال الدين مكرّم بن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور بن معافى بن خميّر بن ريام بن سلطان بن كامل بن قرة بن كامل بن سرحان بن جابر بن رفاعة بن جابر بن رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري، من بني مالك. نسبته تعود إلى جده السابع منظور، فعنده يقف معظم المترجمين له، ثم يرفعونه بعد منظور إلى رويفع، وهو ما ذكره ابن منظور نفسه في كتابه «لسان العرب» مادة جرب: «رويفع بن ثابت هذا هو جدنا الأعلى من الأنصار كما رأيته بخط جدي نجيب الدين والد المكرّم». ورويفع هذا الذي ينتسب إليه ابن منظور نزل مصر وولّاه معاوية طرابلس وأمّره عليها سنة ست وأربعين.

يكنى محمد بأبي الفضل ويلقب جمال الدين، ولد سنة ٦٣٠ هـ على إجماع المؤرخين، وقد حدد بعضهم[1] الشهر فقال: في المحرم. أما الصفدي في «أعيان العصر» فيقول: «ومولده في أول سنة ثلاثين وستمائة» ثم زاد فقال نقلاً عن شيخه أثير الدين: ولد المذكور يوم الاثنين الثاني والعشرين من المحرم من السنة المذكورة. على أن أحمد فارس في مقدمته على لسان العرب يذهب إلى أن مولده كان في المحرم سنة ٦٩٠ هـ، ثم تبعه أيضاً غيره[2] فقال: إنه ولد سنة ٦٨٠ هـ.

(١) فوات الوفيات، للكتبي ٢: ٣٣١، والدرر الكامنة لابن حجر ٤: ٢٦٢.

(٢) المعاجم العربية، د. عبدالله درويش ص ١٠٠.

كان مولده بمصر وقيل بطرابلس الغرب[1]، وقيل أيضاً في تونس حيث نشأ بها، ولعل هذا التحديد عائد إلى استنباط البعض ممّا ورد في بعض المراجع التي تقول: «إنه خدم بديوان الإنشاء بمصر وولي قضاء طرابلس». ولكن فيما ذكره ابن منظور في مقدمة كتابه «نثار الأزهار» عن والده والتيفاشي نخلص إلى أنه ولد بمصر على الأرجح.

كانت طفولته مشغولة بالعلم والتحصيل على ما ذكر في مقدمة «نثار الأزهار» فقد قال: «وكنت في أيام الوالد ـ رحمه الله ـ أرى تردد الفضلاء عليه، وتهافت الأدباء عليه، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي العبسي في جملتهم، وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه ولا أشاركهم فيما يلقونه، غير أني كنت أسمعه يذكر للوالد كتاباً صنفه أفنى فيه عمره واستغرق دهره، وأنه سماه «فصل الخطاب» وأنه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب.. وكنت شديد الشوق إلى الوقوف عليه..». وعلى ما كان عليه الأب والجد قبل ذلك نشأ ابن منظور نشأة تحصيل واستماع، فقد جذبته هذه الحركة العلمية التي ضجّ بها دار أبيه منذ أن درج. ثم يتابع ابن منظور تحصيله فيسمع من شيوخ أعلام هم: ابن المقير ومرتضى بن حاتم وعبد الرحمن بن طفيل ويوسف بن المخيلي.

لم يأت ابن منظور على ذكر واحد من شيوخه الذين أخذ عنهم، فهو لم يذكرهم في مقدمة اللسان مع أنه كان يتسع للتعريف بهم والإشارة إليهم، ولعل مردّ إغفال ابن منظور لذكرهم أنه لم يجلس لهؤلاء الشيوخ جلوساً منتظماً، ولم يأخذ عنهم ما يحمله على الإشارة إليهم، فهو حين يذكر السبب الذي حمله على اختصار كتاب التيفاشي يقول: ورأيته قد جمع فيه أشياء لم يقصد بها سوى تكبير حجم الكتاب، ولم يراع فيه التكرار ولا ما تتجه أسماع ذوي الألباب.. فأخذت زبده، ورميت زبده، وأوردت مكرره وتركت مكرره. وهو حين يقدم للسان العرب، ويذكر الكتب التي استند إليها ونقل عنها لا يعطي أصحابها حقهم، فيقول: «ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي

---

(١) الأعلام للزركلي.

رحمهما الله، وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق، وما عداها بالنسبة إليهما ثنيات للطريق. غير أن كلاً منهما مطلب عسير المهلك، ونهل وعر المسلك. وكأن واضعه شرع للناس مورداً عذباً وحلأهم عنه، وارتاد لهم مرعى مريعاً ومنعهم منه، قد أخّر وقدم، وقصد أن يعرب فأعجم، فرق الذهن بين الثنائي والمضاعف والمقلوب، وبدّد الفكر باللفيف والمعتل والرباعي والخماسي فضاع المطلوب، فأهمل الناس أمرهما وانصرفوا عنهما، وكادت البلاد لعدم الإقبال عليهما أن تخلو منهما، وليس لذلك سبب إلّا سوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب».

كتب عنه الشيخ شمس الدين الذهبي، وذكر ذلك الصفدي في «أعيان العصر» وفي «نكت الهميان في نكت العميان»، وزاد السيوطي في «البغية» فقال: وروى عنه السبكي والذهبي. فقد أفرد الذهبي لشيخه ابن منظور مكاناً في تاريخه، وتكاد تكون نقول المراجع جميعها عن الذهبي على الرغم من إهمال بعضها الإشارة إلى ذلك. ففي نص له يقول عنه: تفرّد في العوالي وكان عارفاً بالنحو واللغة والكتابة. ثم أخذ عنه ابنه قطب الدين، وكان قطب الدين هذا كاتب الإنشاء بمصر وروى عن أبيه.

لم يشر ابن تغري بردي ـ كما ذكر إبراهيم الأبياري في مقالته عن ابن منظور[1] ـ إلى ابن منظور في كتابه النجوم الزاهرة عند ذكر وفيات سنة ٧١١ هـ، على حين أفرد له ترجمة في «المنهل الصافي» وكان كل ما كتبه عنه المقريزي في كتابه السلوك[2]: «ومات جمال الدين أبو الفضل محمد بن الشيخ جلال الدين المكرم بن علي في ثالث عشري المحرم عن بضع وثمانين سنة ودفن بالقرافة، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية ورؤساء القاهرة وأوائل كتاب الإنشاء ومن رواة الحديث».

على أن معظم المترجمين له جعلوا وفاته في شعبان من سنة ٧١١ هـ.

وقد عمر ابن منظور إلى أن جاوز الثمانين، ولكنه قبل وفاته فقد بصره فعاش عمراً لا يقرأ ولا يكتب ولكن يسمع ويُسمع عنه، فقد ذكره الصفدي في «نكت

(١) مجلة تراث الإنسانية م ١ ص ٣٥٦.

(٢) ج ٢ ص ١١٤.

الهميان في نكت العميان» مع العميان بعد أن ترجم له مع الأعيان.

مؤلفاته:

يقول الصفدي في «أعيان العصر»: واختصر كتباً وكان كثير النسخ ذا خط حسن، وله أدب ونظم ونثر، ويقول أيضاً: «وكان فاضلاً وعنده تشيع بلا رفض، خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة وأتى بعمله بما يخجل النجوم الزاهرة، وله شعر غاص على معانيه وأبهج به نفس من يعانيه. وكان قادراً على الكتابة لا يمل من مواصلتها ولا يولي من مناضلتها. لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً بطوله إلّا وقد اختصره وروّق عنقوده واعتصره، تفرد بهذه الخاصّة البديعة، وكانت همته بذلك في بدر الزمان وشيعة».

ويذكر ابن حجر في الدرر الكامنة: أنه كان مغرماً باختصار كتب الأدب المطوّلة والتواريخ، وكان لا يمل من ذلك.

وذكر الصفدي في الوافي أن قطب الدين ابنه قال إن والده ترك بخطه خمسمائة مجلد.

أما الكتب التي اختصرها ابن منظور فهي:

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦ هـ) في عشرين جزءاً، اختار منه وسمّى اختياره: مختار الأغاني في الأخبار والتهاني. رتبه على حروف الهجاء في حين لم يراع أبو الفرج ذلك بل رتبه على حسب الأصوات يملي الصوت الترجمة وتملي الحادثة الواقعة والخبر.

- زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق الحصري القيرواني (٤٥٣ هـ)، في أربعة أجزاء.

- يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر لأبي منصور عبد الملك الثعالبي (٤٢٩ هـ).

- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخي أبي علي المحسن بن علي (٣٨٤ هـ).

- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٥٧١ هـ)، اختصره إلى ربعه وهو في ٤٨ مجلداً.

ـ تاريخ بغداد لأبي سعد السمعاني (٥٦٢ هـ).

ـ صفوة (صفة) الصفوة لابن الجوزي أبي الفرج (٥٩٧ هـ).

ـ مفردات ابن البيطار ضياء الدين (٦٤٦ هـ)، وهو في الطب جامع لمفردات الأدوية والأغذية.

ـ فصل الخطاب للتيفاشي (٦٥١ هـ) اختصره في كتاب أسماه: سرور النفس بمدارك الحداس الخمس، وجعل الجزء الأول منه في كتاب أسماه: نثار الأزهار في الليل والنهار وأطايب أوقات الأصائل والأسحار وسائر ما يشتمل عليه من كواكب الفلك الدوار.

وفصل الخطاب هو الكتاب الذي أحب ابن منظور الاطلاع عليه لما سمع مؤلفه يذكره لأبيه.

ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام أبي الحسن (٣٠٣ هـ)، وسمى مختصره هذا: لطائف الذخيرة.

ـ الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ).

هذه الكتب المختصرة جميعها لا تشكل المجلدات الخمسمائة التي ذكر ولده قطب الدين أن والده تركها بخطه، ولعل شيئاً كثيراً منها فقد فلم تذكره كتب المؤرخين لحياته.

لسان العرب:

يكاد لسان العرب يعدل كل ما اختصره ابن منظور من كتب التاريخ والأدب من حيث المجهود الذي بذله. ولعل الفكرة التي حملته على اختصار الكتب المطوّلة، هي الفكرة عينها التي دفعته إلى وضع هذا المعجم اللغوي بعد الاطلاع على ما سبق وضعه في اللغة كتهذيب اللغة للأزهري والمحكم لأبي الحسن الأندلسي وغيرهما. إنها طريقته في النقل من الكتب التاريخية، فعمد إلى النقل من الكتب اللغوية فاعتمد عليها واستند إليها في موضوع كتابه فعرضه بصورة ميسّرة مبوّبة ومرتبة ترتيباً جديداً. يقول في مقدمة لسان العرب: «فجمعت منها في هذا الكتاب ما تفرّق»، ثم يقول: «وأنا مع ذلك لا أدعي فيه دعوى فأقول شافهت أو سمعت أو فعلت أو صنعت أو شددت أو رحلت أو نقلت عن العرب العرباء أو

حملت، فكل هذه الدعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالاً» ويقول: «وليس لي في هذا الكتاب فضيلة أمت بها، ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى أني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من العلوم». وفي الختام يقول: «وما تصرفت فيه بكلام غير ما فيها من النص، فليقيد من ينقل عن كتابي هذا أنه ينقل عن هذه الأصول الخمسة».

إنه اعتراف من ابن منظور أنه نقل عن كتب سابقيه، وليس له فضيلة يمت بها أو وسيلة يتمسك بسببها في جمع مادة كتابه، وإن هو إلّا نقل من أصول خمسة سبقت كتابه. أمّا الأصول الخمسة التي أتى على ذكرها في مقدمة اللسان فهي: تهذيب اللغة للأزهري، والمحكم لابن سيده، والصحاح للجوهري، والحاشية على الصحاح لابن بري، والنهاية لابن الأثير.

عندما بدأ ابن منظور كتابه المعجم قدم له بمقدمة لا تخرج في جملتها عن عرض مناهج هذه الكتب الخمسة التي ذكرنا، وما فيها من عسر ومشقة على المطلع القارىء، وأنه رأى أن يجمع منها زبدتها، وأن يرتب مادتها على ترتيب الصحاح للجوهري فيلتزم الحرف الأخير من الكلمة فيجعله باباً ثم يفرع على الباب فصولاً يجعل رموزها الحروف الأولى من كلمات الباب. وكان دافعه إلى هذا العمل ما ورد في المقدمة من قوله: «فإنني لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة وضبط فضلها، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية، ولأن العالم بغوامضها يعلم ما توافق فيه النية اللسان ويخالف فيه اللسان النية، وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون وصنعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون».

وقد رتب ابن منظور اللسان ترتيب صحاح الجوهري، وصدره بفصل في تفسير الحروف المقطعة التي وردت في أوائل سور القرآن الكريم إذ هي يُنطق بها مفرقة غير مؤلفة ولا منتظمة، ولو لم يجمعها في باب لتفرقت على أبواب كل كلمة في بابها.

بدأ ابن منظور معجمه بحرف الهمزة، ثم عرض الأبواب والفصول كما عرض الجوهري أبوابه وفصوله في الصحاح، لكن أبواب لسان العرب كانت أضخم من أبواب الصحاح بكثير.

وكان في كل باب من أبواب كتابه يمهد بكلمة عن الحرف المعقود له الباب يذكر فيها مخرجه وخلاف النحويين فيه. وكان يعود في كل هذا إلى الكتب الخمسة فإن لم يجد غاص في كتب النحو والصرف ليستخلص ما يريد التمهيد له في كل باب من أبواب المعجم.

وكان تمام تأليف لسان العرب ليلة الاثنين الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٦٨١ هـ كما ذكر ذلك ابن منظور في آخر معجمه.

الفيروزابادي

٧٢٩ ـ ٨١٧ هـ

محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن أبي بكر بن أحمد بن محمـود بن إدريس بن فضل الله ابن الشيخ أبي إسحاق إبـراهيم، مجد الـدين الشيرازي الفيروزابـادي. يكنى بأبي طاهر. اشتهر بالفيروزابـادي كما اشتهر باسم الشيخ مجد الدين الشيرازي، فنسبته الأولى إلى فيروزاباد. والثانية إلى شيراز. كما أنه نسب إلى كارزين وهي أيضاً بلدة بفارس، ولد بها محمد، كما صرّح هو بذلك في مادة [كرز] من القاموس المحيط حيث قال: «وكارزين» بلد بفارس منه محمد بن الحسن ـ أو الحسين ـ مقرىء الحرم، وبه ولدت». أما فيروزابـاد فهي بلد والده وجده، وأما النسبة إلى شيراز فلأنها البلد الذي انتقل إليه من كارزين وهو ابن ثماني سنين، فتعلم فيه، وأخذ الأدب واللغة عن والده وعن القوام بن المنجم وغيرهما من علماء شيراز. كما أن نسبته الشيرازي جاءته أيضاً من أنه كان يترفع بنسبه إلى الشيخ ابن إسحاق الشيرازي.

ولد محمد إذاً بكارزين سنة ٧٢٩ هـ، وكانت ولادته بعد وفاة ابن منظور صاحب لسان العرب بثماني عشرة سنة. ويذكر ابن حجر تلميذه في أنباء الغمر أنه تفقه ببلاده فسمع صحيح البخاري على محمد بن يوسف الزرندي، وعلى بعض أصحاب الرشيد بن أبي القاسم، ونظر في اللغة فكانت جلّ قصده في التحصيل، فمرّ فيها إلى أن تميّز وفاق أقرانه. ودخل الديار الشامية بعد الخمسين، فسمع بها وظهرت فضائله وكثر الآخذون عنه. ثم دخل القاهرة، وجال بعد ذلك في البلاد الشمـالية والشرقية، ودخل الهند، وعـاد منها على طريق اليمن قاصـداً مكة، ودخل زبيد، فتلقاه الملك الأشرف إسماعيل بالقبول، وكان ذلك بعد وفاة جمال

الدين الريمي قاضي الأقضية باليمن كله، فقرره الأشرف مكانه وبالغ في إكرامه.

واستقر محمد في زبيد واستمر فيها إلى أن توفي. ويذكر ابن حجر أنه اجتمع بالفيروزابادي في زبيد باليمن وفي وادي الخصيب، وأن الفيروزابادي ناوله جلّ القاموس وأذن له في المناولة أن يرويه عنه، وأنه قرأه عليه من حديثه عدة أجزاء، وأنه سمع فيه المسلسل بالأولية لسماعه من السبكي، وأنه كتب له تقريظاً على بعض تخريجاته، وأنه أنشده لنفسه في سنة ٨٠٠ هـ بيتين من شعره.

عُرف الفيروزابادي بولعه الشديد بتحصيل الكتب مهما كانت أثمانها ومهما عزّت نسخها، فهو لا يضنّ على اقتناء كتاب بأي ثمن مهما ارتفع. وقد روى بعض مترجمي سيرته أنه كان لا يفارق الكتب في ظعن ولا إقامة، ولا يبتعد عنها في مقام ولا سفر. فكان لا يسافر إلّا وصحبته عدة أحمال كثيرة من الكتب، فإذا نزل منازل على الطريق أخرج الكتب من أماكنها ونظر فيها وقضى منها لبانته، فإذا فرغ من ذلك أعادها واستأنف رحلته. وكان هذا الولع باقتناء الكتب وجمعها يقابله ولع شديد بالإنفاق، فما كان يمسك في راحتيه مالاً، فإذا ضاع ماله عمد إلى كتبه يبيعها وينفق منها. روى السخاوي في الضوء اللامع قال: «وكذا كانت له دنيا طائلة، ولكنه كان يدفعها إلى من يمحقها بالإسراف في صرفها، بحيث يملق أحياناً، ويحتاج لبيع بعض كتبه، فلذلك لم يوجد له بعد وفاته ما كان يظن به».

وكان للفيروزابادي ابنة مفرطة الجمال فتزوجها الملك الأشرف إسماعيل بن رسول ملك اليمن لمزيد جمالها. ومن هنا كانت دالته على الملك الأشرف، فقد نال بهذا الزواج عنده برّاً ورفعة، وبلغ من برّ الأشرف به أن الفيروزابادي صنف كتاباً وأهداه إلى الأشرف على أطباق فملأها له دراهم. وبلغ من اعتزاز الأشرف بالفيروزابادي وحرصه على أن يكون دائماً قريباً منه، أن الفيروزابادي لما أراد الخروج إلى مكة لمجاورة بيت الله الحرام، كتب إلى الملك الأشرف رسالة يستأذنه فيها بالخروج، فلما بلغ كتابه (الرسالة) حضرة الأشرف كتب على طرته: «إن هذا الشيء ما ينطق به لساني، ولا يجري به قلمي. فقد كانت اليمن عمياء فاستنارت، فكيف يمكن أن نتقدم، وأنت تعلم أن الله قد أحيا بك ما كان ميتاً من العلم؟ فبالله عليك إلّا ما وهبت لنا بقية هذا العمر. والله يا مجد الدين يميناً بارة، إني أرى فراق الدنيا ونعيمها ولا فراقك، أنت اليمن وأهله».

وقد حظي الفيروزابادي بعلاقة حميمة جيدة مع الناس وأكابر القوم ورؤسائهم، وكان يجمع إلى العلم فضيلة الخط الجميل، فكان له خط جيد مع السرعة، فإذا تأنّى بلغ من الجودة والجمال شيئاً كثيراً. وبلغ من حظه أنه لم يقدر له قط أنه دخل بلداً إلاّ وأكرمه متولّيها وبالغ في إكرامه. فقد لقي كل إكرام من ابن شجاع صاحب تبريز، والأشرف شعبان سلطان مصر، والأشرف إسماعيل ملك اليمن ـ كما تقدم ـ وبايزيد العثماني سلطان الدولة العثمانية، وأحمد بن أويس الجلائري صاحب بغداد، وتيمورلنك التتري، وقد بلغ من إحسان هذا الأخير إليه، أنه حين اجتمع به عظمه وأنعم عليه بمائة ألف درهم.

لقي الفيروزابادي في كل بلد من البلاد التي نزلها الكثير من العلماء والأدباء والشعراء، فأخذ عن كثير من الشيوخ في كل بلد عربي، وأخذ عنه تلاميذ كثيرون أيضاً شُهر جلُّهم. ومن الشيوخ الذين سمع عنهم وأخذ منهم في دمشق: ابن الخباز، وابن القيّم، وابن الحموي، وأحمد بن مطر النابلسي، والشيخ تقي الدين السبكي. وفي القدس أخذ عن العلائي، والبياني، وفي مصر أخذ عن القلانسي، وناصر الدين التونسي، وابن نباتة، والفارقي، والعرضي، والعزّ بن جماعة، وفي مكة أخذ عن خليل المالكي الفقيه صحاب المختصر، والتقي الحرازي. وفي مصر أيضاً لقي الشاعر المؤرخ الصلاح الصفدي الذي أخذ عنه. كما أخذ عنه فيها البهاء بن عقيل، والجمال الأسنوي، وابن هشام النحوي. أما ابن حجر العسقلاني (تلميذه) فقد اجتمع به في زبيد باليمن كما تقدم في خبره.

وفاته:

ذكره ابن حجر العسقلاني في وفيات سنة ٨١٧ هـ، وهو مطابق لما ذكره السخاوي في الضوء اللامع. وكانت وفاته في زبيد من بلاد اليمن حيث استقر بها العشرين عاماً الأخيرة من عمره.

عاش الفيروزابادي ثمانية وثمانين عاماً متمتعاً بحواسه وسمعه، متميّزاً بحافظته القوية التي كانت تحفظ الأشياء بسرعة عجيبة وتستبقيها زمناً طويلاً لا تكاد تفلت منها أو تندّ عنها. وقد روى بعض من أرّخ له، وفي مقدمتهم السخاوي، أنه كان يقول عن نفسه: «لا أنام حتى أحفظ مائتي سطر».

مصنفات الفيروزابادي:

يقول ابن الطيب الفاسي: «وقد سارت الركبان بتصانيفه لا سيما القاموس فإنه أعطى قبولاً كثيراً». ومن كتبه التي أبقاها التاريخ لنا وسلمت من الضياع كما ضاع الكثير غيرها:

- القاموس المحيط (في أربعة أجزاء).
- كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز.
- كتاب تنوير المقياس في تفسير ابن عباس.
- كتاب الدرّ النظيم المرشد إلى مقاصد القرآن العظيم.
- شرح خطبة الكشاف.
- كتاب منح الباري بالسيل الفسيح الجاري في شرح صحيح البخاري.
- كتاب المرقاة الوفية في طبقات الحنفية.
- كتاب البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة.
- كتاب نزهة الأذهان في تاريخ أصبهان.
- كتاب منية السول في دعوات الرسول.
- كتاب المتفق وضعاً والمختلف صنعاً.
- كتاب مقصود ذوي الألباب في علم الإعراب.
- كتاب تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين.
- كتاب الروض المسلوف فيما له اسمان إلى الألوف.
- كتاب أنواء الغيث في أسماء الليث.
- كتاب زاد المعاد في وزن بانت سعاد.
- كتاب اللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب (لم يتمه)، واختصر قاموسه منه.

إذا كان القاموس المحيط قد شهر صاحبه بكثرة محفوظه من اللغة، فإن كتبه الأخرى تدل على تمكنه من علوم شتى، وخاصة علوم الفقه والحديث والتفسير، ناهيك بالشعر. ورسالته التي استأذن فيها الأشرف الخروج إلى مكة، ومقدمته للقاموس المحيط، نموذجان بيّنان من نثره. وكان فيه ميل إلى استعمال غريب

الكلام وغير المأنوس من الألفاظ، وذلك جرياً على عادة كتاب عصره في البديع والسجع وغيرهما.

وقد بلغ من كثرة محفوظه للغة أنه روي عنه لمّا سُئل عن معنى قول الإمام علي رضي الله عنه: «الصق روانفك بالجيوب، وخذ المزبر بشناترك، واجعل حندوريتك إلى قيهلي، حتى لا أنغي نغية إلّا أودعتها حماطة جلجلانك» أجاب على الفور أن معناه: «ألزق عضرطك بالصلة، وخذ المصطر بأباخسك، واجعل حجميتك إلى أثعباني، حتى لا أنبس نبسة إلا وعيتها في لمظة رياطك». فتعجب الحاضرون من سرعة جوابه بما هو أغرب من السؤال.

ويؤكد التقي الكرماني أن الفيروزابادي كان عديم النظير في زمانه نظماً ونثراً، وكان يكتب وينظم بالفارسية والعربية. وأن له شعراً وافراً كما ذكر الفاسي، على أن ما وصلنا منه قليل جداً.

الفيروزابادي وقاموسه:

كان القاموس المحيط أهم مصنفات الفيروزابادي على الإطلاق، وقد أسماه «القاموس المحيط والقابوس الوسيط، فيما ذهب من لغة العرب شماطيط» وقد اقتصر مؤلفه في مقدمة كتابه على اسم القاموس المحيط، وإن كان الاسم قد ورد كاملاً في مقدمة بعض النسخ التي كتبها آخرون، ثم إنه في آخر الكتاب جاء من كلام الفيروزابادي فيه: «هذا آخر القاموس المحيط والقابوس الوسيط». أما كلمة شماطيط فهي دليل على ميل المؤلف إلى الإغراب بغرائب الألفاظ، ومعناها: متفرقة.

يقول الفيروزابادي موضحاً هدفه من وضع القاموس: «وكنت برهة من الدهر ألتمس كتاباً جامعاً بسيطاً، ومصنفاً على الفصيح والشوارد محيطاً، ولما أعياني الطلاب، شرعت في كتابي الموسوم «اللامع المعلم العجاب الجامع بين المحكم والعباب» فهما غرّتا الكتب المصنّفة في هذا الباب»[1]. إذاً في قوله يكشف لنا الفيروزابادي عن هدفه من قاموسه وهو جمع فصيح اللغات والغريب من ألفاظها وضم شوارد الكلم مع التبسيط في العرض والعدول عن الإفاضة التي

(١) المحكم: معجم لغوي لابن سيده، والعباب: معجم الصغاني.

كان قد أرادها في اللامع. ونخلص إلى أن القاموس المحيط ما هو إلّا إيجاز لمعجم لغوي كبير مطول كان شرع في تصنيفه ولم يتمه. يقول: «وسئلت تقديم كتاب وجيز على ذلك النظام، وعمل مفرغ في قالب الإيجاز والإحكام، مع التزام المعاني، وإبرام المباني، فصرفت صوب هذا القصد عناني». فقد راعى الفيروزابادي أن يكون القاموس المحيط ملخصاً للامع، على أن لا يخلّ بالمعاني والمباني.

وقد جاء في آخر نسخة من نسخ القاموس المحيط على لسان مؤلفه ما نصّه. : «قال مؤلفه الملتجىء إلى حرم الله محمد بن يعقوب الفيروزابادي: هذا آخر القاموس المحيط والقابوس الوسيط، عنيت بجمعه وتأليفه، وتهذيبه وترصيفه، ولم آل جهداً في تلخيصه وتخليصه وإتقانه، راجياً أن يكون خالصاً لوجه الله الكريم ورضوانه، وقد يسّر الله تعالى إتمامه بمنزلي على الصفا بمكة المشرفة تجاه الكعبة المعظمة زادها الله تعالى تعظيماً وشرفاً».

فالفيروزابادي يفتخر بقربه من الكعبة المعظمة وبإتمام القاموس المحيط في الدار التي بناها في الصفا، وفي مادة صفو من القاموس يشير إلى هذه الدار فيقول: «والصفا: من مشاعر مكة بلحف أبي قبيس، وابتنيت على متنه داراً فيحاء».

ليس في تصريح الفيروزابادي بأنه جعل قاموسه موجزاً للامع، وأن اللامع جامع لما في المحكم والعباب، أنه أخذ مادته من هذين المعجمين، فهو في مواطن كثيرة نجده يأخذ من تهذيب الأزهري وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد والعين للخليل بن أحمد. وإذا افترضنا أنه أخذ مباشرة عن هذه المعاجم أو نقل منها ما نقل عن طريق المعاجم الأخرى، وقضية النقل تعرض لها كل من المعاجم المذكورة، فإن الفيروزابادي أحسن عملية الأخذ والنقل حسب ترتيب ارتضاه لنفسه في وضع قاموسه، بل كثيراً ما كان له موقف مخالف خاص من صحاح الجوهري، فتراه يعقب ويستدرك ويزيد عليه ويكشف بعض أوهامه، وإن كان يشير إلى هذه المخالفة في مقدمة قاموسه، يقول: «ولما رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة، أردت أن يظهر للناظر باديء ذي بدء، فضل كتابي

هذا عليه، فكتبت بالحمرة المادة المهملة لديه، وفي سائر التراكيب تتضح المزية بالتوجه إليه».

أما منهجه في تصنيف قاموسه أو خطته التي أسماها: فرائد وفوائد، فتقوم على:

● حسن الاختصار. فإذا ذكر صيغة المذكر أتبعها بقوله: وهي بهاء فلا يعيد الصيغة المؤنثة. وإذا ذكر المصدر مطلقاً أو الماضي بدون المضارع فالفعل على مثال: كتب، وإذا ذكر المضارع بلا تقييد فالفعل على مثال: ضرب، أي بكسر العين في المضارع.

ولجأ إلى الرموز طلباً للإيجاز، فجعل حرف د رمزاً للبلد، وحرف ع رمزاً للموضع، وحرف ج رمزاً لكلمة جمع، وحرف م رمزاً لكلمة معروف، والهاء أو التاء المربوطة رمزاً لقرية.

● تخليص الواو من الياء، وذلك بأن يقع في آخر الكلمة همزة أو ألف يحتمل كونها مبدلة من واو أو ياء، مثل: سماء، فالهمزة هنا أصلها واو. ومثل: سعى، فالألف هنا مبدلة من الياء.

● اهتمامه بالصيغ القياسية المطردة، فلا يهمل الإشارة إليها بل كثيراً ما يقدمها على غيرها ويعنى بها.

● تهذيب الكلام وإيراد المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة.

● لا يذكر ما جاء من جمع «فاعل» المعتلّ العين على وزن فعلة إلا أن يصحّ موضع العين منه.

حذف الفيروزابادي الشواهد التي يفيض بها معجم مثل لسان العرب، وحذف كثيراً من أمثال العرب أيضاً، وأوجز في تعريف الأعلام والبلدان والنباتات، فجاء قاموسه في ستين ألف مادة لغوية، بينما كان اللسان في ثمانين ألفاً، فقصّر عنه في عشرين ألف مادة لغوية، بينما زادعلى الصحاح عشرين ألفاً، ويرجع بعض من المؤرخين له أنه لم يطلع على لسان العرب لابن منظور، ولو اطلع عليه لأخذ من مادته ولزاد في قاموسه المحيط حتى جاوز حجم مادته.

وقد اهتم الفيروزابادي بإيراد أسماء الأعلام والبلدان وضبطها تسهيلاً للقارىء حتى يتبيّن وجه الصواب في نطقها. واعتنى جداً بالنباتات والأشجار

والأعشاب، فذكر خواصها الطبية، وقد أضافها بالمداد الأحمر فيما أضافه وزعم أنّه فات صاحب الصحاح، حتى إن أحمد فارس الشدياق يقول: «أول ما يقع عليه نظر الناظر إلى الصحاح الأبيات التي استشهد بها، فيحكم بأن المؤلف لغوي أديب، فإذا وقع نظره على المواد المكتوبة في القاموس بالحمرة، حكم بأن المؤلف طبيب».

كما اهتم بالألفاظ الاصطلاحية وحرص على تدوينها، فقد اهتم بالألفاظ الأعجمية والمولدة والحوشية والمماتة التي لم يحيها الاستعمال.

ثم إنه ذكر في قاموسه أعلام المحدثين والفقهاء والمفسرين وأسماء الصحابة وأعلام العربية في الجاهلية والإسلام.

والفيروزابادي ينهي مقدمة قاموسه بتواضع معترفاً فيها بهفوات الإنسان، ويقول ضارعاً إلى من ينظر إلى عمله أن يستر عثاره وزلله، ويسد بسداد فضله خلله، ويصلح ما طغى به القلم، وزاغ عنه البصر، وقصّر عنه الفهم، وعقل عنه الخاطر، فالإنسان محل النسيان[1].

وقد قرّظ الزبيدي صاحب تاج العروس القاموس وأحلّه مكانة سامية فهو يقول عنه وعن صاحبه: «وكان فيها[2] كتاب القاموس المحيط للإمام مجد الدين الشيرازي أجلّ ما ألف في الفن لاشتماله على كل مستحسن من قصارى فصاحة العرب العرباء وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، والركن البديع إلى ذراية اللسان وغرابة اللسن، حيث أوجز لفظه وأشبع معناه، وقصر عبارته وأطال مغزاه، لوّح فأغرق في التصريح، وكنّى فأغنى عن الإفصاح.. ولعمري هذا الكتاب.. قد اخترق الآفاق مشرقاً ومغرباً، وتدارك سيره في البلاد مصعداً ومصوباً.. وجلت مننه عن أهل الفطن»[3].

(١) مقدمة القاموس المحيط ص ٧.

(٢) عنى بها العربية.

(٣) مقدمة الزبيدي للتاج ص ٤.

السيوطي

٨٤٩ - ٩١١ هـ

أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن ناصر الدين بن محمد بن سابق الدين أبي بكر الفخر عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الـدين أبي الصلاح أيـوب بن ناصـر الدين محمـد بن الشيخ هُمـام الدين الخُضيْري الأسيوطي.

أمّا جدّه الأعلى هُمام الدين فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطريق، ومن دونه كانوا من أهل الوجاهة والرئاسة، فمنهم من وليَ الحكم ببلده، ومنهم من ولي الحسبة بها، ومنهم من كان في صحبة الأمير شيخو وبنى مدرسة بسُيوط ووقف عليها أوقافاً، ومنهم من كان تاجراً متمـوّلاً. ولم يكن منهم من خدم العلم حقّ الخدمة إلاّ والد عبدالرحمن. ونسبته الخُضيري، فإننا لا نعلم ما يكون إليه أمر هـذه النسبة إلاّ الخضيـرية، وهي محلّة ببغـداد، وقد نُقـل عن راوٍ ثقـة حـدّث الأسيوطي أنه سمع الكمال أبـا بكر يـذكر أن جـدّه الأعلى كان أعجميّـاً أو من الشرق، فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة.

ولُد عبد الرحمن أبو الفضل بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة، وحُمل في حياة والده إلى الشيخ محمد المجذوب، رجل كان من كبار الأولياء بجوار المشهـد النفيسي، فبرّك عليه، ونشأ يتيماً بعد وفاة والده وله من العمر خمس سنوات وسبعـة أشهر، وعـرض محافيـظه على قـاضي القضاة عزالدين أحمد بن إبراهيم الكناني الحنبلي فسأله عن كنيته فقـال: لا كنية لي، فقال: أبو الفضل وكتبه بخطه، وقد وصل في القـرآن إذ ذاك إلى سورة التحريم، فأُسندت وصايته إلى جماعةٍ منهم الكمال بن الهمام، فقرره في وظيفة الشيخونية،

ولحظه بنظره، وختم القرآن وله من العمر دون ثمان سنين. ثم حفظ عمدة الأحكام ومنهاج النووي وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاوي، وعرض كل ذلك على علماء عصره وأجازوه، وأخذ عن الجلال المحلي والزين العقبي، وحضر مجلس الحافظ ابن حجر، وشرع في الاشتغال بالعلم ابتداءً من ربيع الأول سنة أربع وستين وثمانمائة. فقرأ على الشمس السيرافي صحيح مسلم والشفا وألفيه ابن مالك، فما أتمها إلاّ وقد صنّف وأجازه بالعربية، وقرأ عليه قطعة من التسهيل، وسمع عليه الكثير من ابن المصنّف والتوضيح وشرح الشذور والمغني في أصول فقه الحنفية، وقرأ على الشمس المرزباني الحنفي الكافية وشرحها، ومقدمة إيساغوجي وشرحها للكاتب، وسمع عليه من المتوسط والشافية وشرحها للجاربردي، ومن ألفية العراقي، ولزمه حتى مات سنة سبع وسبعين وثمانمائة. ثم قرأ في الفرائض والحساب على علامة زمانه الشهاب الشارمساحي[1].

ثم حضر العلم البلقيني وقرأ عليه ما لا يحصى كثرة، ولزم أيضاً الشرف المناوي إلى أن مات وقرأ عليه الكثير، ولزم دروس محقق الديار المصرية سيف الدين محمد بن محمد الحنفي، ودروس العلامة التقي الشمني، ودروس الكافيجي، وقرأ على العزّ الكناني، وفي الميقات على مجد الدين بن السباع والعز بن محمد الميقاتي، وفي الطب على محمد بن إبراهيم الدواني لما قدم القاهرة من الروم، وقرأ على التقي الحصكفي والشمس البابي وغيرهم. وقد شرع عبد الرحمن في التصنيف من سنة ست وستين وثمانمائة، وقد قال عن نفسه معرّفاً على عادة المؤلفين ممن سبقوه[2]: «وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه، ودخلتُ بحمد الله إلى بلاد الشام والروم والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور، ولما حججتُ شربتُ ماء زمزم لأمورٍ منها أن أصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر، وأفتيت من مستهل سنة إحدى وسبعين وثمانمائة، وعقدت مجلس إملاء الحديث من مستهل سنة اثنتين وسبعين، ورُزقت التبحر في علوم التفسير والحديث

(١) وردت في الكواكب السائرة «الشارساجي»، وفي الأصل «السارساجي»، والصحيح «الشارمساحي».
(٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهر، الأول ص ١٥٧.

والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريق العجم وأهل الفلسفة، والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم الستة سوى الفقه والنقول التي اطّلعت عليها فيها، لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي، فضلاً عمّن هو دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخي فيه أوسع نظراً وأطول باعاً ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف، ودونها الإنشاء والترسّل والفرائض، ودونها القراءات، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطبّ، وأما الحساب فأعسر شيء عليَّ وأبعده عن ذهني، وإذا نظرت في مسألة تتعلق به، فكأنما أحاول جبلاً أحمله، وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله، أقول ذلك تحدّثاً بنعمة الله لا فخراً. . . ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنّفاً بأقوالها وأدلّتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله ومنه لا بحولي ولا بقوّتي. . ».

وقد ذكر تلميذه الداودي في ترجمته أسماء شيوخه إجازة وقراءة وسماعاً مرتبين على حروف المعجم فبلغت عدتهم أحداً وخمسين نفساً، واستقصى أيضاً مؤلفاته الحافلة الكثيرة الكاملة الجامعة النافعة المتقنة المحررة المعتمدة المعتبرة فنافت على خمسمائة مؤلف، وشهرتها تغني عن ذكرها، وقد اشتهر أكثر مصنفاته في حياته في أقطار الأرض شرقاً وغرباً، وكان آية كبرى في سرعة التأليف، حتى قال الداودي: عاينت الشيخ وقد كتب في يومٍ واحد ثلاثة كراريس تأليفاً وتحريراً، وكان مع ذلك يملي الحديث ويُجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة، وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالاً وغريباً ومتناً ومسنداً واستنباطاً للأحكام منه، وأخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث، وقال: لو وجدت أكثر لحفظته ولعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك.

ولما بلغ الأربعين سنة أخذ في التجرّد للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى والاشتغال به صرفاً، والإعراض عن الدنيا وأهلها، كأنه لم يعرف أحداً منهم، وشرع في تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف سمّاه بالتنفيس. ثم أقام في روضة المقياس فلم يتحول منها إلى أن مات، ولم يفتح طاقات بيته التي على النيل من سكناه. وكانت وفاته في سحر ليلة الجمعة

تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة، في منزله بعد أن تمرض سبعة أيام بورمٍ شديد في ذراعه الأيسر عن إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً، ودُفن في حوش قوصون خارج باب القرافة، وصُلّيَ عليه غائبة بدمشق بالجامع الأموي يوم الجمعة ثامن رجب من السنة المذكورة، وقيل أخذ الغاسل قميصه وقبعه، فاشترى بعض الناس قميصه من الغاسل بخمسة دنانير للتبرك به، وباع قبعه بثلاثة دنانير.

وقد قيلت فيه المراثي الحافلة، ولم نقف إلّا على واحدة منها ذُكرت في تاريخ ابن طولون، ذُكر أنه استملاها من بعض من قدم عليهم دمشق من القادمين، ومنها:

مات جلال الدين غيث الورى	مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنّة مهدي الهدى	ومرشد الضالّ بنفع يعود
فيا عيوني انهملي بعده	ويا قلوب انفطري بالوقود
وأظلمي يا دنيا إذ حقّ ذا	بل حقّ أن ترعد فيك الرعود

عاش الأسيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) في عصر المماليك المتوسط، وهو عصر جمع وشرح وتفسير، لا عصر إبداع واستنباط، وكانت حياته ومؤلفاته أفضل أنموذج عن الحياة العلمية في ذلك العصر، ويمكن اعتبار كتاباته الموسوعية (الأنسيكلوبيدية) في موضوعاتها ودائرة اتساعها وشمولها، محصلة العلوم الإسلامية في القرن الخامس عشر الميلادي. فبراعة عبد الرحمن التي لم تعرف الملل، لم تترك موضعاً في حقل المعرفة والعلوم إلّا تناولته بإسهاب، فقد برز في العلوم القرآنية والحديثية والفقهية، ثم تناول علوم الفلسفة والتاريخ، وأنشأ في العلوم الفنية والأدبية واللغوية، إلى غير ذلك من مختلف العلوم الرائجة.

وقد قال عن نفسه في ترجمة حياته في «حسن المحاضرة»: إنه وضع ثلاثمائة مؤلّف، وذكر تلميذه ابن إياس في «تاريخ مصر» أن مصنّفات أستاذه بلغت ستمائة مؤلف. وجمع له العالم الألماني فلوغل (Flugel) قائمة حوت خمسمائة وواحد وستين مصنّفاً. وهو عدد يكاد يكون غير قابل للتصديق، لولا أن بعضها كراريس قصيرة تدل على رغبة الأسيوطي في طرق مواضيع غريبة واهية كما تدل عناوينها.

أما أهم مؤلفاته فهي:

- الإتقان في علوم القرآن.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة.
- المزهر في اللغة.
- تاريخ الخلفاء.
- طبقات الحفاظ.
- لب اللباب في تحرير الأنساب.
- الأشباه والنظائر.
- الإكليل في استنباط التنزيل.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.
- تحفه المجالس ونزهة المجالس.
- تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك.
- الجامع الصغير.
- جمع الجوامع، ويُعرف بالجامع الكبير.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
- شرح شواهد المغني.
- الشماريخ في علم التاريخ.
- طبقات المفسرين.
- عقود الجمان في المعاني والبيان.
- اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة.
- النقول في أسباب النزول.
- متشابه القرآن.
- المستطَرف من أخبار الجواري.
- مصباح الزجاجة في شرح سنن ابن ماجة.
- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن.
- مناقب أبي حنيفة.
- مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا.

ـ نزهة الجلساء في أشعار النساء.
ـ همع الهوامع.
ـ الوسائل إلى معرفة الأوائل.
ـ عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد.
ـ زهر الربى على المجتبى في شرح سنن النسائي.
ـ الحاوي للفتاوي.
ـ التحبير لعلم التفسير.
ـ التاج في إعراب مشكل المنهاج.
ـ إنباه الأذكياء لحياة الأنبياء.
ـ الألفية في النحو.
ـ الأرج في الفرج.
ـ إتمام الدراية لقراء النقاية.
ـ الأخبار المروية في سبب وضع العربية.
ـ إسعاف المبطأ في رجال الموطأ.
ـ الاقتراح في علم أصول النحو.
ـ الخصائص الكبرى، أو كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب.
ـ الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير.
ـ الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة.
ـ الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج.
ـ الرحمة في الطب والحكمة.
ـ عقود الجمان في علم المعاني والبيان.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها.

جاء في مقدمة كتاب المزهر للسيوطي ما يلي: «الحمد لله خالق الألسن واللغات، واضع الألفاظ للمعاني بحسب ما اقتضَتْه حِكَمُهُ البالغات، الذي علّم آدم الأسماء كلها، وأظهر بذلك شرف اللغة وفضلها. والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح الخلْق لساناً، وأعربهم بياناً، وعلى آله وصحبه أكرم بهم أنصاراً وأعواناً. هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه، واخترعت تنويعه وتبويبه، وذلك في علوم

اللغة وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها، حاكيت به علوم الحديث في التقاسيم والأنواع، وأتيتُ فيه بعجائب وغرائب حسنة الإبداع. وقد كان كثير ممّن تقدم يُلمّ بأشياء من ذلك، ويعتني في بيانها بتمهيد المسالك، غير أن هذا المجموع لم يسبقني إليه سابق، ولا طرق سبيله قبلي طارق، وقد سميته بالمزهر في علوم اللغة».

ثم قال: «والذي جمعناه في مؤلّفنا هذا مفرّق في أصناف كتب العلماء المتقدمين، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مُشْكل أو جَمْعُ متفرّق».

جعل السيوطي كتابه المزهر في خمسين نوعاً، كلها متعلقة باللغة وعلومها وأنواعها، وشروط أدائها وسماعها.

ففي المسألة الأولى من مسائل النوع الأول «معرفة الصحيح» ويقال له الثابت والمحفوظ: قال أبو الفتح ابن جني في الخصائص: حدُّ اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. ثم قال: وأما تصريفها فهي فُعْلة من لَغَوْت أي تكلّمت، وأصلها لغوة ككرة وقلة وثُبَة، وكلها لاماتها واوات لقولهم كروت بالكرة، وقلوت بالقلة، ولأن ثبة كأنها من مقلوب ثاب يثوب. وقالوا فيها لغات ولغون كثُبات وثُبون. وقيل منه لَغِيَ يَلْغَى إذا هذَى، قال:

ورُبَّ أسراب حجيج كُظَّمِ عن اللّغا ورَفثِ التكلّم

وكذلك اللّغو، قال تعالى: ﴿وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً﴾ أي بالباطل. وفي الحديث: (من قال في الجمعة صَهْ فقد لغا: أي تكلّم. انتهى كلام ابن جني.

وقال إمام الحرمين في البرهان: اللغة من لَغِيَ يَلْغى من باب رَضِيَ إذا لهجَ بالكلام وقيل من لَغَى يلْغى. وقال ابن الحاجب في مختصره: حَدُّ اللغة كلُّ لفظ وُضِعَ لمعنى.

وقال الأسنوي في شرح منهاج الأصول: اللغة عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني[1].

---

(١) المزهر، للسيوطي، ص ٨.

ومن المسألة الخامسة عشرة في النوع الأول أيضاً، في عدة أبنية الكلام :

قال ابن دريد في الجمهرة : إذا أردت أن تؤلف بناءً ثنائياً أو ثلاثياً أو رباعياً أو خماسياً، فخذْ من كل جنس من أجناس الحروف المتباعدة، ثم أدِرْ دارةً فوقع ثلاثة أحرف حواليها، ثم فُكّها من عند كل حرف يمنة ويسرة، حتى تُفَكَّ الأحرف الثلاثة فيخرج من الثلاثي :

ستة أبنية ثلاثية وتسعة أبنية

ثنائية ـ وهذه هي الصورة : السيوطي

فإذا فعلت ذلك استقْصيتَ من كلام العرب ما تكلّموا به، وما رغبوا عنه.

الزبيدي

١١٤٥ ـ ١٢٠٥ هـ

محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، الملقب بـ «مرتضى»، علّامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. أصله من واسط في العراق، ومولده في الهند في بلجرام (بلكرام) سنة ١١٤٥ هـ، ومنشؤه في زبيد اليمن. ارتحل إلى الحجاز في طلب العلم فذهب إلى مكة والتقى بالسيد عبد الرحمن العيدروس وقرأ عليه مختصر السعد ولازمه مدة أجازه بعدها بمروياته. ومن مكة رحل إلى مصر فأقام بها، فاشتهر فضله وانهالت عليه الهدايا والتحف، وكاتبه ملوك الحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب الأقصى والترك والسودان والجزائر. وفي مصر جلس لإلقاء درس الحديث، وكان موضع ثقة شيخ العرب همام، واعتنى به إسماعيل كتخدا، وشرع في شرح القاموس للفيروزابادي حتى أتمه في عدة سنين وأسماه تاج العروس في شرح القاموس.

توفي بالطاعون في مصر سنة ١٢٠٥ هـ، وكان اعتقاد الناس فيه قد بلغ مبلغاً عظيماً، حتى كان في أهل المغرب كثيرون يزعمون أن من حجّ ولم يزر الزبيدي ويصله بشيء لم يكن حجه كاملاً.

مؤلفاته:

- تاج العروس في شرح القاموس (١٠ مجلدات).
- إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين للغزالي (١٠ مجلدات).
- أسانيد الكتب الستة.

ـ عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة.
ـ كشف اللثام عن آداب الإيمان والإسلام.
ـ رفع الشكوى وترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب.
ـ معجم شيوخه.
ـ كتاب ألفية السند (في الحديث وهي ١٥٠٠ بيت).
ـ مختصر العين، في اللغة، اختصر به كتاب العين للخليل.
ـ التكملة والصلة والذيل للقاموس.
ـ إيضاح المدارك بالإفصاح عن العواتك.
ـ عقد الجمان في بيان شعب الإيمان.
ـ تحقيق الوسائل لمعرفة المكاتبات والرسائل.
ـ جذوة الاقتباس في نسب بني العباس.
ـ حكمة الإشراق إلى كتّاب الآفاق.
ـ الروض المعطار في نسب السادة آل جعفر الطيار.
ـ مزيل نقاب الخفاء عن كنى سادتنا بني الوفاء.
ـ بلغة الغريب في مصطلح آثار الحبيب.
ـ تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير.
ـ سفينة النجاة المحتوية على بضاعة مزجاة من الفوائد المنتقاة.
ـ غاية الابتهاج لمقتفى أسانيد مسلم بن الحجاج.
ـ عقد اللآلىء المتناثرة في حفظ الأحاديث المتواترة.
ـ نشوة الارتياح في بيان حقيقة الميسر والقداح.
ـ تحفة القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل.

وكان الزبيدي يجيد التركية والفارسية وبعضاً من لسان الكرج[١].

الزبيدي وتاج العروس:

أو الزبيدي والفيروزابادي والجوهري:

عرفنا أن الفيروزابادي في تعقبه لصحاح الجوهري كان مخالفاً له في بعض

(١) أو جيورجيا من جمهوريات السوفيات في جنوب غربي البلاد.

صحاحه، فكنا نراه يتعقب ويستدرك ويزيد عليه،ويكشف بعض أوهامه التي وهمها، وهو يشير إلى سقطات الجوهري في صحاحه، يقول «ولمّا رأيت إقبال الناس على صحاح الجوهري، وهو جدير بذلك، غير أنه فاته نصف اللغة أو أكثر، إما بإهمال المادة، أو بترك المعاني الغريبة النادرة، أردت أن يظهر للناظر. فضل كتابي هذا عليه».

وعرفنا أنّ القاموس المحيط قامت حوله دراسات عديدة لاتصاله بصحاح الجوهري، وأن هذه الدراسات اختلفت في وجهات النظر، وأنها شملت المقدمة، وشرح المتن، والنقد، والمقارنة بين الصحاح والقاموس، فأراد الزبيدي أن يفيد من هذا كله، فصنّف كتابه الذي وسمه بـ «تاج العروس من جواهر القاموس» مشيداً بالجوهري صاحب الصحاح غير منتقص منه كما يفعل الفيروزابادي، بل نراه يكمل القاموس ويذكر شروحه، فلنسمعه يقول: «وأنا لا ادعي فيه دعوى فأقول شافهت، أو سمعت، أو رحلت، أو أخطأ فلان أو أصاب أو غلط القائل في الخطاب، فكل هذه دعاوى لم يترك فيها شيخنا لقائل مقالاً». ثم يقول: «وليس لي في هذا الشرح فضيلة أمت بها، ولا وسيلة أتمسك بها سوى أنني جمعت فيه ما تفرق في تلك الكتب من منطوق ومفهوم»[1].

وكان من الدوافع أيضاً اعتقاد الزبيدي بأن العربية أصل لكل العلوم، وقديماً ربط العلماء بين اللغة والدين، وأبرز معظم أصحاب المعاجم هذه الناحية في كثير من التقديس، وقال الزبيدي موضّحاً: «فتدبرت فنون العلم التي أنا كائن بصدد تكميلها، وقائم بإزاء خدمتها، وتحصيلها، فصادفت أصلها الأعظم الذي هو اللغة العربية». ثم يقول: «إنني لم أقصد سوى هذه اللغة الشريفة إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية».

وكان إيجاز القاموس المحيط مما دفع الكثير من العلماء إلى المشاركة في كشف غموضه، فمنهم من اقتصر على شرح خطبته كما فعل المحب بن الشحنة والقاضي عيسى بن عبد الرحيم الكجراتي وميرزا علي الشيرازي، ومنهم من تقيّد بسائر الكتاب كعلي بن غانم المقدسي وسعدي أفندي والشيخ محمد عبدالرؤوف

---

(١) مقدمة تاج العروس ص ٥.

المناوي وسمّاه «القول المأنوس» وصل فيه إلى حرف السين، وعبدالله بن الإمام شرف الدين وسماه «كسر القاموس»، والبدر محمد بن يحيى القرافي وسماه «بهجة النفوس في المحاكمة بين الصحاح والقاموس»، والإمام أحمد بن عبدالعزيز، وشرح أبي عبدالله محمد بن الطيب الفاسي.

أمام كل ما دار من دراسات حول الصحاح والقاموس أراد الزبيدي أن يدلي بدلوه، يقول: «فلما أنست من تناهي فاقة الأفاضل إلى استكشاف غوامضه والغوص على مشكلاته. . قرعت ظنبوب اجتهادي واستسعيت يعبوب اعتنائي في وضع شرح عليه ممزوج العبارة ـ جامع لمواده ـ بالتصريح في بعض، وفي البعض بالإشارة، وافٍ ببيان ما اختلف من نسخه ـ والتصويب لما صحّ منها من صحيح الأصول ـ حاوٍ لذكر نكته ونوادره،والكشف عن معانيه والإنباه عن مضاربه ومآخذه بصريح النقول والتقاط أبيات الشواهد له، مستمداً ذلك من الكتب التي يسر الله تعالى بفضله وقوفي عليها، ونقلت بالمباشرة لا بالوساطة عنها»[1].

ذكر الزبيدي في مقدمة التاج منهجه وحدّد نهجه الذي سار عليه على النحو التالي:

● «ولم آل جهداً في تحري الاختصار وسلوك سبيل التنقية والاختيار وتجريد الألفاظ من الفضلات التي يستغنى عنها».

إذاً يحاول الاختصار ما أمكنه ذلك على أن يبقي على جوهر الكتاب، وفي سبيل هذا سيعمد إلى التصريح إن اقتضى المقام أو التلميح إن رأى فيه الكفاية الموفية.

● «فجمعت منها في هذا الشرح ما تفرق، وقرنت بين ما غرب منها وبين ما شرق، فانتظم شمل تلك الأصول والمواد كلها في هذا المجموع، وصار هذا بمنزلة الأصل وأولئك بمنزلة الفروع».

فقد لاحظ الزبيدي أن الاختصار الذي وعد به الزبيدي في قاموسه أدى إلى حذف الشواهد التي أوردها الجوهري في الصحاح، ورأى أن هذا الاختصار يحتاج إلى التكملة والتوضيح، فجمع الشواهد والأدلة وقارن بينها فيما تيسّر له من

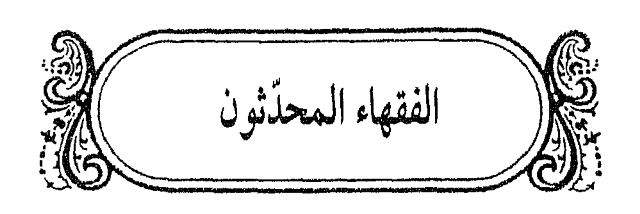
---

(١) مقدمة التاج ص ٣.

كتب السابقين، ووجدها أفضل وسيلة لتنقيتها وتصويبها، وهو بهذا العمل أعـاد الشواهد، «لأن كل واحد من العلماء انفرد بقـول رواه أو سماع أداه، فصـارت الفوائد في كتبهم متفرقة».

● وكانت محاولتـه الأسمى هي جمع نسـخ القامـوس المحيط المختلفة والمتعددة، فأكبّ عليها يقابل أصولها وينتقي الأصحّ منها ليخلص إلى الأكمل منها والأصوب والأصح.

وقـد درج الزبيـدي في ترتيب تـاجه على نسق تـرتيب الفيروزابـادي في قاموسه. فكان لا بد له إذاً من البدء بباب الهمزة (فصل الهمزة)، ثم فصل الباء من باب الهمزة.



الفقهاء المحدّثون

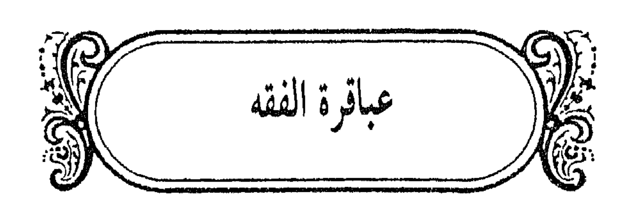
اتجهت عناية المسلمين باكراً إلى العلوم الفكرية التي دعت إليها العاطفة الدينية، فضرورة تفهُّم معاني القرآن وإيضاح غوامضه وشرحها أصبحت الحافز الأكبر لدراسة الإلَهيات العميقة والأبحاث اللغوية الدقيقة. وكانت مصادر هذه العلوم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهي أعمال النبي ﷺ وكلامه وتقريره. وقد تُنوقلت السنة في صدر الإسلام شفاهًا،وكان حول الرسول الكريم ﷺ رجال حفظوا أحاديثه في قلوبهم، إلى أن جاء القرن الثاني الهجري حيث جمعت هذه الأحاديث ودونت. وكان للحديث النبوي أثر عظيم في تطور الفكر الإسلامي، وفي هذا الحديث يلتفت إلى المعنى الملهم به قبل كل شيء، وليس بين شعوب الأمم الأخرى من أنشأ من الأحاديث الدينية علماً قائماً بذاته غير المسلمين.

فالمسلمون رأوا أن علم الحديث هو العلم الحقيقي دون سواه، فكان طلابه يرتحلون في طلبه عملاً بالحديث النبوي المأثور: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، وأصبحت الرحلة في طلب العلم تحسب في عداد العمل الحسن المأجور الذي يدعو إليه الدين الإسلامي. على أنّ الحديث كان يجب أن يكون حديثاً تاماً ذا إسناد ومتن، والمتن يتلو الإسناد، ويجب أن يكون مروياً بنصه الأصلي حرفياً، فالحديث الصحيح: حدثني فلان حدثنا فلان عن فلان عن فلان قال حدثني فلان أنه سمع النبي ﷺ قال كذا وكذا. وعلى هذا الأساس صنفوا الحديث وجعلوا منه الصحيح والحسن والضعيف.

وقد جمعت في القرن الثالث الهجري كتب الحديث الستة والتي أصبحت

المرجع الأساس في علم الفقه والحديث. وكان أولها وأشدها ثقة عند أهل الحديث صحيح البخاري محمد بن إسماعيل، وقد جمع فيه ٧٣٩٧ حديثاً كان قد استخلصها من ستمائة ألف حديث سمعها من ألف شيخ في مدة ست عشرة سنة أمضاها مطوّفاً في العراق والشام والحجاز ومصر، ثم تلاه صحيح مسلم بن الحجاج، على أن أسانيد الثاني تختلف عن الأول، ثم تلاهما كتب أربعة احتلت مكاناً رفيعاً عند علماء المسلمين هي سنن أبي داود البصري، وسنن الترمذي (الجامع)، وسنن ابن ماجه، وسنن النسائي.

وبفضل العلوم الفقهية واجتهاد الفقهاء اتصلت الشريعة السماوية بالأجيال المسلمة التي تلت وفاة الرسول ﷺ. وكان علم الفقه يشمل الوصايا والقوانين المراعاة في الصلاة والعبادات والواجبات المدنية والشرعية والجزاء والثواب. وكان قد اتضح للعلماء المسلمين أن التشريع القرآني لم يكن ليلمّ بكل القضايا المدنية والجزائية والسياسية التي عرضت للمسلمين بعد استقرارهم في الأقطار التي افتتحوها، وأصبح من الضروري اللجوء إلى الإفتاء، وكان يعتمد على أساسين اثنين: الأول هو القياس أي الاستدلال عن طريق المقارنة والتشبيه، والثاني الإجماع أي اتفاق الأمة. وبهذين الأساسين أصبح للفقه أصلان فرعيان أضيفا إلى الأصلين الرئيسيين اللذين هما القرآن والسنة المطهرة.



عباقرة الفقه

أبو حنيفة

٨٠ ـ ١٥٠ هـ

أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى، وقيل عتيك بن زوطرة الكوفي مولى بني تيم الله بن ثعلبة. إمام الحنفية، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة. قيل: أصله من أبناء فارس، ولد في الكوفة سنة ثمانين هجرية، وكان يبيع الخزّ ويطلب العلم في صباه. رأى أنس بن مالك ومعقل بن يسار وابن واثلة وابن أوفى وغيرهم. وقد نظم بعضهم في من لقي من الصحابة، فقال:

لقي الإمام أبو حنيفة ستةً — من صحب طه المصطفى المختار

أنساً وعبدالله نجل أنيسهم — وسميّه ابن الحارث الكرّار

وزِدِ ابن أوفى وابن واثلة الرضى — واضمم إليهم معقل بن يسار

ولكن لم تثبت له رواية عن أحد منهم، وإنما روى عن عطاء بن أبي رباح وطبقته، وتفقه على حماد بن سليمان، وكان من أذكياء بني آدم، جمع الفقه والعبادة والورع والسخاء، وكان لا يقبل جوائز الدولة، بل ينفق ويؤثر من كسبه، له دار كبيرة لعمل الخزّ، وعنده صنّاع وأجراء[1].

قال الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة.

وقال يزيد بن هارون: ما رأيت أورع ولا أعقل من أبي حنيفة.

وروى بشر بن الوليد عن أبي يوسف، قال: بينما أنا أمشي مع أبي حنيفة إذ سمعت رجلاً يقول لآخر: هذا أبو حنيفة لا ينام الليل. فقال: والله لا يتحدث عني بما لم أفعل. فكان يحيي الليل صلاة ودعاء وتضرعاً.

(١) شذرات الذهب للحنبلي م ١ ص ٢٢٨.

ذكر ابن الأهدل أن المنصور نقله عن الكوفة إلى بغداد ليوليه القضاء، فأبى أبو حنيفة، فحلف عليه ليفعلنّ، فحلف أن لا يفعل، وقال: أمير المؤمنين أقدر مني على الكفّارة، فأمر به إلى الحبس، وقيل إنه ضربه، وقيل سقاه سمّاً لقيامه مع إبراهيم الشبه بن عبدالله بن حسن، فمات شهيداً. وقيل إنه أقام في القضاء يومين، ثم اشتكى ستة أيام ومات.

وكان ابن هبيرة قد أراده على القضاء في الكوفة أيام مروان الجعدي فأبى، وضربه مائة سوط وعشرة أسواط، كل يوم عشرة، وأصرّ على الامتناع، فخلّى سبيله، وكان الإمام أحمد إذا ذكر ذلك ترحّم عليه.

قال ابن الوكيل(١): لمّا جلس أبو يوسف رحمه الله للتدريس من غير إعلام أبي حنيفة أرسل إليه أبو حنيفة رجلاً، فسأله عن خمس مسائل: الأولى قصار جحد الثوب وجاء به مقصوراً، هل يستحق الأجر أم لا؟ فأجاب أبو يوسف: يستحق الأجر. فقال له الرجل: أخطأت. فقال: لا يستحق. فقال: أخطأت. ثم قال له الرجل: إن كانت القصارة قبل الجحود استحقّ، وإلاّ فلا، والثانية هل الدخول في الصلاة بالفرض أم بالسنّة؟ فقال: بالفرض. فقال: أخطأت. فقال: بالسنّة. فقال: أخطأت. فتحيّر أبو يوسف، فقال الرجل: بهما لأن التكبير فرض ورفع اليدين سنّة. الثالثة طير سقط في قدر على النار فيه لحم ومرق، هل يؤكلان أم لا؟ فقال أبو يوسف: يؤكلان. فخطأه. فقال: لا يؤكلان. فخطأه، ثم قال: إن كان اللحم مطبوخاً قبل سقوط الطير يغسل ثلاثاً ويؤكل وترمى المرقة وإلاّ يرمى الكل. الرابعة مسلم له زوجة ذميّة ماتت وهي حامل منه تدفن في أي المقابر؟ فقال: في مقابر المسلمين، فخطأه. فقال أبو يوسف: في مقابر أهل الذمة، فخطأه. فتحيّر أبو يوسف فقال: في مقابر اليهود ـ أي لأنهم يوجهون قبورهم إلى القبلة ـ ولكن يحوّل وجهها عن القبلة حتى يكون وجه الولد إلى القبلة، لأن الولد في البطن يكون وجهه إلى ظهر أمه. الخامسة أم ولد لرجل تزوجت بغير إذن مولاها، هل تجب العدة من المولى؟ فقال: تجب. فخطأه. ثم قال الرجل: إن كان الزوج دخل بها لا تجب وإلاّ وجبت. فعلم أبو يوسف تقصيره. فعاد إلى أبي حنيفة فقال: تزبّبت قبل أن تحصرم.

---

(١) الأشباه والنظائر.

ذكر الحافظ العامري في كتابه الرياض المستطابة أنّ الإمام أبا حنيفة رأى عبد الله بن الحرب بن جزء الصحابي وسمع منه قول النبي ﷺ: **«من تفقه في دين الله كفاه الله همّه ورزقه من حيث لا يحتسب»**.

قال الإمام مالك بن أنس يصفه: رأيت رجلاً لو كلّمته في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجّته، وكان كريماً في أخلاقه، جواداً، حسن المنطق والصورة، جهوري الصوت، إذا حدّث انطلق في القول وكان لكلامه دويّ.

توفي ببغداد سنة ١٥٠ هـ، ذكر صاحب شذرات الذهب[1]: وفيها (أي سنة ١٥٠ هـ) توفي الإمام أبو حنيفة.

من تصانيفه:

- مسند، في الحديث (جمعه تلاميذه).
- كتاب المخارج، في الفقه، رواه تلميذه أبو يوسف عنه.
- رسالة الفقه الأكبر (تنسب إليه)، وهو بيان للعقيدة في عشرة أبواب، يشرح عقيدة أهل السنّة ومخالفتها لعقائد الخوارج والقدرية والجهمية والشيعة، وربما عقيدة هذا الكتاب في تعاليمه الأساسية إلى أبي حنيفة نفسه.
- كتاب الفقه الأبسط، برواية تلميذه أبي المطيع الحكم بن عبدالله البلخي.
- وصية أبي حنيفة.
- وصية أبي حنيفة لابنه حمّاد.
- وصية أبي حنيفة لتلميذه يوسف بن خالد السمتي البصري.
- وصية إلى تلاميذه.
- وصية إلى القاضي أبي يوسف.
- كتاب العالم والمتعلم.
- القصيدة النعمانية (في مدح النبي ﷺ).
- رسالة إلى عثمان البتي، يدافع فيها أبو حنيفة عن نفسه تهمة القول بالإجازة.
- مجادلة لأحد الدهريين.

(١) شذرات الذهب م ١ ص ٢٢٧.

ـ كتاب معرفة المذاهب.

ـ نصائح مع شرح زبدة النصائح لعثمان بن مصطفى.

ـ الضوابط الثلاثة مع شرح الوصول إلى الكنز الأكبر وإلى ما هو أنقى من الكبريت الأحمر.

ـ رسالة في الفرائض.

ـ الدعاء المأثور عن أبي حنيفة.

ـ كتاب المنبهات على الأمور الواجبات، منظومة.

ـ قصيدة لأبي حنيفة.

وقد نُسب إليه كتاب «المقصود في الصرف».

ـ وقد ذكر الفيروزابادي[1] أن أسد بن عمرو هو أول من دوّن مصنفات أبي حنيفة، كما روى الصيمري عن أبي نعيم، وأن أبا عصمة نوح بن مريم الجامع قاضي مرو[2] هو أول من جمع فقه أبي حنيفة.

---

(١) مرقاة الأوفياء ٢: ١٨١.

(٢) الجواهر المضية لابن أبي الوفاء ١: ١٧٦.

الليث بن سعد

۹٤ - ۱۷٥ هـ

الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي، أبو الحرث (الحارث)، إمام أهل مصر في عصره، أصله فارسي أصبهاني، ولد في قلقشندة سنة ۹٤ هـ[١]. روى عن الزهري وعطاء ونافع وخلق، وروى عنه ابن شعيب وابن المبارك وآخرون.

قال ابن سعد في الطبقات: كان ثقة كثير الحديث صحيحه، وكان قد اشتغل بالفتوى في زمانه بمصر، وكان سرياً من الرجال نبيلاً سخياً له ضيافة

وقال يحيى بن بكير: ما رأيت أحداً أكمل من الليث، كان فقيه النفس عربي اللسان يحسن القرآن والنحو ويحفظ الحديث والشعر، حسن المذاكرة.

وقال ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة: كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته.

وقال الإمام الشافعي: كان الليث أفقه من مالك، إلاّ أنه ضيّعه أصحابه.

وذكر ابن كثير، قال: وقد حكى بعضهم أنه ولي القضاء بمصر وهو غريب.

وقال الذهبي في العبر: كان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث، وإذا رابه من أحدٍ شيء كاتب فيه فيعزل. وقد أراد المنصور أن يلي إمرة مصر فامتنع، مات يوم الجمعة رابع عشر شعبان سنة خمس وسبعين ومائة.

قال ابن الأهدل: أراده المنصور لولاية مصر فأبى وتولّى قضاءها.

وروي أن الإمام مالكاً أهدى له صينية رطباً، فأعادها مملوءة ذهباً. وكان

(١) قرقشندة في شذرات الذهب للحنبلي م ١ ص ٢٨٥.

يتخذ لأصحابه الفالوذج، وكان يدخله في سنته ثمانون ألف دينار، وما وجبت عليه زكاة، وكان لا يتغدى كل يوم حتى يطعم ثلاثمائة وستين مسكيناً.

قال الذهبي في العبر: كان أتبع للأثر من مالك.

وقال يحيى بن بكير: الليث أفقه من مالك لكن الخطوة لمالك.

له في خاصة من الكتب: [1].

- كتاب التاريخ.
- كتاب مسائل في الفقه.

التقى الليث بأبي حنيفة في مجلس مالك بن أنس في المدينة، ودخل الليث على مالك ذات ليلة من الشتاء فوجده يمسح عرقه وقد انصرف من عنده أبو حنيفة، فسأله عن سبب هذا العرق والبرد شديد، فقال مالك: عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري. وكان مالك لا يحب الجدل وأبو حنيفة مولع به. وسأل الليث أبا حنيفة عن رأيه في مالك فأثنى عليه أطيب ثناء.

على أن الليث كان ينكر على أبي حنيفة توسعه في الأخذ بالرأي ولجوءه إلى الحيل لاستنباط الحكم، وإن كان معجباً بذكاء أبي حنيفة وسرعة بديهته. ولقد سمع به قبل أن يراه، وتمنى أن يراه، ورآه لأول مرة في المسجد الحرام قبل أن يلقاه عند مالك في المدينة. رأى حلقة عليها الناس، فإذا هي حلقة أبي حنيفة، فجلس يستمع إليه، فأقبل رجل فقال: «يا أبا حنيفة، إني رجل من أهل خراسان كثير المال، وإنّ لي ابناً ليس بالمحمود وليس لي ولد غيره، إن زوجته طلق وإن سريته[2] أعتق، وقد عجزت عن هذا فهل من حيلة؟ فأسرع أبو حنيفة مجيباً: «اشتر لنفسك الجارية التي يرضاها هو، ثم زوجها منه، فإن طلق رجعت مملوكتك إليك، وإن أعتق أعتق ما لا يملك». ويقول الليث عن جواب أبي حنيفة: «فوالله ما أعجبني قوله بأكثر مما أعجبني سرعة جوابه».

اختلف الليث مع أبي حنيفة في كثير من الآراء، وأشهر خلاف بينهما هو

(١) الفهرست لابن النديم ص ٢٨١.

(٢) أي وهبته جارية تعيش معه كزوجة.

الرأي في الوقف. فقد كان أبو حنيفة لا يجيز الوقف لأنه يرى في حبس المال قيداً وضرراً. وبهذا الرأي أخذ أحد قضاة مصر، فنبهه الليث إلى خطأ هذا الرأي وإلى مخالفته للسنة. ولكن القاضي ظل يحكم بإبطال الوقف. فجاءه الليث في مجلس القضاء، فرفع القاضي المجلس، فقال الليث: إنما جئت إليك مخاصماً، فقال له القاضي: في ماذا؟ قال الليث: في أحباس المسلمين[1]، لقد حبس رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي، فمن بقي بعد هؤلاء؟ ولم يقتنع القاضي، فكتب الليث به إلى الخليفة: والله إنّا لم ننكر عليه شيئاً، غير أنه أحدث أحكاماً لا نعرفها! فأمر الخليفة بعزل القاضي، فجاء القاضي إلى الليث في مجلسه، وأخبره بأمر العزل وأضاف: والله لو أمرتني بالخروج لخرجت. فقال له الليث بصوت يسمعه الجميع: والله إنك لعفيف عن أموال الناس، ولكنك تخالف الرسول ﷺ فما تصلح للقضاء.

وكان خلاف الليث ومالك في الفقه مثالاً للحرص على الحقيقة ونبل العلماء في مواجهة الخطإ والقدرة على الرجوع إلى الحق. قال الليث: أحصيت على مالك سبعين مسألة قال فيها برأيه وكلها مخالفة لسنة رسول الله ﷺ. وقد اعترف مالك بأنه أخطأ في بعضها. من هذه المسائل أن الجنين يستقر في بطن أمه ثلاث سنوات، وهذا مخالف للعقل والعلم وليس في الشرع ما يخالف العقل. ورأي مالك هذا يفتح باب الفساد للنساء اللائي يغيب عنهن أزواجهن بالطلاق أو الوفاة أو السفر، وتقبل مالك نقد الليث ولم يعد يفتي بهذا.

ومنها أيضاً استغلال الأرض المزروعة بالإيجار، فالليث يرى أن الرسول ﷺ نهى عن ذلك فعلى صاحب الأرض أن يعمل فيها أو يستغلها بالمزارعة ويقسم الثمرات بينه وبين العاملين، فله نسبة منها لا تجحف حق العاملين ولا تظلمهم. ومنها أن مالكاً كان يرى أن ديون العباد في التركة أولى بالأداء من دين الله كالزكاة، فحق العباد أولى بالرعاية من حق الله دفعاً للمضرّة، أما الله تعالى فهو غفور رحيم، والليث يرى أن الزكاة أولى بالأداء لأنها حق الله والعباد معاً.

---

(١) أي أوقافهم.

مالك بن أنس

نحو ٩٣ - ١٧٩ هـ

مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبدالله، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. من أسرة يمنية تحولت إلى الحجاز في زمن جد مالك. ولد شمالي المدينة في العشرة الأخيرة من القرن الأول الهجري، قيل سنة ٩١ هـ، وقيل ٩٣ هـ. كانت أسرته متوسطة الحال، فقد تعاطى والده العمل اليدوي على ضعف، ويقال إنه كان مقعداً. في ظل هذه الأسرة نشأ مالك بين أخوة آخرين أكبر منه وأصغر، وفي كنفها درج أيامه الأولى تحنو عليه أم بارّة عطوف. وكان مالك يسمع من خلال حديث أسرته أنها تنتمي إلى ذي أصبح من أقيال اليمن، ولذلك قيل مالك «الأصبحي».

لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره عندما حفظ القرآن وبعض الأحاديث، لكنه كان عاجزاً عن فهم معانيها، وقد غضب والده أنس عليه يوماً لأنه أخطأ في الإجابة عن سؤال في الدين، فنهره بشدة، فبكى مالك ولجأ إلى صدر أمه يسألها الحماية والنصيحة. وقد دفعته أمه البارة إلى مسجد رسول الله ﷺ ليتلقى العلم، واختارت له حلقة ربيعة الرأي يختلف إليها وربيعة آنذاك فقيه يجتهد رأيه لاستنباط الحكم عندما لا يجده في نص قطعي الدلالة، وهو أكثر العلماء دعوة إلى الاجتهاد والأخذ بالرأي، وقد أعجب رواد المسجد بهذا الغلام مالك وهو يمسك بلوح يكتب فيه كل ما يرويه ربيعة من مسائل اجتهد فيها صعبة الحفظ تحتاج إلى عقل ناضج، ورأس كبير جدير بالعمامة التي يحملها[1].

---

(١) أئمة الفقه التسعة، لعبد الرحمن الشرقاوي ص ٨٢.

ولكن مالكاً لم يختلف إلى حلقة ربيعة الرأي فقط، فقد بهره ما في الحلقات الأخرى، وكانت كثيرة حول أعمدة المسجد النبوي، من فنون المعارف، فتنقل بين حلقات الفقهاء والمحدثين يحفظ القرآن ويستمع إلى تفسير آياته في حلقة من الحلقات، ثم يعكف على حلقة أخرى يحفظ الحديث النبوي، ويتلقى فتاوي الصحابة من شيخ حلقة ثالثة، ثم الرد على ما يثار من أفكار وآراء في العقائد في حلقة رابعة، وهكذا يطوف بين الحلقات آخذاً عن شيوخ علماء، ثم يعود إلى ربيعة الرأي أو غيره من ذوي العلم.

وروي عنه أنه إذا جلس للحديث وهو صبي كان يحمل معه خيطاً فيعقد مع كل حديث عقدة، حتى إذا كان آخر النهار أعاد على نفسه الأحاديث وعدّ العقد، فإن وجد نفسه قد نسي شيئاً قرع باب شيخه الذي سمع منه الأحاديث فيحفظ ما نسي. وقد كان ينتظر لذلك أحد المشايخ في الطريق ساعات تحت شمس الهاجرة، حتى إذا رأى الشيخ يدلف إلى داره، انتظر برهة ثم قرع بابه، وكان كثيراً ما يملأ كمه بالتمر يهديه جارية الشيخ لتمكنه من الدخول.

توفي والده ومالك منقطع لطلب العلم في الحلقات، فوجد نفسه مضطراً إلى إعالة نفسه وزوجته وابنته، وكانت له تجارة بأربعمائة دينار ورثها عن والده، ولكن لشدة اهتمامه بالعلم كسرت هذه التجارة واضطر إلى أن يبيع خشباً من سقف بيته ليعيل نفسه وأسرته. ولما بلغ مرحلة شبابه وجد نفسه عاجزاً عن توفير ما يكفي أهل بيته، إلّا أن يضحي بطلب العلم فيسعى لتدبير مؤونته.

انفجرت أولى صرخات اجتهاده فناشد الحاكمين أن يمكّنوا أهل العلم من التفرغ للعلم، وأن يجروا عليهم رواتب تكفل لهم الحياة الكريمة، لكن أحداً لم يلتفت إليه وهو الشاب، فقد كان أركان الدولة الأموية يستميلون ويتألفون قلوب شيوخ أهل العلم دون شبابهم. وصادق في هذه المحنة طالب علم شابًّا من أهل مصر هو الليث بن سعد، كان يزور المدينة ويجلس إلى حلقات الفقهاء في المسجد النبوي في حجّه بين عام وعام، وقد أعجب كل من مالك والليث بذكاء صاحبه ونشأت بينهما علاقة احترام متبادل، ولاحظ الليث أن مالكاً رغم أناقته ورائحة المسك التي تفوح منه، كان فقيراً يداري فقره تعففاً وإباءً. وكان الليث واسع النعمة، فمنح صاحبه مالكاً مالاً جماً وأقسم عليه أن يقبله.

عاد الليث بن سعد إلى مصر واستمر يصل مالكاً بالهدايا حتى أصلح الله حال مالك فوجد من الخلفاء من يستجيب إلى صراخه المتصل بأن تجري الرواتب على أهل العلم لتكفيهم الطلب. وقد سئل مالك عن عدم السعي في طلب الرزق والانقطاع إلى العلم، فقال: «لا يبلغ أحد ما يريد من هذا العلم حتى يضربه الفقر ويؤثره على كل حال، ومن طلب هذا الأمر صعُب عليه».

ويروى أن رجلاً جاءه من أقصى المغرب موفداً من أحد فقهائها، ليسأل مالكاً في مسألة، فقال له مالك: «أخبر الذي أرسلك ألّا علم لي بها». فأخبره الرجل أنه جاء من مسيرة ستة أشهر ليسأل عن هذه المسألة. فقال مالك: «ما أدري وما ابتلينا بهذه المسألة في بلدنا وما سمعنا أحداً من أشياخنا تكلم فيها ولكن تعود غداً». وظل مالك يفكر في المسألة ويقرأ ما يمكن أن يتصل بها، حتى إذا كان الغد جاءه الرجل فقال له مالك: «سألتني وما أدري ما هي». فقال الرجل: «ليس على وجه الأرض أعلم منك وما جئتك من مسيرة أشهر إلّا لذلك». فقال مالك: «لا أحسن».

عاش مالك في المدينة المنورة طيلة عمره حتى توفي، ولم يبرحها قط إلّا لحج أو عمرة وكان يقول إذا جدّت مناسبات الارتحال عنها: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون». وهو يجعل لها المكانة الفكرية فيحدث عن إجماعها، ويؤثر خبر الواحد منها، لأن لهم فضل صحبة ومعاينة للرسول ﷺ وأصحابه من بعده، وقد رأوا من ذلك ما لعله لا يتيسر لغيرهم من أهل المدن الأخرى. ومالك يقدّر التبعة الاجتماعية فيما يمارس من أمر هذا العلم الديني تعليماً وإفتاءً، ويقول في ذلك قولته المشهورة: «بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عما يسأل عنه الأنبياء».

حكى الشافعي أنه رأى على باب مالك هدايا من خيل وبغال، فقال الشافعي: ما أحسن هذه الأفراس والبغال، فقال مالك: هي لك فخذها جميعاً. قال الشافعي: ألا تبقي لك منها دابة تركبها؟. قال مالك: إني لأستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة.

لم يخض مالك في لجة الصراع السياسي، فقد كانت المدينة بعيدة عن مواقع الفتن والثورات ومناهضة الحكام والابتعاد عن الجدل في الدين، وقد بلغ

هذا الحد من مالك أن جعله يصد هارون الرشيد عندما لقيه في المدينة وطلب منه أن يناظر أبا يوسف صاحبَ أبي حنيفة. فقال مالك مغضباً: «إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة» وقال: «إن الجدل يبعد المتجادلين عن حقيقة الدين. إن المراء والجدل في الدين يذهبان بنور العلم من قلب المؤمن». وسئل: رجل له علم بالسنة ألا يجادل عنها؟ فقال: «يخبر بالسنة فإن قبل منه وإلاّ سكت».

هكذا بقي مالك بعيداً عن السياسة، وعلى هذا سار أيام الأمويين ثم العباسيين بعدهم، محاولاً جهده أن يكون حيادياً. ولكنه رغم ذلك لم يعش بمنجاة عن بطش الذين أفتى بوجوب طاعتهم من الحكام. لم يهاجم الأمويين فأصابه الكثير من خيرهم، ثم جاء العباسيون فزادوا من الخيرات والعطايا، فاغتنى مالك ومنح كل وقته للتدريس في المسجد النبوي، ولكن هذا الحياد لم ينفع في إبعاده عن السياسة.

كان مالك في المسجد يشرح الحديث النبوي الشريف: «ليس على مستكره يمين»، ويبين للناس أن من طلق مكرهاً لا يقع منه طلاق، إذ بأحد أحفاد الحسن بن علي وهو محمد النفس الزكية يثور على المنصور لأنه أخذ البيعة لنفسه قسراً فبايعه الناس والفقهاء مستكرهين. وإذ ببعض الناس في المدينة ينتقض بيعته للمنصور وينضم إلى محمد النفس الزكية إعمالاً لهذا الحديث وتطبيقاً للسنة الشريفة. فأرسل والي المدينة إلى مالك أن يكف عن الكلام في هذا الحديث وأن يكتمه عن الناس لأنه يحرض على الثورة ونقض البيعة. ولكن مالكاً أبى أن يكتم هذا العلم، فكاتم العلم ملعون كما قال، وظل يفسّر الحديث، فأمر الوالي رجاله فضربوا مالكاً بالسوط، ثم جذبوه جذباً شديداً من يده وجروه منها فانخلعت كتفه ثم أعادوه إلى داره وألزموه الإقامة بها لا يخرج فيها حتى للصلاة ولا يلقى فيها أحداً. وأخذ الناس يلعنون والي المدينة والخليفة المنصور. ثم قمع المنصور ثورة محمد وقضى عليهم جميعهم، فاستقدم مالكاً يسترضيه، ولكن مالكاً لم يقم ولم يبرح محبسه في منزله. فأمر المنصور واليه فأطلق مالكاً، ثم جاءه المنصور بنفسه من العراق في موسم الحج، وقال له معتذراً: «أنا أمرت بالذي كان ولا عملته، إنه لا يزال أهل الحرمين بخير ما كنت بين أظهرهم، وإني أخالك أماناً لهم من العذاب، ولقد رفع الله بك عنهم سطوة عظيمة فإنهم أسرع الناس إلى الفتن».

لم يترك المنصور الحجاز حتى طلب إلى الإمام مالك أن يضع كتاباً يتضمن أحاديث الرسول ﷺ وأقضية الصحابة ليكون قانوناً تطبقه الدولة في كل أقطارها بدلاً من ترك الأمر لخلافات المجتهدين والقضاة والفقهاء قال له: «ضع للناس كتاباً أحملهم عليه». فحاول مالك أن يعتذر ولكن المنصور ألحّ عليه: «ضعه فما أحد اليوم أعلم منك». وبعد أن اقتنع مالك برأي الخليفة المنصور عكف على تصنيف الكتاب، وكان قد فكر من قبل بوضع كتاب يجمع فيه الأحاديث وآثار الصحابة، فأخذ يكتب وينقح ويحذف إلى أن أسمى كتابه الموطأ.

وقد استمر في تنقيح كتابه سنين طويلة، أخرج في خلالها علماء المدينة كتباً كثيرة في الأحاديث لآثار الصحابة أسموها الموطآت فسبقوه فيها، فقيل لمالك: شغلت نفسك بهذا الكتاب وقد شركك فيه الناس وعملوا أمثاله، وأخرجوا ما عملوا فقال: «ائتوني بما عملوا». فأتوا به فلما فرغ من النظر فيها قال: «لا يرتفع إلاّ ما أريد به وجه الله». وفي الحق إن شيئاً من تلك الكتب لم يذكر بعد وكأنما ألقيت في الآبار[1].

أما الموطأ فقد أنجزه مالك بن أنس بعد أن قضى المنصور وجاء بعده خليفة وخليفة ثم جاء هارون الرشيد فأراد أن يعلق كتاب الموطأ في الكعبة ولكن الإمام مالك بن أنس أبى.

قال الشافعي: «إذا ذكر الحديث فمالك هو النجم الثاقب».

وقال الليث بن سعد، وإن اختلف معه في بعض الأحيان ونقده، : «مالك وعاء العلم».

شهر الموطأ عن مالك بن أنس، فقد واظب على إسماعه وروايته، وحذف منه ولخّص له حتى آخر حياته. وليس معنى هذا أن ليس لمالك من تصانيف أخرى غيره، بل ذكر له من الآثار الكثير. فمن هذه الآثار ما تنكر نسبته إليه كرسالة «الآداب والمواعظ». ومنها ما لم تشتهر نسبته إليه، وإن قيل إنه أكبر كتبه، مثل كتاب «المناسك»، ومنها ما عزاه إليه تلاميذه ككتاب «المجالسات» الذي بقي حتى القرن العاشر الهجري، وكتاب «المسائل المنسوبة»، وفي مجال النسبة إليه يذكر

(١) أئمة الفقه التسعة، للشرقاوي ص ٩٥.

كتاب «الاستيعاب». ومن المصنفات أيضاً ما ينسب إليه، ولكنه غير قريب من جو ثقافته مثل كتاب «النجوم وحساب دوران الزمان ومنازل القمر»، ومن المصنفات المعزوة إليه «التفسير لغريب القرآن» ويقول السيوطي إنه رأى هذا التفسير في القرن العاشر الهجري. ومن آثاره المشهورة رسالة إلى الليث بن سعد في مصر وهي صغيرة، ويذكر له كذلك رسالة في «الفتوى» ورسالة في «الأقضية» وكتاب «السير». ومما يذكر عنه كتاب «المدونة» وهو من مدونات رجال المذهب في القرن الثاني الهجري وبعده مما يعزى إلى مالك فيه قول أونقل، ولا ينسب إلى مالك بأكثر من هذا فلا هو مما ألقاه أو أملاه[1].

يحتوي الموطأ ما انتهى إلى مالك ما كان يسمى «العلم» في زمنه، وهو علم نقلي مروي طريقه تلقي الخالف من السالف. ويبدو أن هذا العلم الديني النقلي كان جملة متصلة الأجزاء متداخلة الأقسام لم تتميز فروعها بالأسماء التي عرفت بعد ذلك من علم الحديث وعلم التفسير وعلم الفقه والكلام. وقد صنف الموطأ أبواباً هي أبواب الفقه الأخيرة، أو أقرب ما تكون إليها بعناوينها وترتيبها كثيراً. بدأ الموطأ بكتاب «وقوت الصلاة» على حين تبدأ كتب الفقه بكتاب الطهارة. وفي الموطأ أبواب الفقه الأخرى، كالمعاملات والحدود والفرائض والأقضية وغيرها، وقد اختلف ترتيب هذه الأبواب عما عليه كتب الفقه الأخرى. ويلي هذه الأبواب كتاب عنوانه «كتاب الجامع» وفيه فنون من الأعمال والمعارف المختلفة، من اجتماعية عملية، إلى خلقية سلوكية.

إن مرويات مالك وتعليمه إياهاوفتاويه في الواقعات، كل ذلك وما إليه يؤلف مذهباً أو مدرسة فقهية لها في التفكير والتطبيق منهجها الذي يلائم عصرها، وتوجه إليه بيئتها الطبيعية والمعنوية، ولهذا المذهب في تاريخ الفقه الإسلامي، ثم تاريخ الفقه الإنساني مكانة، فقد اتصلت مع مدارس الفقه الإسلامي الأخرى المشهورة وغير المشهورة، فالشافعي قد تتلمذ لمالك، ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة له رواية خاصة لموطأ مالك، وقد تهيأت الأسباب الاجتماعية والسياسية لانتشار المذهب المالكي في أقصى المشرق، كما انتشر في مصر وسواها، وبقي إلى هذا اليوم أحد المذاهب الأربعة الكبرى المشهورة[2]».

(١) مقالة أمين الخولي في مجلة تراث الإنسانية م ١ ص ٢٧٢. (٢) المرجع السابق ص ٢٦٤.

الشافعي

١٥٠ - ٢٠٤ هـ

محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم[١] بن عبدالمطلب بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد.

أما والدة الشافعي فهي حفيدة أخت السيدة فاطمة[٢] أم الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان الشافعي يقول: «علي بن أبي طالب ابن عمي وابن خالتي». فهو قرشي الأب والأم، وكان أبوه فقيراً خرج من مكة يلتمس سعة من العيش في المدينة، ولكنه لم يجد ما خرج لأجله، فرحل بأهله إلى غزة، ومات بها بعد مولد ابنه محمد بنحو عامين.

ولد الشافعي سنة ١٥٠ هـ في غزة وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو حنيفة إمام أهل الرأي في العراق، وفي هذا يروى أن أحد فقهاء المذهب الحنفي قال لأحد الفقهاء الشافعيين: «إمامكم كان مخفياً حتى ذهب إمامنا». فردّ عليه: «ونحن الشافعية نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم».

وفي رواية أخرى عن الشافعي أنه قال: «ولدت بعسقلان وعسقلان من غزة على ثلاثة فراسخ وكلاهما من فلسطين». ويروى أن الشافعي قال ولدت باليمن فخافت أمي عليّ الضيعة فحملتني إلى مكّة وأنا يومئذٍ ابن عشر أو شبيه بذلك،

(١) هاشم هذا الذي في نسب الشافعي ليس هو هاشم جد النبي ﷺ، فذاك هاشم بن عبد مناف، وهاشم هذا هو ابن أخي ذاك.

(٢) فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، من المهاجرات المبايعات، وأم جميع ولد أبي طالب.

وتأوّل بعضهم قوله باليمن بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمن، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها»[1].

ولم تطق الأم المقام في غزة بعد وفاة زوجها، فحملت محمداً إلى عسقلان وهو ابن سنتين، وكانت عسقلان إذ ذاك عروس الشام والخير بها دافق والعيش هنيء. ولكن الحياة في عسقلان لم ترق للوالدة، فحملت ابنها إلى مكة موطنها وموطن آبائه وأجداده ليعيش في كنفهم ولينال نصيبه من المال، وهو سهم ذوي القربى. ولكن المال كان ضئيلاً لم يسمح لهما إلا بالكفاف من العيش، فعرف محمد الحرمان والفقر منذ نعومة أظفاره.

وعندما شب محمد ألحقته أمه بالكتّاب بمكة، ولكنها لم تجد أجر المعلم، فكان المعلم يقصّر في تعليم محمد، ولكن محمداً كان يتلقّف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ محمد يعلم الصبيان تلك الأمور، فنظر المعلم ورأى أن الشافعي يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة فترك طلبها، واستمر الحال حتى تعلم محمد القرآن كله وهو ابن سبع سنوات.

ثم وجهته أمه بعد ذلك إلى تلاوة القرآن وتجويده وتفسيره على شيوخ التفسير والترتيل والتجويد في المسجد الحرام، وما أن بلغ الثالثة عشرة حتى كان قد أتقن القرآن حفظاً وترتيلاً وإدراكاً. ثم اتجه إلى حفظ الحديث، فلزم حلقات شيوخ التفسير يستمع منهم، وكان الورق إذ ذاك غالي الثمن، فكان محمد يلتقط الخزف والدفوف وكرب النخل وأكتاف الجمال، يكتب فيها الحديث، ثم يجيء إلى الدواوين فيستوهب منها الظهور ويكتب فيها، حتى كانت لأمه حباب[2] فملأها أكتافاً وخزفاً وكرباً مملوءة حديثاً. ولمّا كان يجد مشقة وعناء في الحصول على ما يكتب عليه الحديث، فقد اعتمد الحفظ والاستذكار، لذلك تكونت له حافظة قوية مكنته من أن يحفظ كل ما يلقى عليه.

وكان في تأمله للقرآن والأحاديث يشعر بأنه في حاجة إلى ملكة لغوية كبيرة،

---

(١) قال ياقوت: «قلت وهذا عندي تأويل حسن إن صحت الرواية وإلا فلا شك أنه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع. (انظر إرشاد الأريب م ٦ ص ٣٦٨).

(٢) الحُبُّ والجمع حباب وحِبَبَة وأحباب: الجرّة الكبيرة أو الخابية.

وإلى إدراك عميق لمعاني الكلمات وأسرار التراكيب، وكان إذ ذاك يعكف على دروس الليث بن سعد[1] (إمام مصر) في المسجد الحرام كلّما جاء حاجاً أو معتمراً. وكثيراً ما كان الليث ينصح طلابه ومستمعيه بالخروج إلى البادية لتعلم كلام هذيل وحفظ أشعارها، فهذيل أفصح العرب، وشعرهم مليء بدرر اللغة وكنوزها، فقد حفظ الليث نفسه أشعار الهذليين واستشهد به في تفسير بعض مبهمات القرآن الكريم.

وكان لا بد من الخروج إلى البادية، فنسمع من الشافعي يروي عن نفسه[2]: ثم إني خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلم كلامها وآخذ طبعها وكانت أفصح العرب. قال فبقيت فيهم سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمر بي رجل من الزبيريين من بني عمي فقال لي: يا أبا عبدالله عزّ عليّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه فتكون قد سدت أهل زمانك؟ فقلت: فمن بقي نقصد؟ فقال لي: مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذ. قال فوقع في قلبي فعمدت إلى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهراً. وقرّر أن يرحل في طلب الفقه من كل مدارسه، كما رحل من قبل يلتمس الفصحى من خير منابعها في هذيل. واستأذن أمه أن يرحل إلى المدينة المنورة ليدرس الفقه على الإمام مالك بن أنس فأذنت له.

قال الشافعي: ثم دخلت إلى والي مكة وأخذت كتابه إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس. قال فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلمّا أن قرأ قال: يا فتى[3] إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليّ من المشي إلى باب مالك بن أنس فلست أرى الذل حتى أقف على بابه. فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى الأمير يوجّه إليه ليحضر. قال: هيهات ليت أني إذا ركبت

---

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، أبو الحارث، إمام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً. ولد في قلقشندة سنة ٩٤ هـ، وتوفي في القاهرة سنة ١٧٥ هـ. قال عنه الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك إلاّ أن أصحابه لم يقوموا به.

(٢) إرشاد الأريب لياقوت ٦ ص ٣٦٩.

(٣) كان الفتى في نحو العشرين من عمره.

أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا. قال فواعدته العصر وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال لقد أصابنا من تراب العقيق. قال فتقدم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب. قال فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرئك السلام ويقول إن كانت مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال لها: قولي له إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة. قال فدخلت وخرجت في يدها كرسي فوضعته ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية فجلس وهو متطلس[1]، فرفع إليه الأمير الكتاب فبلغ إلى هذا أن هذا رجل من أمره وحاله كذا وكذا فتحدثه وتفعل وتصنع، ثم رمى بالكتاب من يده ثم قال: سبحان الله وصار علم رسول الله ﷺ يؤخذ بالوسائل. قال فرأيت الوالي وقد تهيّبه أن يكلمه، فتقدمت إليه وقلت: أصلحك الله إني رجل مطلبي ومن حالي وقصتي، فلما أن سمع كلامي نظر إليّ ساعة، وكانت لمالك فراسة فقال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد. فقال لي: يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي فإنه سيكون لك شأن من الشأن. ثم قال: نعم وكرامة، إذا كان غد تجيء ويجيء من يقرأ لك. قال فقلت: أنا أقوم بالقراءة. قال الشافعي: فغدوت عليه وابتدأت أن أقرأه ظاهراً والكتاب في يدي، فكلما تهيّبت مالكاً وأردت أن أقطع أعجبه حسن قراءتي وإعرابي فيقول: يا فتى زد حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمت بالمدينة حتى توفي مالك بن أنس[2].

وفي المدينة التقى الشافعي بمحمد بن الحسن[3] تلميذ أبي حنيفة وشيخ أهل الرأي في العراق، والتقى أيضاً ببعض تلامذة الإمام جعفر الصادق، وتعلّم منهم بعض فقه الإمام الصادق وأقضية الإمام علي كرّم الله وجهه، وتعلم من تلاميذ الإمام الصادق رأي الإمام في حقيقة العلم، فالعلم ليس حفظ القرآن والحديث

---

(١) الأَطْلَسُ: الثوب الخلق، وكذلك الطِّلْسُ، ورجل أَطْلَسُ الثوب.

(٢) توفي سنة ١٧٩ هـ.

(٣) محمد بن الحسن بن فرقد، من موالي بني شيبان، أبو عبدالله، إمام الفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة، ولد بواسط سنة ١٣١ هـ، ونشأ بالكوفة. سمع أبا حنيفة وغلب عليه مذهبه، انتقل إلى بغداد فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله، توفي في الريّ سنة ١٨٩ هـ.

والأخبار والأشعار فقط، ولكن العلم يشمل العلوم الطبيعيّة والرياضية التي تفسّر ظواهر الكون وتكشف قدرة الخالق. لذلك قرر الشافعي أن ينهل من منابع العلوم الطبيعية، فتعلم في خلال رحلاته علوم الكيمياء والطب والفيزياء والحساب والفلك والتنجيم والفراسة ومارسها وبرع فيها. وقد تعرف إلى عدد من فقهاء مصر من تلاميذ الليث بن سعد في أثناء زياراتهم إلى المدينة للحج والاستماع إلى الإمام مالك، فنشأت بينه وبينهم صداقة انتفع بها عندما هاجر إلى مصر.

لم تطب الحياة للشافعي بالمدينة بعد وفاة الإمام مالك، فعاد إلى مكة مودعاً المدينة. وكان والي اليمن قد أقبل إلى الحجاز في ذلك الوقت، فتوسط بعض أقرباء الشافعي من القرشيين عند والي اليمن، فصحبه معه إلى اليمن ووكل إليه عملاً. قال الشافعي[1]: ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن، وكان بها والٍ من قبل الرشيد، وكان ظلوماً غشوماً وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه من الظلم. قال وكان باليمن تسعة من العلوية قد تحركوا، فكتب الوالي إلى الخليفة يقول إن أناساً من العلوية قد تحركوا وإني أخاف أن يخرجوا وإنّ ها هنا رجلاً من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي. قال فكتب إليه هٰرون أن احمل هؤلاء واحمل الشافعي معهم، فقرنت معهم. قال فلما قدمنا على هرون الرشيد أدخلنا عليه وعنده محمد بن الحسن. قال فدعا هٰرون بالنطع والسيف وضرب رقاب العلوية، ثم التفت محمد بن الحسن فقال: يا أمير المؤمنين هذا المطلبي لا يغلبنك بفصاحة فإنه رجل لسن. فقلت: مهلاً يا أمير المؤمنين فإنك الداعي وأنا المدعوّ، وأنت القادر على ما تريد مني ولست القادر على ما أريده منك يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه والآخر يراني عبده أيهما أحب إليّ؟ قال: الذي يراك أخاه. قال: قلت فذاك يا أمير المؤمنين. قال فقال لي: كيف ذاك. فقلت: يا أمير المؤمنين إنكم ولد العباس وهم ولد علي ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم وهم يرونا عبيدهم. قال فسري ما كان به فاستوى جالساً فقال: يابن إدريس كيف علمك بالقرآن؟ قلت: عن أي علومه تسألني عن حفظه فقد حفظته ووعيته بين جنبيّ وعرفت وقفه وابتداءه وناسخه ومنسوخه وليليّه ونهاريّه ووحشيّه وأنسيّه وما خوطب به العام يراد به الخاص وما خوطب به الخاص يراد به

(١) إرشاد الأريب لياقوت م ٦ ص ٣٧١.

العام. فقال لي: يابن إدريس لقد ادّعيت علماً فكيف علمك بالنجوم؟ فقلت: إني لأعرف منها البـريّ والبحري والسهليّ والجبليّ والفيلق[1] والمصبح وما تجب معرفته. قال: فكيف علمك بأنساب العرب؟ قال فقلت: إني لأعـرف أنساب اللئام وأنساب الكرام ونسبي ونسب أمير المؤمنين. قال لقد ادّعيت علماً فهل من موعظة تعظ بها أمير المؤمنين؟ قال: فذكرت موعظة لطاوس اليماني[2] فوعظته بها فبكى وأمر لي بخمسين ألفاً وحملت على فرس وركبت من بين يديه وخرجت فما إن وصلت الباب حتى فرقت الخمسين ألفاً على حجاب أمير المؤمنين وبوابيه.

وكان محمد بن الحسن الذي استضاف الشافعي في الكوفة من قبل، قد أصبح قاضي الدولة، واستضاف الشافعي مرة ثانية في بيته إلى أن ينظر الرشيد في أمره.

وحاول محمد بن الحسن أن يجذبه إلى صف بني العباس بدلاً من بني علي، ولكن الشافعي كان قد أقسم على ألّا يخوض غمرات الصراع السياسي، وألّا يقبل منصباً إدارياً، ولن يهب نفسه إلّا للعلم والفقه، واعترف بأنه أخطأ يوم قبل المنصب في اليمن عندما خرج إليها مع واليها من قبل.

وهكذا عكف الشافعي على الطب والطبيعة والرياضيات يستكمل ما فـاته منها، وعاد يدرب نفسه على الرمي وركوب الخيل ممّا تدرب عليه في بادية هذيل، ووزع وقته بين هذا وبين دراساته الفقهية ودراسة مـا جرى تـرجمته من ثقـافات المصريين القدماء واليونان والفرس والهند. ثم اتخذ لنفسه داراً وبدأ يدرس فقه العراق على يد محمد بن الحسن تلميذ الإمام أبي حنيفة.

ولزم الشافعي حلقة محمد بن الحسن في بغداد، وشاهد في الحلقة مخالفة لمالك وهجوماً على آرائه، وكان لخجله من مواجهة محمد بخـلافه حـول آراء مالك، ينتظر انصرافه عن حلقته، ويسرع إلى مناظرة تلاميذ محمد مـدافعاً عن

---

(١) الفِلْقُ والفَليق والفَيْلَقُ والفَلَقي، كله: الداهية والأمر العجب.

(٢) هو طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء، أبو عبد الرحمن: من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية للحديث وتقشفاً في العيش وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك. أصله من الفرس، ومولده في اليمن سنة ٣٣ هـ. توفي حاجاً بالمزدلفة (أو بمنى) سنة ١٠٦ هـ. قـال ابن عيينة: متجنبو السلطان ثلاثة: أبو ذر وطاووس والثوري.

مالك وفقهه وآرائه، حتى أطلق عليه أهل العراق اسم «ناصر السنّة». وعرف محمد بذلك وأصرّ على مناظرة الشافعي، وأبى الشافعي خجلاً، ولكن محمداً ألحّ عليه فتناظرا في رأي الإمام مالك في الاكتفاء بشاهد واحد مع اليمين، وظهر الشافعي على محمد في المناظرة[1].

أعجب محمد بالشافعي وأولع بمناظرته، كما أعجب الشافعي بعلم محمد وبخلقه العلمي، وقد قال عنه الشافعي: ما رأيت أحداً سئل في مسألة فيها نظر إلاّ رأيت الكراهة في وجهه إلا محمد بن الحسن.

وعلى الرغم من أن محمد بن الحسن كان من أهل الرأي ومن أتباع الإمام أبي حنيفة، وكان الشافعي من أتباع الإمام مالك شيخ أهل السنة ـ وبين مالك وأبي حنيفة خلاف كبير في الأصول والفروع ـ فإن محمداً كان يمدح علم الشافعي لتلاميذه ممّا دفعهم إلى سؤاله عن سبب إيثاره الشافعي عليهم، فكان يقول لهم: لتأنيه وتثبته في السؤال والاستماع.

وقد أثرت الحياة الفكرية في بغداد ثراء عظيماً من هذه المحاورات، وكانت مثالاً لأدب المناظرة وبراعة المتناظرين في التثبت والاستماع وإبراز الرأي والتحلّي بالخلق الكريم.

وهكذا أقام الشافعي في بغداد سنوات قليلة ينهل من مناهل علومها الطبيعية والدينية والفقهية ويناظر فقهاءها ويقرأ كتاب مالك «الموطأ» عليهم ويدافع عن أهل الحديث ويفيد من أهل الرأي في العراق.

وكان الخليفة الرشيد قد أعجب بمناظراته وعرض عليه أن يوليه القضاء في أي مكان يختاره، ولكن الشافعي استأذن الخليفة في التفرغ للتعليم فقط، وأن يأذن له بالعودة إلى مكة ليعيش بين أهله ورهطه من القرشيين، فأذن له الرشيد بذلك.

وعاد الشافعي إلى مكة أم القرى متخذاً لنفسه مجلساً للفتوى والتدريس في فناء بئر زمزم بجوار مقام إبراهيم وهو المجلس الذي اختاره عبدالله بن عباس

---

(١) رجع الشافعي عن هذا الرأي عندما رحل إلى مصر وسمع من تلاميذ الليث بن سعد حجة إمامهم في التمسك بشاهدين، فأخذ برأي الليث.

المفسّر وأحد الذين حفظوا أقضية الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه. عاد الشافعي وما زالت المناظرات التي جرت في بغداد نصب عينيه، فقد أتاح له مقامه في بغداد أن يقترب من مفاهيم أهل الرأي فيها، وأن يقرّب أهل السنة من أهل الرأي، وكان في ذلك كله مفتوناً بالطريق الوسط الذي اختطه الليث بن سعد المصري في التوسط بين أهل الرأي وأهل السنة، وكان عليه أن ينهل من هذا الطريق الوسط، وهذا يعني الاستعداد للسفر إلى مصر، ولكنّ أهله وتلاميذه ومريديه يستبقونه ويريدونه معهم في مكة يعلمهم ويرشدهم ويفقههم، وهكذا بقي في مكة إلى أن يأذن الله له بالسفر إلى مصر.

وحان وقت الرحيل إلى مصر، ويقال إن الشافعي قدم إليها سنة ١٩٩ هـ في أول خلافة المأمون، وكان سبب قدومه أن العباس بن عبدالله بن العباس بن موسى بن عبدالله بن العباس استصحبه فصحبه، وكان العباس هذا خليفة لأبيه عبدالله على مصر، ولم يزل الشافعي بمصر إلى أن ولي السري بن الحكم البلخي[1] سنة ٢٠٠ هـ من قوم يقال لهم الزط مصر واستقامت له وكان يكرم الشافعي ويقدمه ولا يؤثر أحداً عليه، وكان الشافعي محبباً إلى الخاص والعام لعلمه وفقهه وحسن كلامه وأدبه وحلمه. وكان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس يقال له فتيان فيه حدة وطيش وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما. فتناظرا يوماً في مسألة بيع الحر وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقواله، ومنع فتيان منه لأنه يمضي عتقه بكل وجه وهو أحد أقوال الشافعي، فظهر عليه الشافعي في الحجاج، فضاق فتيان بذلك ذرعاً، فشتم الشافعي شتماً قبيحاً فلم يردّ الشافعي عليه حرفاً، ومضى في كلامه في المسألة، فرفع ذلك رافع إلى السري، فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه فأخبره بما جرى وشهد الشهود على فتيان بذلك فقال السري: لو شهد

---

(١) السري بن الحكم بن يوسف: أمير من الولاة. كان مقداماً فاتكاً فيه دهاء. أصله من خراسان، دخل مصر أيام الرشيد ولما مات الرشيد ودعا المأمون إلى خلع الأمين، قام السري بالدعوة في مصر، فارتفع شأنه، وكان شجاعاً فأحبه الجند وولي سنة ٢٠٠ هـ فأقام ستة أشهر وثار عليه بعض قواد الجند فخلعوه سنة ٢٠١ هـ، ثم أعاده المأمون في السنة نفسها: وأقام في ولايته إلى أن توفي سنة ٢٠٥ هـ.

آخر مثل الشافعي على فتيان لضربت عنقه، وأمر بفتيان فضرب بالسياط وطيف به على جمل وبين يديه منادٍ ينادي: هذا جزاء من سبّ آل رسول الله ﷺ[1]. ثم إن قوماً تعصّبوا لفتيان من سفهاء الناس فقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه وبقي وحده فهجموا عليه وضربوه بهراوات أخفوها في ملابسهم وهربوا.

وحمل الإمام إلى منزله فاقد الوعي، وعندما أفاق بدأ يعاني آلام الضرب والنزيف. ولم يفده العلاج، فأرسل إلى السيدة نفيسة[2] يسألها الدعاء كما تعوّد كلما ألمّ به مرض، فقالت لرسوله: «أحسن الله لقاءه ومتعه بالنظر إليه» فعلم أنها نهايته وقرب حتفه.

وحدث المزني وهو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى قال: دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولكأس المنية شارباً وعلى الله جلّ ذكره وارداً ولا والله ما أدري روحي تصير إلى الجنة أو إلى النار فأعزيها ثم بكى وأنشأ يقول:

فلما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك سلّما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرّما
فلولاك لم يقدر بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوى صفيّك آدما

ثم نادى أصحابه الذين لزموا داره في علّته ونصحهم بأن يعتنوا باللغة العربية وعلومها، وطلب من أحدهم أن يقرأ عليه ما بعد العشرين والمائة من سورة آل عمران، ثم أوصى لغلامه وجواريه الثلاث. بعد أن ترك لأبنائه[3] وأهله إرثهم الشرعي.

---

(١) كان الشافعي من بني عبد المطلب من آل الرسول ﷺ.

(٢) نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب: صاحبة المشهد المعروف بمصر. كانت تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث. ولدت بمكة سنة ١٤٥ هـ، ونشأت في المدينة، وتزوجت إسحاق المؤتمن ابن جعفر الصادق، وانتقلت إلى القاهرة فتوفيت فيها سنة ٢٠٨ هـ. حجت ثلاثين حجّة وكانت تحفظ القرآن، وسمع عليها الشافعي.

(٣) قال ابن يونس: كان للشافعي ابن اسمه محمد قدم مع أبيه مصر، توفي بها في شعبان سنة ٢٣١ هـ، وقيل كان له ولد آخر اسمه محمد أيضاً يروي عن سفيان بن عيينة ولي قضاء الجزيرة وتوفي بها بعد =

وفي ليلة الجمعة ٢٨ رجب سنة ٢٠٤ هـ توفي الشافعي وانتقل إلى ربه وله من العمر ٥٤ سنة، وشيع آخر رجب وحملت جنازته إلى دار السيدة نفيسة فصلّت عليه وقالت: «رحمه الله كان رجلاً يحسن الوضوء»[١].

وفي كتاب خطط مصر لأبي عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي القضاعي المصري صاحب كتاب الشهاب قال: توفي في سلخ رجب سنة ٢٠٤ هـ بمصر ودفن غربي الخندق في مقابر قريش وحوله جماعة من بني زهرة من ولد عبدالرحمن بن عوف الزهري وغيرهم، وقبره مشهور هناك مجمع على صحته.

مؤلفات الإمام الشافعي:

ألّف الشافعي كتبه في مكة وبغداد ومصر، وكانت مؤلفاته كثيرة بحيث عسر حصرها، بعضها كتبه بنفسه، وبعضها أملاه على رواته وحاملي فقهه وعلمه. وقد ذكر ابن النديم في فهرسته ثبتاً بهذه الكتب الكثيرة[٢]، وكذلك فعل البيهقي[٣]. وأكثر هذه الكتب هي رسائل ألّفها في أبواب الفقه المختلفة، ويعتبر بعضها كتباً مستقلة، ومن هذا الضرب الثاني كتاب الحجة، وكتاب الرسالة، وكتاب اختلاف الحديث، وكتاب الرد على محمد بن الحسن، وكتاب السنن.

ولعل كتاب الحجة كان أول كتاب في الرد على العراقيين بعد أن اطلع الشافعي على كتبهم. يقول ابن حجر عن الشافعي نفسه أنه قال: «اجتمع عليّ أصحاب الحديث فسألوني أن أضع على كتاب أبي حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم حتى أنظر في كتبهم، فكتبت لي كتب محمد بن الحسن، فنظرت فيها سنة حتى حفظتها، ثم وضعت الكتاب البغدادي» يعني الحجة.

ومن كتبه أيضاً المجموعة الكبرى التي تسمى «الأم»، وقد ذكر أن عدة كتب

= سنة ٢٤٠ هـ. وقيل إنه في آخر عمره تزوج أم ولده واسمها دنانير، بعد وفاة زوجته حميدة، وأنجبت له دنانير ابنه أبا الحسن عام ٢٠٢ هـ، وبذلك كان له ولدان أبو عثمان محمد وأبو الحسن وابنتان هما زينب وفاطمة، وهؤلاء الذين مات عنهم الإمام الشافعي.

(١) أي إنه كان رجلاً صالحاً حسن العبادة، فالوضوء أصل العبادة على حد تعبير السيدة نفيسة.

(٢) الفهرست ص ٢٩٥ / ٢٩٦.

(٣) انظر توالي التأسيس لابن حجر ص ٧٨.

الأم مائة ونيف وأربعون كتابا، وهذا يدلّنا على أن تسمية هذه المجموعة الفقهية الكبرى بهذا الاسم ليست للشافعي، فإن الذي سمّى هذا المجموع هو الربيع بن سليمان نفسه. فالناظر في الكتاب يعلم أن الربيع بيّن ما سمعه بنفسه من الإمام، وما وجده مكتوباً بخطه، كما بيّن ما لم يسمعه بنفسه، بل أخذه عن غيره بعد أن يثق بأنه للإمام حقاً.

أما كتاب «الرسالة» فقد كتبه الشافعي مرتين، الأولى بمكة حين كتب إليه عبدالرحمن بن مهدي أن يضع له كتاباً في معاني القرآن، ويجمع مقبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنّة، فوضع له كتاب «الرسالة» ثم أرسله إليه، وهي الرسالة القديمة التي عرفت عنه بالعراق. ثم كتبها مرة ثانية بمصر بعد أن أعاد النظر فيها ورضيها، وهي الرسالة الجديدة التي وصلت إلينا كما هي.

أحمد بن حنبل

١٦٤ - ٢٤١ هـ

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبدالله بن حيان بن عبدالله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار، يكنى أبا عبد الله، البصري، من أهل خراسان، ولد ببغداد سنة ١٦٤ هـ ونشأ بها. قال صالح بن أحمد بن محمد بن حنبل: ولد في سنة أربع وستين ومائة في ربيع الأول وجيء به من مرو حملاً. وذكر أبو زرعة، قال: أحمد بن حنبل أصله بصري وخطته بمرو. وقد كان أحمد من أسرة عربية، فكان عربياً من جهة أمه، إذ ينتمي الاثنان إلى قبيلة شيبان وهي قبيلة ربعية عدنانية تلتقي مع النبي ﷺ في جده العالي نزار. وكانت أسرته قد استحوزت على مجد عالٍ في الدولتين الأموية والعباسية، فجده كان والياً في إحدى الولايات بخراسان، وأبوه كان قائداً عربياً من قواد الجيش العربي العباسي قبل أن يتغلب العنصر الفارسي على العنصر العربي في الجيش الإسلامي، إذ لم يتم ذلك إلّا سنة ١٩٨ هـ، وأبوه كان قائداً قبل هذا التاريخ[١]. وكان أبوه قد ترك قيادته في الجيش وعاد إلى بغداد حيث ولد ابنه أحمد. على أن والده توفي وأحمد لم يبلغ سن الفهم بعد، ويقال إنه لم يرَ أباه. فقامت أمه تحضنه وتسهر على تربيته وتنشئته برعاية عمه. وأرادت هذه الأم أن تستبدل سلطان المادة ـ بعد وفاة الأب ـ بسلطان العلم، وقد بدت على مخايل الابن معالم النزوع إليه، فدفعته في طريق العلم، وكانت بغداد آنذاك زاخرة بأنواع المعارف والفنون والعلوم، تغص بالفقهاء

(١) انظر مقالة الشيخ أبي زهرة، تراث الإنسانية م ١ ص ١٨٦.

والمحدثين والمتصوفة والفلاسفة والحكماء وعلماء اللغة والنحو والشعراء.

وعلى عادة أبناء زمنه بدأ أحمد حياته العلمية باستحفاظ القرآن الكريم، ثم طلب الفقه، فسمعه على الإمام أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، ولمّا شذا من فقهه شطراً، أخذ عن غيره من الفقهاء، ثم رأى أن يطلب علم الحديث، طالباً مصدر الفقه قبل أن يتبحرّ. فكان أول طلب له للحديث سنة ١٧٩ هـ، وكان في الخامسة عشرة من عمره، طلبه من محدّثي بغداد آنذاك. ولمّا وجد أن محدّثي عصره كانوا متفرقين في أنحاء متباينة، عزم على الرحيل إليهم والإتصال بهم ومشافهتهم بحيث لا يكتفي بالروايات المنقولة عنهم. وهكذا كانت بداية رحلاته سنة ١٨٦ هـ، وكانت البصرة المحطة الأولى للتزوّد من الحديث. ثم رحل إلى الحجاز، وفيها كان لقاؤه مع شيخه الإمام الشافعي، ثم توالت رحلاته إلى البصرة، ويروى أنه رحل إليها خمس مرات، ثم قصد الكوفة، وصوّب إلى الحجاز، فزاره خمس مرات أيضاً، كانت أولى زيارة له سنة ١٨٧ هـ ثم ١٩١ و١٩٦ و١٩٧، ثم حج سنة ١٩٨ واستمر هناك إلى سنة ١٩٩. ويروى أنه حج ثلاث مرات ضل طريقه في واحدة منها. ثم زار اليمن فطلب الحديث من عبد الرزاق بن همام المحدث، وكان يمكنه أن يأخذ عنه وهو بالحجاز، إذ لقيه عندما كان على أهبة الاستعداد للسفر إلى اليمن، ولكنه رأى أن يسافر إليه فيتحمل صعاب السفر، لاعتقاده أنه كلما عظمت المشقة في الطلب اشتد الحرص على ما أخذ، ولذا سافر إليه في صنعاء وتحمّل ما تحمّل من أعباء السفر والجهد والفاقة بحيث نفذت نفقاته فأجرّ نفسه للجمالين بقليل من المال يقوم بأوده[1].

طوّف أحمد في الأقاليم الإسلامية المتفرّقة طلباً للحديث لا يستكثر الكثير من الجهد والتعب، يحمل رزم كتبه على عاتقه، وقد صادفه بعض عارفيه في إحدى رحلاته هذه، وهو يعلم كثرة ما رواه عن الحديث وحفظه وكتبه، فقال له: «مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة! إلى متى؟ فقال له أحمد: «مع المحبرة إلى المقبرة». هذه المحبرة كان يدوّن بها ما يسمع من أحاديث الرسول ﷺ، لأن العصر كان عصر تدوين، ففيه جمع الفقه ودوّن، وجمعت اللغة وأشعار العرب،

---

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص ٢٢ الباب الرابع (ذكر ابتدائه في طلب العلم ورحلته فيه).

ونثرهم، فكان لا بد له من جمع الحديث وتدوينَه، فكان لا يجد سبيلاً إلى التدوين إلاّ سلكه فكان يعمل أولاً على سماع الحديث من راويه، ثم يدونه، ثم يحفظه في صدره، ولمّا بلغ الحفظ والتدوين، كان لا يعتمد على حفظه فقط عندما يتلقّى عنه غيره، ليكون متثبتاً في كل ما يؤخذ عنه. ويروى أنه سأله بعض أهل مرو عن حديث، فأمر ابنه عبدالله أن يحضر له كتاب الفوائد ليبحث فيه عن الحديث، ولكنه لم يجده، فقام بنفسه وأحضر الكتاب وأخذ يبحث عن الحديث[1].

قال أحمد الدورقي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: نحن كتبنا الحديث من ست وجوه وسبع وجوه لم نضبطه، كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد؟

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبا زرعة يقول: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث. فقيل له: وما يدريك؟ قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

وقيل لأبي زرعة: من رأيت من المشايخ المحدثين أحفظ؟ قال: أحمد بن حنبل، حرّر كتبه اليوم الذي مات فيه فبلغت اثني عشر جملاً وعدل، ما كان على ظهر كتاب منها حديث فلان، ولا في بطنه حدثنا فلان، وكل ذلك كان يحفظه من ظهر قلبه[2].

وسُمع أحمد بن سعيد الرازي يقول: ما رأيت أسود الرأس أحفظ من حديث رسول الله ﷺ، ولا أعلمْ بفقهه ومعانيه من أبي عبدالله أحمد بن حنبل.

وسمع محمد بن يونس ـ وذكر الفقه ـ يقول: ليس ثمة ـ يعني ببغداد ـ إلاّ ذلك الرجل ـ يعني أحمد بن حنبل ـ ما جاء من ثمّ أحد مثله يحسن الفقه، فذكر له علي بن المديني، فقال بيده ونفضها.

كان أحمد في جمعه الحديث يجمع الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ، ويجمع أعمال الرسول ﷺ وتقريراته، أي ما يقرّ أصحابه عليه ويجمع لأجل هذا أقوال بعض التابعين وفتاويهم، إذا كانوا قد بلغوا منزلة من الفتوى تكون حجة

(١) انظر مناقب الإمام أحمد ص ٢٨ / ٢٩.

(٢) مناقب ص ٦٠.

للأخذ عنهم. وإن كان أحمد قد ابتدأ حياته بطلب الفقه، ثم تفرغ لطلب الحديث، فإنه لم ينقطع عن الفقه، فقد كان يأخذ عن فقهاء عصره ما يرى فيه علماً بما لم يكن يعلم، كما أخذ عن الشافعي عندما التقاه بمكة سنة ١٨٧ هـ وملازمته له في الفترة التي قضاها ببغداد. ولذا جاء فقهه مشابهاً لفقه الصحابة والتابعين لأنه استقى منهم، حتى إنه كان لا يرجح بعض آراء الصحابة على بعض، فإذا روى رأيين لاثنين من الصحابة أو ثلاثة، اعتبر آراءهم جميعاً أوجهاً في مذهبه أو آراء فيه، إلّا إذا أُيد أحد الأراء بحديث للنبي ﷺ فإنه يختاره دون سواه.

لم تخل حياة أحمد من بعض المحن التي عصفت به، تلك هي المحنة التي أصيب بها طوال خلافة المعتصم والواثق العباسيين. وكانت بسبب ما أثاره أئمة الاعتزال من ضرورة القول بخلق القرآن وتكفير من لم يقل بذلك، وكان المأمون قد أخذ بهذا الرأي المعتزلي، فأشار على وزيره فأنزل بالفقهاء والمحدثين أسباب العذاب، فمنع القضاة من مناصبهم إلّا إذا أقرّوا بخلق القرآن، ومنع الفقهاء من الإفتاء، والمحدثين من أن يحدثوا إلّا إذا قالوا بذلك، بل إن الشهود في مجالس القضاء ما كانت لتسمع شهاداتهم إلّا إذا وافقوا على هذا القول. على أن وزير المأمون لم يكتف بذلك، بل عمد إلى تهديد الفقهاء والمحدثين، فأحضرهم وتوعدهم فخضعوا جميعاً إلّا ثلاثة نفر واحدهم أحمد بن حنبل. فسيق هؤلاء مكبلين بالحديد سنة ٢١٨ هـ من بغداد إلى طرسوس، حيث كان المأمون، وفي الطريق إليه وهن أحد الثلاثة ففك قيده، ومات الآخر إعياءً وجهداً، وبقي أحمد بن حنبل، صابراً على القيد والتعب راضياً بالعذاب على أن لا يخوض في أمر لم يخض فيه أحد من الصحابة والسلف الصالح من قبل.

وقبل وصوله طرسوس، توفي المأمون، ولكن الخلاص لم يكتب لأحمد، فقد وصى المأمون أخاه المعتصم بالعمل على إخضاع من لم يقل بخلق القرآن، وكان المعتصم رجلاً عسكرياً، فنفذ وصية أخيه أعنف تنفيذ، فطالت المحنة بأحمد واشتدت ولاقى من جرّاء هذا أصناف العذاب، فزج به في غياهب السجون، وضرب بالسياط مرة بعد أخرى، ولم يترك في كل مرة إلّا بعد أن يغمى عليه، وينخس بالسيف فلا يشعر، واستمر مسجوناً نحواً من ثمانية وعشرين شهراً، فلما يئسوا منه أطلقوا سراحه وأعادوه إلى بيته. ولشدّة ما كان أصابه من الضرب

والتعذيب كان لا يقوى على السير، فانقطع عن الدرس من غير منع إلى أن التأمت جراحه، واستطاع الخروج إلى المسجد، فعاد إلى حلقته يدرّس ويحدّث ويفتي الناس، فازداد إكباراً عند الناس فأقبلوا على سماع درسه، واقتدى به وبصبره على محنته الكثير من الفقهاء والمحدثين من الذين كانوا قد خضعوا وأذعنوا للمأمون فقالوا قوله.

وظل أحمد في مجالس التدريس والرواية بقية مدة المعتصم، فلما جاء الواثق خلفاً له، ومعه وزيره أحمد بن أبي دؤاد، وكان هو الذي حرّض المأمون من قبل، حرض الواثق على إعادة محنة أحمد ومن تبعه، فأعادها الواثق، ولكن على صورة جديدة من الإرهاب، فلم يضرب بالسياط ولم يسجن، بل مُنع من الاجتماع بالناس والتحديث والإفتاء، ثم إنه قال لأحمد: «لا تجمعنّ إليك أحداً ولا تساكني في بلد أنا فيه».

وهكذا طالت المحنة بالإمام، في هذا السجن الفكري هذه المرة، وهي محنة أشدّ من سابقتها، حيث منع من رواية الحديث والإفتاء، وهو الأمر الذي وهب له حياته كلها، وجهد في جمع أحاديث الرسول ﷺ ما جهد، وطاف وعانى ولاقى من الأهوال ما لاقى. وشاء الله عزّ وجلّ بعد ذلك أن يرفع المحنة عن الإمام أحمد بن حنبل، فقد تولى المتوكل الخلافة، وكان يناصب المعتزلة العداء، فطرد أحمد بن أبي دؤاد، ورفع المحنة عن أحمد وبقية من نزل بهم البلاء، وقرّب الإمام أحمد إليه. وعرض عليه المتوكل بعُد ذلك العطاء مرات، فكان يرفض، ويرد العطية بتهذيب. فكان يسأل عن ذلك، أحرام هو؟ فيقول: ليس بحرام، ولكنّي أتركه تنزّهاً.

توفي أبو عبدالله أحمد بن حنبل في سنة إحدى وأربعين ومائتين في يوم الجمعة في ربيع الأول وهو ابن سبع وسبعين سنة.

مسند الإمام أحمد بن حنبل:

كان هم الإمام جمع أحاديث رسول الله ﷺ عن الثقات الذين عاصروه، ومن كانوا على كثب منه، ومن بعدوا عنهم سعى إليهم جاهداً، ولم تكن همته متجهة إلى ترتيب ما يجمع وتبويبه، بل كانت متجهة إلى الجمع والتدوين، وقد استمر في

الجمع والتنقيح والتحقيق في الروايات من حيث توثيق الرواة وضعفهم، ولكنه كان تحقيقاً فيما رواه ولذلك استمرت المدونات لديه في مجموعات متفرقة على نحو مسودات حتى أحسّ بدنو الأجل، فجمع بنيه وخاصته وأملى عليهم ما كتب وأسمعهم إياه مجموعاً من غير ترتيب، إذ كان همه ألّا يضيع شيء مما جمعه. يقول شمس الدين الجزري في ذلك: «إن الإمام أحمد شرع في جمع المسند، فكتبه في أوراق، وفرقه في أجزاء متفرقة على نحو ما تكون المسودة، ثم جاء حلول المنية، فبدأ بإسماعه لأولاده وأهل بيته، ومات قبل تنقيحه وتهذيبه، فبقي على حاله، ثم إن ابنه عبدالله ألحق به ما يشاكله وضمّ إليه من مسموعاته ما يشابهه ويماثله».

على أن أحمد بن حنبل ما كان يحب تدوين العلوم الإسلامية، ما عدا الحديث كي لا يستغني الناس بها من الرجوع إلى مصدر الفقه الأول وهو نصوص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وروي أن ابنه عبدالله سأله يوماً، فقال: لم كرهت وضع الكتب وقد عملت المسند؟ فقال مجيباً: «عملت هذا الكتاب إماماً إذا اختلف الناس رجعوا إليه».

روى عبدالله مسند أبيه ونشر علمه بين الناس، وهو علم السنة، ثم تسلسلت الرواية عنه بالسماع راوياً عن راوٍ وكانوا جميعاً ثقاتاً أثباتاً. ويظهر من أخبار المسند أن عبدالله هو الذي رتّب المسند بالوضع الذي نعرفه الآن، وحاول بعده من المحدثين والحفاظ أن يغيروا هذا الترتيب ويجعلوه مرتباً على نسق كتب السنة الصحاح المعروفة كالبخاري ومسلم وسنن أبي داود، وهي مرتبة حسب موضوعاتها، وبذلك تسهل الإفادة ويرجع إلى الأحاديث المروية في كل موضوع بالذات. وقد جهد عبدالله حقاً في ترتيب مسند والده، فقد جمع أحاديث كل صحابي في مكان واحد من غير نظر في الموضوع، من ذلك أنه جمع ما روي عن أبي بكر ويسمى مسند أبي بكر، وعن عمر ويسمى مسند عمر، وهكذا إلى بقية الخلفاء الراشدين، والفقهاء من الصحابة وغيرهم. يقول الذهبي: «لو أنه حرّر ترتيب المسند وقرب وهذب لأتى بأسنى المقاصد، فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامي من يخدمه، ويبوبه، ويتكلم عن رجاله، وترتيب هيئته

ووضعه، فإنه محتوٍ على أكثر الحديث النبوي، إن شاء الله تعالى، وقلّ أن يثبت حديث إلاّ وهو فيه».

سار عبدالله إذاً في ترتيب المسند سيراً عسر المراجعة كما قرر المحدثون، وكان مخالفاً لما سارت عليه كتب الحديث من قبل، فالموطأ رتب على حسب الموضوعات وكذلك الصحاح من بعده، فسهل الرجوع إليها وحسن الانتفاع بها، أما ترتيب عبدالله فكان يأتي بكل ما روي عن الصحابي فإذا كان مرسلاً لم يذكر اسم الصحابي فإنه يذكر التابعي، فيقول مثلاً: مسند نافع مولى عبدالله بن عمر، أو مسند سعيد بن المسيب، أو مسند شهاب، وغيره من الصحابة.

ولم يسلك في ترتيب الصحابة أيضاً ترتيب حروف المعجم، بل ابتدأ بالأفضل فالأفضل من الصحابة، بادئاً بالعشرة المبشرين بالجنة، ثم من يليهم، وتابعيهم وهكذا على هذا النحو.

البخاري

١٩٤ - ٢٥٦ هـ

أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه، وبردزبه فارسي تعريبه الزارع، الجعفي ولاءً البخاري مولداً. والجعفي نسبة إلى اليمان الجعفي الذي شرف الله جده المغيرة بالإسلام على يده، فانتهى إليه بولاء الإسلام. ولد في بخارى يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة ١٩٤ هـ. كان أبوه إسماعيل عالماً تقياً، قال عنه الذهبي[١]: «من العلماء العاملين والنبلاء الورعين».

قبل حلول سنة ١٧٩ هـ، خرج أبو محمد إسماعيل إلى مكة حاجّاً، فلقي إمام المدينة مالك بن أنس وعبدالله بن المبارك، وحدّث عن أبي معاوية بن صالح وطائفة من المحدثين، وروى عنه أحمد بن حفص من العراقيين. وقد بلغ مرتبة رفيعة في الورع حتى إن أحمد بن حفص قال: «دخلت عليه عند موته فقال: لا أعلم في جميع مالي درهماً من شبهة، فتصاغرت إلى نفسي بعد ذلك».

في هذا البيت العابق بالتقوى والحديث والثراء العريض نشأ محمد بن إسماعيل بين والديه. غير أن الوالد ما لبث أن فارق الدنيا وابنه لم يزل طفلاً بعد، فحضنته الوالدة تحبوه بعطفها وحنانها. ثم لمّا شبّ وجهته إلى الكتّاب ليدرس مع أترابه الكتابة والقراءة والقرآن والحديث النبوي الشريف. وما إن بلغ محمد العاشرة من سنة حتى بدت عليه علائم النجابة ومخائل الذكاء بصورة نادرة في هذا العمر المبكر. فكان أن ألهمه الله تعالى حفظ الحديث على حد تعبيره، حدث محمد بن أبي حاتم الوراق قال: قلت لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري: كيف كان بدء أمرك في طلب الحديث؟ قال: ألهمتُ حفظ الحديث وأنا في

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٢٤.

الكتّاب. قال: كم أتى عليك إذ ذاك؟ قال: عشر سنين.

ولمّا بلغ الحادية عشرة، وكان قد نهل من الكتّاب منهلاً عذباً، ووجد أن نفسه لم ترتوِ، وأنها ما زالت ظمأى إلى تحصيل الحديث وطلبه، عزم على ورود أئمة الحديث ينهل من نبعهم المترع، وكان في اختلافه إليهم يمتاز بالعقل النافذ والذاكرة الحاضرة والخلق الكريم. وكان قد بلغ من قوة البصر بالحديث والسماع على شيوخه ما جعله يصحّح ما يخطىء فيه الشيوخ، من مثل ما حدث مع شيخه وأستاذه الداخلي، فقد دخل معه في نقاش علمي هدف فيه إلى إثبات الحق، ممّا دفع بالشيخ إلى التسليم للتلميذ البخاري وكتابة ما أرشده إليه من الحق والتصحيح. يقول البخاري في هذه الحادثة: «ثم خرجت من الكتّاب بعد العشر - أي بعد سن العاشرة - أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوماً فيما كان يقرأ على الناس: «سفيان عن أبي الزبير المكي عن إبراهيم النخعي. فقلت له: يا أبا فلان إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرني. فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك. فدخل ونظر فيه ثم خرج فقال: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزبير بن عديّ عن إبراهيم. فأخذ العلم مني وأحكم كتابه، فقال: صدقت: فقال له بعض أصحابه: ابن كم كنت إذ رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة»[1].

ثم ما زال محمد يندفع في التحصيل ويحوز إعجاب وتقدير شيوخه له، فما أتت عليه السنون الست عشرة حتى كان قد حفظ كتب ابن المبارك ووكيع وهما محدّثا عصره ولهما من المكانة ما هو معروف.

وما كان هذا التحصيل المبدع ليشبع رغبة وهمّة محمد الذي وهبه الله نفساً عالية واستعداداً فكرياً وروحاً دينية سامية، تحدوه والدة برّة حنون توجّهه الوجهة المستقيمة، فما كان منه إلى أن صوّب إلى التطواف في بقاع الأرض بحثاً عن الحديث وتحصيل علومه وإدراك رجاله.

كانت مكة المكرمة أولى محطات رحلته العلمية، فقد اغتنم البخاري موسم الحج سنة ٢١٦ هـ، فاصطحب أمه الفاضلة وأخاه أحمد، وكان أكبر منه سناً، ورحل إليها معهما. يقول البخاري: «خرجت مع أمي وأخي أحمد إلى مكة، فلما

(١) انظر مقالة الدكتور الحسيني هاشم، تراث الإنسانية م ٥ ص ٨٢.

حججت رجع بها أخي، وتخلّفت في طلب الحديث». وفي مكة اختلف البخاري إلى أبي الوليد أحمد بن محمد الأزرقي وإسماعيل بن سالم الصايغ. ثم عدل إلى المدينة المنوّرة زائراً قبر النبي ﷺ، وجامعاً الحديث من أهله أحفاد الصحابة الذين حموا الرسالة الشريفة وتوارثها أولادهم وأحفادهم جيلاً بعد جيل. وقد بقي بالمدينة سنة يجري وراء الحديث فيأخذه من صدور وعته وعقول حفظته، وفي المدينة وفي حرم المسجد النبوي وضع كتابين جليلين هما: «قضايا الصحابة والتابعين» و«التاريخ الكبير».

ولما استنفد الحديث في المدينة المنورة حمل عصا الترحال يجوب الآفاق، وليس له من هدف إلّا الحديث الشريف يطلبه في مظانه. فنسمعه يقول في رحلته هذه: «وأقمت بالبصرة خمس سنين مع كتبي أصنف وأحج وأرجع من مكة إلى البصرة، وأنا أرجو الله أن يبارك للمسلمين في هذه المصنفات». ثم يقول: «دخلت الشام ومصر والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع المحدثين».

بعد هذا الترحال في طلب الحديث، مع ما تحمله الرحلة من أسباب العناء والنصب، نسمعه يقول: «كتبت عن ألف وثمانين نفساً ليس فيهم إلّا صاحب حديث». ثم يقول: «كتبت عن ألف شيخ أو أكثر، ما عندي حديث لم أذكر إسناده».

عن أحمد بن الحسن الرازي قال: سمعت أبا أحمد بن عدي يقول: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ودفعوها إلى عشر أنفس لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري. وأخذوا العدة للمجلس، فحضر المجلس جماعة من أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرها ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال البخاري: لا أعرفه. فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه. فما زال يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه. فكان الفهماء ممّن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: الرجل فهم،

ومن كان منهم غير ذلك يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الفهم. ثم انتدب آخر من العشرة فسألَه عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال البخاري: لا أعرفه. فسأله عن آخر فقال: لا أعرفه. فلم يزل يلقي عليه واحداً بعد الآخر حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه. ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على أن يقول: لا أعرفه.

فلما علم البخاري أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول منهم فقال: أما حديثك الأول فهو كذا، والثاني فهو كذا.. والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فردّ كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك ورد متون الأحاديث كلها إلى أسانيدها وأسانيدها إلى متونها، فأقرّ له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل[1].

وعن صالح بن محمد البغدادي يقول: «كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد، وكنت أستملي عليه ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفاً».

وقال عمرو بن علي: «حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث».

يروى عنه أنه لما قدم بلدته بخارى، بعد إقامته في نيسابور، استقبل استقبالاً فخماً ونثرت عليه الدنانير والدراهم، والتف حوله الناس، في المسجد والمنزل، ينهلون من علمه والاستفادة منه، فلم يكن يبخل عليهم بما وهبه الله من فضيلة العلم ورواية الحديث، طالباً في كل هذا رضا الله وثوابه. وحدث أن طلب أمير بخارى آنذاك خالد بن أحمد أن يأتيه البخاري بكتبه حتى يسمعها له ولأولاده في قصره، فرفض البخاري أن يستجيب لطلب الأمير وقال: «في بيت العلم والحلم يؤتى». وقال: «لا يسعني أن أخصَّ بالسماع قوماً دون آخرين».

قال أبو سعيد بكر بن منير البخاري: «بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى خليفة بن طاهر إلى محمد بن إسماعيل أن أحمل إليّ كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما لأسمع منك. فقال محمد بن إسماعيل لرسوله: قل له إني لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كان لك إلى شيء منه حاجة

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٢ ص ٦.

فأحضرني في مسجدي أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فأنت السلطان فامنعني من الجلوس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم لقول النبي ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار**»، فكان سبب الوحشة بينهما[1].

ذكر أن البخاري لمّا بلغ الثانية والستين من عمره، خرج إلى قرية خرتنك من قرى سمرقند، ونزل ضيفاً على قريب له يدعى غالب بن جبريل. قال غالب: فسمعته ليلة وقد فرغ من صلاة الليل يقول في دعائه: «اللهم قد ضاقت عليّ الأرض بما رحبت فاقبضني إليك».

ولم يمض على إقامته في خرتنك بضعة أيام حتى مرض، يقول غالب: «وأقام في خرتنك أياماً فمرض، حتى وجه إليه رسول من سمرقند يلتمسون منه الخروج إليهم، فأجاب وتهيّأ للركوب ولبس خفّيه وتعمّم، فلما مشى عشرين خطوة أو نحوها إلى الدابة ليركبها، وأنا آخذه بعضده قال: «أرسلوني فقد ضعفت» فأرسلناه، فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى. وكان ذلك ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦ هـ».

مؤلفات البخاري محمد بن إسماعيل:

ـ كتاب التاريخ الكبير. استوعب فيه البخاري الرواة من الصحابة ومن بعدهم إلى طبقة شيوخه. وهو في ثمانية أجزاء، رتبه على حروف المعجم وبدأه بالمحمدين تكريماً لاسم الرسول ﷺ.

وقد جعل لكل اسم باباً، ورتّب الأسماء في الباب الواحد على حروف المعجم وراعى في الحرف الأول في أسماء الآباء أيضاً ولم يراع ترتيب أبواب الأسماء حسب حروف المعجم، فذكر باب إبراهيم ثم باب إسماعيل ثم باب إسحاق ثم باب أيوب ثم أشعث، ثم هكذا، ذاكراً اسم المترجم له وبعض من روى عنهم وبعض من روى عنه، وربما ذكر حديثاً له، على أنه قلّما ذكر الجرح والتعديل وذلك باستغنائه عن ذكر الضعفاء والمتروكين في الحديث.

(١) انظر تاريخ بغداد ج ٢ ص ٢٣.

قال الحاكم عن تاريخ البخاري: «وكتاب محمد بن إسماعيل في التاريخ كتاب لم يسبق إليه ومن ألّف بعده شيئاً في التاريخ أو الأسماء أو الكنى لم يستغن عنه، فمنهم من نسبه إلى نفسه مثل أبي زرعة وأبي حاتم ومسلم، ومنهم من حكاه عنه، فالله يرحمه فإنه الذي أصل الأصول».

- كتاب التاريخ الصغير. وهو مختصر عن تاريخ النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار وطبقات التابعين لهم ومن بعدهم ووفاتهم وبعض نسبهم وكناهم ومن رغب في حديثه.

- كتاب الضعفاء. رتبه على الحروف الهجائية، مبتدئاً بحرف الألف.

- كتاب الكنى. ذكر فيه كنى من غلبت كنيته على اسمه ومن لم يعرف إلّا بكنيته. ابتدأه حسب ترتيب الحروف الهجائية بعد لفظ أب أو أم. وفي آخره ذكر الكنى من النساء.

- كتاب الأدب المفرد. يحتوي جملة من الأحاديث العامة الداعية إلى مكارم الأخلاق وحسن المعاملة. ابتدأه بباب: ﴿**ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً**﴾.

قال فيه الحافظ ابن حجر: «وكتاب الأدب المفرد يشتمل على أحاديث زائدة على ما في الصحيح، وفيه قليل من الآثار الموقوفة وهو كثير الفائدة».

- كتاب رفع اليدين في الصلاة.
- كتاب خير الكلام في القراءة خلف الإمام.
- كتاب التاريخ الأوسط.
- كتاب الأسربة.
- كتاب أسامي الصحابة.
- كتاب بر الوالدين.
- كتاب التفسير الكبير للقرآن.
- كتاب الجامع الكبير.
- كتاب خلق أفعال العباد.
- كتاب العلل في الحديث.
- كتاب قضايا الصحابة والتابعين.

ـ كتاب المسند الكبير.
ـ كتاب الوحدان. وهو من ليس له إلّا حديث واحد كما في الفتح.
ـ كتاب المبسوط.
ـ كتاب الهبة (ذكر فيه الشيوخ الذين أخذ عنهم).
ـ كتاب سنن الفقهاء (ذكره ابن النديم في الفهرست ولم يذكره غيره).

البخاري وصحيحه:

صنف البخاري جامعه الصحيح متوخياً الدقة والعناية فاستنفد منه ستة عشر عاماً، كان يعدُّ نفسه لكل حديث بالغسل والصلاة. قال: «ما كتبت في كتاب الصحيح حديثاً إلّا اغتسلت قبل ذلك فصلّيت ركعتين[1]». وقال أيضاً: «صنفت الجامع الصحيح لست عشرة سنة وخرجته من ستمائة ألف حديث وجعلته حجة بيني وبين الله عزّ وجل[2]».

وقال عبد القدوس بن همام عن مكان تأليف الجامع: «سمعت عدة مشايخ يقولون حول البخاري تراجم جامعة بين قبر النبي ﷺ ومنبره، وكان يصلّي لكل ترجمة ركعتين[3]».

ورُوي عن البخاري أنه قال: «صنفت كتاب الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثاً إلّا بعدما استخرت الله تعالى وصلّيت ركعتين وتيقنت صحته[4]».

وفي شرح البخاري للنووي: «صنف البخاري صحيحه ببخارى، وقيل صنفه بمكة. قال: والجميع بين هذا كله ممكن بل متعين، فإنا قد قدمنا عنه أنه صنفه في ست عشرة سنة، فكان يصنف منه بمكة والمدينة والبصرة وبخارى».

اتفق العلماء أن الجامع أصح كتاب بعد كتاب الله، وهو الكتاب الذي جعل البخاري أمير المؤمنين في الحديث وكتب له به الخلود. وكان الاسم الكامل الذي

(١) انظر التهذيب لابن حجر ج ٩ ص ٤٩.
(٢) انظر شرح البخاري للنووي ص ٧.
(٣) مقدمة الفتح ج ٣ ص ٢٠٢.
(٤) المقدمة ج ٣ ص ٢٠٢.

أسماه به البخاري هو «الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه» ولكنه اشتهر بـ «الجامع الصحيح» اختصاراً.

قال الحافظ بن حجر العسقلاني: «إني قد عددتها ـ أي أحاديث صحيح البخاري ـ فبلغت بالمكرّر سوى المعلقات والمتابعات سبعة آلاف وثلاثمائة وسبعة وتسعين حديثاً، وجملة ما فيه من التعليق ألف وثلاثمائة وواحد وأربعون، وأكثرها مخرج من أصول متونه، والذي لم يخرجه مائة وستون قال: وفيها من المتابعات والتنبيهات على اختلاف الروايات ثلاثمائة وأربعة وثمانون. وقال في المقدمة أيضاً: إن ما وقع في صحيح البخاري من الأحاديث الموصولة بدون تكرار ألف حديث وأربعمائة وستون حديثاً، ومن المتون المعلقة والمرفوعة التي يصلها في موضع آخر من الجامع مائة وتسعة وخمسون حديثاً، فجميع ذلك ألف حديث وستمائة وثلاثة وعشرون حديثاً».

ويقول الكشميري في تراجم الصحيح: «إن المصنّف سابق غايات وصاحب آيات في وضع التراجم كما لم يسبق به أحد من المتقدمين، ولم يستطع أن يحاكيه أحد من المتأخرين، فهو الفاتح لذلك الباب وصار الخاتم، وضع في تراجمه آيات تناسبها مما يتعلق بهذا الباب، ونبّه على مسائل مظان الفقه في القرآن، بل أقامها منه ودلّ على طرق التأنيس من القرآن، وبه يتضح ربط الفقه والحديث بالقرآن بعضه مع بعض، ومن رفعة اجتهاده ودقته في الاجتهادات وبسطها في التراجم، قيل إنّ فقه البخاري في تراجمه، فكان في تراجم المصنف علوم متفرقة من الفقه وأصوله والكلام وما إليها بإيجاز واختصار.

مسلم بن الحجّاج

نحو ٢٠٤ - ٢٦١ هـ

مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كرشان القشيري النيسابوري، أبو الحسن، الحافظ، من أئمة المحدثين. ولد بنيسابور سنة ٢٠٤(*) هـ ورحل إلى الحجاز والعراق والشام. سمع يحيى بن يحيى النيسابوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وعبدالله بن مسلمة وغيرهم. وقدم بغداد غير مرة فروى عنه أهلها، وكان آخر قدومه إليها في سنة تسع وخمسين ومائتين. وروى عنه الترمذي، وكان من الثقات المأمونين[1].

قال محمد الماسرجسي: سمعت مسلم بن الحجاج يقول: صنفت هذا المسند الصحيح - يعني الجامع - من ثلثمائة ألف حديث مسموعة.

وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: ما تحت أديم السماء أصحّ من كتاب مسلم في علم الحديث.

وقال الخطيب البغدادي: كان مسلم يناضل عن البخاري حتى أوحش ما بينه وبين محمد بن يحيى الذهلي بسببه.

وقال أبو عبدالله محمد بن يعقوب الحافظ: لما استوطِن البخاري نيسابور أكثر مسلم من الاختلاف إليه، فلما وقع بين محمد بن يحيى والبخاري ما وقع في مسألة اللفظ، فنادى عليه، ومنع الناس من الاختلاف إليه حتى هجر وخرج من نيسابور في تلك المحنة، وقطعه أكثر الناس غير مسلم، فإنه لم يتخلف عن

(*) قيل ٢٠٢ هـ، وقيل ٢٠٦ هـ. وفي بعض المراجع أن ولادته كانت سنة ٢٠٤ هـ.

(١) شذرات الذهب م ٢ ص ١٤٤.

زيارته، فأُنهي إلى محمد بن يحيى أن مسلم بن الحجاج على مذهبه قديماً وحديثاً، وأنه عوتب على ذلك بالحجاز والعراق ولم يرجع عنه. فلما كان يوم مجلس محمد بن يحيى، قال في آخر مجلسه: إلا من قال باللفظ فلا يحلُّ له أن يحضر مجلسنا. فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته وقام على رأس الناس وخرج من مجلسه، وجمع كل ما كتب منه وبعث به على ظهر جمال إلى باب محمد بن يحيى فاستحكمت بذلك الوحشة وتخلّف عنه وعن زيارته.

ومحمد هذا هو محمد بن يحيى بن عبدالله بن خالد بن فارس بن ذؤيب الذهلي النيسابوري، كان أحد الحفاظ الأعيان، روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وكان ثقة مأموناً[1].

وكان سبب الوحشة بينه وبين البخاري أنه لما دخل البخاري مدينة نيسابور شنّع عليه محمد بن يحيى في مسألة خلق اللفظ، وكان قد سمع منه فلم يمكنه ترك الرواية عنه، وروى عنه في الصوم والطب والجنائز والعتق وغير ذلك مقدار ثلاثين موضعاً ولم يصرّح باسمه، لا يقول حدثنا محمد بن يحيى الذهلي، بل يقول حدثنا محمد ولا يزيد عليه، أو يقول محمد بن عبدالله وينسبه لجد أبيه[2].

وقال صاحب العبر[3]: مسلم بن الحجّاج أبو الحسين القشيري النيسابوري الحافظ، أحد أركان الحديث وصاحب الصحيح وغير ذلك.

توفي في رجب سنة ٢٦١ هـ في مدينة نصر آباد من قرى نيسابور وله ستون سنة، وكان صاحب تجارة بخان بحمس بنيسابور، وله أملاك وثروة. وقد حجّ سنة ٢٢٠ هـ فلقي القعنبي وطبقته.

أشهر كتب الأمام مسلم بن الحجاج الصحيح، وقد جمع فيه اثني عشر ألف حديث، كتبها في خمس عشرة سنة، وهو أحد الصحيحين المعوّل عليهما عند أهل السنة في الحديث.

---

(١) شذرات الذهب م ٢ ص ١٤٥.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ترجمة البخاري، وترجمة محمد بن يحيى الذهلي.

(٣) ابن خلدون في تاريخه.

قال البغدادي في تاريخ بغداد[1]: «إنّ مسلماً حذا حذو البخاري في صحيحه، ولما ورد البخاري نيسابور في آخر أمره لازمه مسلم».

ومن كتبه:

- المسند الكبير (رتّبه على الرجال).
- الأسماء والكنى.
- الأفراد والوحدان (كتاب المنفردات والوحدان).
- كتاب الأقران.
- كتاب مشايخ الثوري.
- كتاب تسمية شيوخ مالك وسفيان وشعبة.
- كتاب المخضرمين.
- كتاب أولاد الصحابة.
- كتاب أوهام المحدثين.
- كتاب الطبقات.
- كتاب أفراد الشاميين.
- كتاب التمييز.
- كتاب العلل.

يشتمل صحيح مسلم على أكثر أحاديث البخاري، ولكن مسلماً رواها من طرق أخرى غير أسانيده. وجاء ترتيبه على كتب الفقه كما رتبه البخاري، ولكنه لم يذكر الأبواب مثله ليترك للمطلع الأريب استفادتها لنفسه كما رمى إليه وترتيبها كما يبغي. ولم يرد أيضاً توزيع الأحاديث على كل أبواب الفقه، بل جمع الأحاديث المروية بأكثر من إسناد في باب واحد، على حين قسمها البخاري على الأبواب المختلفة للاحتجاج والاستشهاد بها في هذه الأبواب.

وقد تحدث الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن أصول علم الحديث بالتفصيل.

---

(١) ج ١٣ ص ١٠٠.

وعلى الرغم من النقد الذي وجهه إليه أبو زرعة الرازي[1]، فقد حظي الكتاب بمنزلة فاقت منزلة صحيح البخاري في بعض الأحيان. وقد فضله أبو علي الحسين بن علي النيسابوري الشافعي المتوفى سنة ٣٤٩ هـ، وهو الرأي نفسه الذي ساد بالمغرب (انظر شرح القسطلاني على البخاري ١ : ٢٠ س ١٢ وفي طبعته مع صحيح مسلم على هامشه ١ : ٢١).

(١) معاصر لمسلم، انظر تاريخ بغداد للخطيب ٤ : ٢٧٤.

أبو داود

٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ

أبو داود سليمان بن الجارود[1] بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني. إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سجستان. ولد سنة ٢٠٢ هـ. سمع مسلم بن إبراهيم والقعنبي وطبقتهما، وطوّف الشام والعراق ومصر والحجاز والجزيرة وخراسان. وكان رأساً في الحديث، رأساً في الفقه، ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع، حتى إنه كان يشبّه بشيخه أحمد بن حنبل.

قال ابن خلكان: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدي السجستاني أحد حفاظ الحديث وعلمه وعلله، وكان في الدرجة العالية من النسك والصلاح، طوف البلاد وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والحرميين.

وجمع كتاب السنن قديماً وعرضه على الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فاستحسنه واستجاده، وعدّه الشيخ أبو إسحق الشيرازي في طبقات الفقهاء من جملة أصحاب الإمام أحمد بن حنبل.

قال إبراهيم الحربي: لمّا صنف أبو داود كتاب السنن ألين لأبي داود الحديث كما ألين لداود الحديد، وكان يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب (يعني السنن) جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث أحدها قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» والثاني قوله: «من

(١) زيادة من تاريخ الأدب العربي لبروكلمان م ٣ ص ١٨٥.

أحسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» والثالث قوله: «**لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضاه لنفسه»** والرابع قوله: «**الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات»** الحديث بكماله.

جاءه سهل بن عبدالله التستري فقال له: يا أبا داود، لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: حتى تقول قضيتُها مع الإمكان. قال: قضيتها مع الإمكان. قال: أخرج لسانك الذي حدّثت به عن رسول الله ﷺ حتى أقبله. قال: فأخرج لسانه فقبّله.

دخل أبو داود بغداد مراراً، وكانت آخر زيارة لها في سنة ٢٧٢ هـ، دعاه الخليفة الموفق أن ينزل بالبصرة ويتخذها له مقاماً، عسى أن يبعث فيها هو وتلاميذه الحياة والنشاط بعد أن خربت وركدت ريحها من أثر فتنة الزنج، فنزل بها وتوفي فيها يوم ١٦ من شوال سنة ٢٧٥ هـ. وكان ولده أبو بكر عبدالله بن أبي داود من أكابر الحفاظ ببغداد، عالماً متفقهاً عليه، إماماً ابن إمام، وله كتاب المصابيح، وشارك أباه في شيوخه بمصر والشام وسمع ببغداد وخراسان وأصبهان وسجستان وشيراز.

أسمى أبو داود كتابه «السنن» لأنه جمع أحاديثه من وجهة نظر فقهية، فلم يضمّنه غير أحاديث الفقه والتشريع مما ورد في الأخلاق والأخبار والكلام والزهد ونحو ذلك، وهو يكتفي مُن الرواة بكل من لم يُجمع أهل العلم على دفعه وإنكار روايته.

ويبدو أن كتابه السنن كان ينافس الصحيحين منافسة قوية في بادىء الأمر، وقد مدحه فأعجب به كثير من العلماء في المائة الرابعة للهجرة، ولكنه أخيراً أخذ يتضاءل أمامهما. بل يختفي خلف ظلالهما.

وقد وضعت شروح على سننه، منها:

- معالم السنن لأبي سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت ٣٨٨ هـ).
- شرح سنن أبي داود لعمر بن رسلان بن نصر البلقيني (ت ٨٠٥ هـ).
- شرح سنن أبي داود لأحمد بن الحسين بن أرسلان الرملي (ت ٨٤٤ هـ).

ـ مرقاة الصعود شرح سنن أبي داود، للسيوطي (ت ٩١١ هـ).

ـ فتح الودود شرح سنن أبي داود لأبي الحسن محمد بن عبد الحميد السندي الحنفي.

ولابن داود من المصنفات غير السنن:

ـ مراسيل أبي داود (في الحديث).

ـ سؤالات أبي عبيد محمد بن علي بن عثمان الآجري لأبي داود، عن درجة بعض الأحاديث من الصحّة.

ـ مسائل الإمام أحمد بن حنبل.

ـ تسمية الإخوة الذين روى عنهم.

ـ كتاب التنزيل في الرسم.

ـ كتاب البعث والنشور (رسالة).

الترمذي

٢٠٩ - ٢٧٩ هـ

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوره بن موسى بن الضحاك السلمي البوغي التِّرْمِذي الضرير. من أئمة علماء الفقه والحديث وحفّاظه. ولد في مطلع القرن الثالث الهجري في ذي الحجة سنة تسع ومائتين من الهجرة في قرية من قرى مدينة ترمِذ تسمى بوغ بينها وبين ترمذ ستة فراسخ، ومن الطبيعي أن ينسب إليها فيقال البوغي. ثم إنه بعد أن يُشهر في الحديث فيجوب البلاد مشرقاً ومغرباً وتطبق شهرته أرجاء العالم الإسلامي ينسب إلى المدينة التابع لها بوغ فيقال الترمذي.

كان جده سوره مروزياً (نسبة إلى مرو)، ثم انتقل هذا الجد أيام الليث بن سيار إلى بوغ. أما السلمي فهي نسبة إلى بني سليم قبيلة من غيلان.

عاش أبو عيسى لتحصيل الحديث، وشدّ الرحال إليه حيثما وجد إلى ذلك سبيلاً، فسمع من الخراسانيين والحجازيين والعراقيين. وكان تلميذ إمام المحدثين البخاري عليه تخرّج وبه تأثّر، ولا سيما في فقه الحديث، وكان يناظر أستاذه ويناقشه، وروى عنه البخاري حديثاً، وفي هذا شهادة اعتزاز وتقدير لمكانة الترمذي في نظر أئمة الحديث. ثم سمع الترمذي من الإمام مسلم بن الحجاج وأبي داود، واشترك مع أقرانه الأئمة الخمسة أصحاب الكتب المعتمدة ونهضة الحديث في القرن الثالث الهجري، وهم الإمام البخاري والإمام مسلم والإمام أبو داود والإمام النسائي والإمام ابن ماجه، في تسعة شيوخ هم: محمد بن بشار بندار، ومحمد بن المثنى أبو موسى، وزياد بن يحيى الحساني، وعباس بن عبد العظيم العنبري، وأبو سعيد الأشجّ عبدالله بن سعيد الكندي، وأبو حفص عمرو بن علي الفلاسي، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن معمر القيسي

البحراني، ونصر بن علي الجهضمي، وقد أدرك أبو عيسى أيضاً شيوخاً متقدمين وسمع منهم وروى عنهم في جامعه، ومنهم عبدالله بن معاوية الجمحي، وعلي بن حجر المروزي، وسويد بن نصر بن سويد المروزي، وقتيبة بن سعيد الثقفي أبو رجاء، وأبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري المدني وغيرهم.

كان أبو عيسى من القلائل الذي توفّرت فيهم ملكة الحفظ وسعة العلم، فكان المسند والمحدث والحافظ. ذكر عبدالرحمن بن محمد الإدريسي، قال: محمد بن عيسى بن سوره الترمذي الحافظ الضرير، أحد الأئمة الذين يُقتدى بهم في علم الحديث، صنّف كتاب الجامع والتواريخ والعلل، تصنيف رجل عالم متقن كان يضرب به المثل في الحفظ.

وقال الإدريسي: سمعت أبا بكر محمد بن أحمد بن الحارث المروزي الفقيه يقول: سمعت أحمد بن عبدالله أبا داود المروزي يقول: سمعت أبا عيسى محمد بن عيسى الحافظ يقول: كنت في طريق مكة، وكنت قد كتبت جزءين من أحاديث شيخ. فمرّ بنا ذلك الشيخ فسألت عنه، فقالوا: فلان فذهبت إليه وأنا أظن أن الجزءين معي، وحملت معي في محملي جزءين كنت أظن أنهما الجزءان اللذان له. فلما ظفرت به وسألته أجابني إلى ذلك، أخذت الجزءين فإذا هما بياض فتحيّرت. فجعل الشيخ يقرأ عليّ من حفظه ثم ينظر إليّ، فرأى البياض في يدي، فقال: أما تستحي مني؟! قلت: لا، وقصصت عليه القصة وقلت له: أحفظه كله. فقال: اقرأ. فقرأت جميع ما قرأ عليّ على الولاء فلم يصدقني، وقال: استظهرت قبل أن تجيء فقلت: حدثني بغيره. فقرأ عليّ أربعين حديثاً من غرائب حديثه، ثم قال: هات اقرأ. فقرأت عليه من أوله إلى آخره كما قرأ فما أخطأت في حرف، فقال لي: ما رأيت مثلك[1].

قال ابن الأثير في الكامل: «كان الترمذي إماماً حافظاً له تصانيف حسنة منها الجامع الكبير وهو أحسن الكتب».

وقال ابن العماد الحنبلي في الشذرات: «كان مبرزاً على الأقران آية في الحفظ والإتقان».

---

(١) شذرات الذهب للحنبلي ٢ : ١٧٤ .

وقال المزي في التهذيب بأنه «الحافظ صاحب الجامع وغيره من المصنفات، أحد الأئمة الحفاظ المبرزين ومن نفع الله به المسلمين».

ووصفه السمعاني في الأنساب «إمام عصره بلا مدافعة».

وقال صاحب مفتاح السعادة: «هو أحد العلماء الحفاظ الأعلام، وله في الفقه يد صالحة أخذت الحديث عن جماعة من الأئمة، ولقي الصدر الأول من المشايخ».

وقال الحافظ الذهبي في الميزان: «الحافظ العلم صاحب الجامع ثقة مجمع عليه، ولا التفات إلى قول أبي محمد بن حزم في الفرائض من كتاب الإيصال إنه مجهول، فإنه ما عرف ولا درى بوجود الجامع ولا العلل له».

وقال الحافظ بن حجر العسقلاني في التهذيب: «وأما أبو محمد بن حزم فإنه نادى على نفسه بعدم الاطلاع فقال في كتاب الفرائض: محمد بن عيسى بن سوره مجهول، ولا يقولنّ قائل: لعله ما عرف التمرذي ولا اطلع على حفظه ولا على تصانيفه، فإن هذا الرجل قد أطلق هذ العبارة في خلق من المشهورين من الثقات الحفاظ».

ثم ذكر نصر بن محمد الشيركوهي في التهذيب، قال: «سمعت محمد بن عيسى الترمذي يقول: قال لي محمد بن إسماعيل البخاري: «ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي»[1].

توفي أبو عيسى في بلدته بوغ في رجب سنة ٢٧٩ هـ، وقد أصبح ضريراً في آخر عمره ولم يولد ضريراً.

قال الحاكم أبو أحمد محدث خراسان: سمعت عمران بن علان يقول: مات محمد بن إسماعيل البخاري ولم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى في العلم والورع، بكى حتى عميَ.

استحق أبو عيسى لقب الإمامة بتصنيفه كتاب الجامع للسنن، ويعتبر كتاب العلل الصغرى من ضمن كتاب الجامع كمدخل له وجزء منه وبيان لنهجه. وقد

---

(١) مجلة تراث الإنسانية م ٥ ص ٦٠٨.

نهل العلماء والفقهاء من جامعه هذا وذاعت شهرته به، وله كتاب آخر هو كتاب الشمائل المحمدية، وهو والجامع الكتابان اللذان أُثرا عن الترمذي، فقد فقدت كتبه الأخرى ولم تصل إلينا، وإنما ورد ذكرها في المراجع وهي:

- كتب الطبقات والتاريخ.
- كتاب العلل الكبرى.
- كتاب التاريخ.
- كتاب الأسماء والكنى.

ابتدأ الإمام الترمذي كتاب الشمائل المحمدية بباب ما جاء في خلق رسول الله ﷺ. قال أبو عيسى: «أخبرنا أبو رجاء قتيبة بن سعيد عن مالك بن أنس عن ربيعة بن عبدالرحمن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول: كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالأبيض الأمهق ولا بالآدم ولا بالجعد القطط ولا بالسبط، بعثه الله على رأس أربعين سنة فأقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين فتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء». ثم أخذ في بقية الأبواب: باب ما جاء في خاتم النبوة، باب ما جاء في شعر رسول الله ﷺ، في ترجله، في سببه، في خضابه، في كحله، في لباسه، في عيشه، في خفه ونعله وخاتمه وصفة سيفه ودرعه ومغفره وعمامته وإزاره، وجلسته واتكائه، وأكله ووضوئه وفاكهته وشربه. ثم ذكر في الجزء الثاني تعطره وضحكه وكلامه ونومه وسمره وعبادته وصلاة تطوعه وصلاة الضحى، وصومه وقراءته وبكائه وفراشه وتواضعه وخلقه الكريم وأسمائه، ووفاته ﷺ وميراثه ورؤيته ﷺ.

قال عبد الرؤوف المناوي في كتاب الشمائل بعد المقدمة[1]: «إن كتاب الشمائل لعلم الرواية وعلم الدراية للإمام الترمذي جعل الله قبره روضة عرفها أطيب من المسك الشذي كتاب وحيد في بابه فريد في ترتيبه واستيعابه لم يأت له أحد بمماثل ولا بمشابه، سلك فيه منهجاً بديعاً ورصعه بعيون الأخبار وفنون الآثار ترصيعاً، حتى عُدّ ذلك الكتاب من المواهب وطار في المشارق والمغارب».

---

(١) شرح المناوي بهامش الوسائل في شرح الشمائل لعلم الرواية والدراية للإمام الترمذي شرح العلامة علي بن سلطان محمد القاري الحنفي.

وقال فيه علي بن سلطان محمد القاري:

أهـل الحـديث هم أهـل النبي وإن   لم يصحبوا نفسه أنفـاسـه صحبـوا

ومن أحسن ما صنف في شمائله وأخلاقه ﷺ كتاب الترمذي المختصر الجامع على الوجه الأتم، بحيث إن مطالع هذا الكتاب كأنه يطالع طلعة ذلك الجناب ويرى محاسنه الشريفة في كل باب.

سنن الترمذي أو «جامع الترمذي».

أشهر كتب الترمذي على الإطلاق وأجلها هو الكتاب الذي أصبح الترمذي به إماماً في الحديث ونعني به «جامع الترمذي» أو «سنن الترمذي» وأسماه الحاكم أبو عبدالله الخطيب البغدادي «الجامع الصحيح للترمذي» أو «صحيح الترمذي».

قال الترمذي في تسميته «الصحيح»: «صنّفت هذا المسند الصحيح وعرضته على علماء الحجاز فرضوا به، وعرضته على علماء العراق فرضوا به، وعرضته على علماء خراسان فرضوا به، ومن كان في بيته هذا الكتاب فكأنما في بيته نبي ينطق».

وقال فيه ابن الأثير في مقدمة جامع الأصول: «وهذا كتابه الصحيح أحسن الكتب وأكثرها فائدة وأحسنها ترتيباً وأقلها تكراراً وفيه ما ليس في غيره من ذكر المذاهب ووجوه الاستدلال وتبيين أنواع الحديث من الصحيح والحسن والغريب، وفيه جرح وتعديل، وفي آخره كتاب العلل، وقد جمع فيه فوائد حسنة لا يخفى قدرها على من وقف عليها».

وقال شارح الجامع الصحيح الترمذي القاضي أبو بكر بن العربي المالكي: «اعلموا أنار الله أفئدتكم أن كتاب الجعفي هو الأصل الثاني في هذا الباب والموطأ الأول واللباب، وعليهما بناء الجميع كالقشيري والترمذي وليس فيهم - يعني كتب الحديث الصحاح - مثل كتاب أبي عيسى حلاوة مقطع ونفاسة منزع وعذوبة مشرع، وفيه أربعة عشر علماً، وذلك أقرب إلى العمل وأسلم. أسند وصحّح وضعّف وعدّد الطرق، وجرّح وعدّل وأسمى وأكنى ووصل وقطع وأوضح المعمول به والمتروك، وبيّن اختلاف العلماء في الرد والقبول لآثاره، وذكر اختلافهم في تأويله، وكل علم من هذه العلوم أصل في بابه وفرد في نصابه. فالقارىء له لا يزال في رياض مونقة

وعلوم متفقة منسقة، وهذا شيء لا يعلمه إلّا العلم الغزير والتوفيق الكثير والفراغ والتدبير.

اشتمل جامع الترمذي على أحاديث العبادات من أبواب الطهارة، والصلاة، والصيام، والحج، مفصلة جامعة، واشتمل على المعاملات من زكاة وبيع وشراء ورهن ونكاح وطلاق، واشتمل على العقيدة الإسلامية من أبواب الإيمان بالله وباليوم الآخر، وعلامات الساعة وصفة الجنة والنار، وأبواب الأدب والجهاد والغزوات والزهد والأخلاق، وأبواب الأمثال حيث استعرض فيها أحاديث الرسول ﷺ التي تمثّل بها، كما تضمّن الجزء الحادي عشر والجزء الثاني عشر على نسق فريد نبوي في علوم القرآن، في ثواب القرآن وفضائله، والقراءات وأبواب التفسير، وأسباب النزول، وذكر أبواب التفسير والدعاء فأسهب فيها، ثم اشتمل الجزء الأخير الثالث عشر من السيرة النبوية على مناقب أصحاب الرسول ﷺ وزوجاته وفضائل الأنصار والمهاجرين.

تميّز جامع الترمذي بأنه وضع فيه مصنفُه قواعد التحديث، وكانت على غاية الدقة، وقد جعلها تحت عنوان «كتاب العلل» أو «أبواب العلل» بحيث أُدرجت ضمن أبواب الجامع. وقد أوضح الترمذي في أول كتاب العلل هذا أن الذي حمله على تسطير هذا المنهج في الجامع من العناية بأقوال الفقهاء وقواعد التحديث وعلله، أنه رأى الحاجة إلى ذلك شديدة، ولأجل هذا الهدف أراد أن يسلك مسلك المتقدمين وذلك بأن يزيد ما لم يسبقه إليه غيره ابتغاء ثواب الله. يقول الترمذي: «وإنما حملنا على ما في هذا الكتاب الجامع من قول الفقهاء وعلل الحديث لأنا سُئلنا عن هذا، فلم نفعله زماناً، ثم فعلناه لما رجونا فيه من منفعة الناس، لأنا قد وجدنا غير واحد من الأئمة تكلفوا في التصنيف ما لم يسبقوا إليه، منهم هشام بن حسان، وعبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج، وسعيد بن أبي عروبة، ومالك بن أنس، وحماد بن سلمة، وعبدالله بن المبارك، وغيرهم من أهل الفضل صنفوا، فجعل الله في ذلك منفعة كثيرة، فنرجو بذلك الثواب الجزيل عند الله لما نفع الله به المسلمين فبهم القدوة فيما صنعوا.

تعرّض أبو عيسى الترمذي في الجامع بطرق الأداء مبيّناً أن القراءة على العالِم إذا كان يحفظ ما يقرأ عليه أو يمسك أصله فيما يقرأ إذا لم يحفظ هو صحيح

عند أهل الحديث، مثل السماع. ورُوي عن عكرمة أن نفراً قدموا على ابن عباس من أهل الطائف بكتب، فجعل يقرأ عليهم، ثم قال: فاقرأوا عليّ فإن إقراري به كقراءتي عليكم[1].

وكتاب الجامع أصل في الحديث الحسن، وهو الذي شهر الترمذي كما قرّر الإمام النووي في التقريب، يقول الترمذي: «وما ذكرنا في هذا الكتاب من الحديث الحسن، فإنما أردنا به حسن إسناده، وعندنا كل حديث يروى لا يكون في إسناده من يتهم بالكذب ولا يكون الحديث شاذّاً ويروى من غير وجه نحو ذاك فهو عندنا حديث حسن».

وقد بيّن الترمذي أيضاً في سننه «الجامع» أنه رُبّ حديث غريب لا يروى إلّا عن وجه واحد ومثل لذلك، ثم قال: وقد يستغرب لزيادة تكون في الحديث، وإنما تصح إذا كانت الزيادة ممن يعتمد على حفظه مثل ما روى مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين صاعاً من شعير. قال وزاد مالك في هذا الحديث من المسلمين، ورُوي من طرق أخرى بغير ذكر المسلمين. وقد أخذ غير واحد من الأئمة بحديث مالك واحتجوا به منهم الشافعي وأحمد بن حنبل قالا: إذا كان للرجل عبيد غير مسلمين لم يؤد عنهم صدقة الفطر واحتجّا بحديث مالك. فإذا زاد حافظ ممن يعتمد على حفظه قُبل منه.

مزايا كتاب الجامع «سنن الترمذي»:

في المنهج الذي نهجه الترمذي في جامعه خصائص فريدة امتاز بها، وذلك أنه يحكم على درجة الحديث بالصحة والحسن والغرابة والضعف حسب حالة الحديث. فيقول بعد إيراد الحديث: هذا حديث صحيح أو حسن أو ضعيف أو غريب، وقد يقول: حسن صحيح أو حسن صحيح غريب، وقد يقول: هذا حديث حسن غريب من حديث فلان، وهذا يعني أن الغرابة في الإسناد وإن كان للحديث روايات أخرى ليست غريبة، فإذا لم ترد طرق أخرى يقول: غريب لا نعرفه من غير هذا الوجه، وإذا كان في الحديث علّة بيّنها، فنراه يقول: هذا الحديث مرسل،

---

(١) تراث الإنسانية م ٥ ص ٦١٦.

لأن فلاناً تابعي فهو لم يروِ عن النبي ﷺ، أو أن فلاناً لم يرو عن فلان حيث لم تثبت له لقيا معه.

ثم يأتي في جامعه «سننه» على ذكر الجرح والتعديل مفصّلاً فيقول: فلان ضعيف أو ضعف أو فيه مقال أو متّهم بعدم الضبط أو الكذب، أو فلان ثقة أو حجة أو صدوق أو غير متهم، كما أنه يبيّن حال الحديث بأنه مرفوع أو مرسل أو موقوف، ويبيّن حال الراوي من حيث ثقته وضعفه، فإنه قد يذكره ويذكر لقبه أو كنيته، ثم يذكر اسمه، وقد يذكر اسمه ثم يذكر لقبه أو كنيته ونسبته. ويأتي على ذكر الراوي ويذكر من روى عنه فيقول مثلاً: عن سعيد بن يزيد، ثم يقول: وروى عنه الليث بن سعيد وغيره من الأئمة وهو مصري. وهذا يدل دلالة واضحة على معرفة الإمام الترمذي بالحديث ورجاله، ثم هو دليل على براعته في الشرح والتفسير والتحليل لعبارات الأحاديث متخذاً له سنداً من آراء الفقهاء.

وثمة اختلاف بين نهجي البخاري وتلميذه الترمذي في الفقه، فالبخاري يهتم بذكر الحكم الفقهي في تراجمه ثم يذكر آراء الفقهاء أو رأيه بعد الأحاديث، أما الترمذي فإنه لا يهتم بذكر الحكم الفقهي في تراجمه إلاّ قليلاً، فقد جرى في كتاب على أن يترجم لكل باب بقوله: «باب ما جاء في كذا» دون أن يذكر الحكم، واعتمد بذكر آراء الفقهاء أو رأيه بعد كل حديث على وجه أوضح من اهتمام أستاذه بذلك.

النَّسَائي

٢١٥ - ٣٠٣ هـ

أحمد بن علي بن شعيب[١] بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبدالرحمن النسائي. أصله من نسا - مدينة بخراسان -، سمع قتيبة البَغْلاني المحدّث وإسحاق بن إبراهيم بن راهويه الحافظ وطبقتهما بخراسان والحجاز والشام والعراق ومصر والجزيرة. كان رئيساً نبيلاً حسن البزّة كبير القدر، له أربع زوجات يقسّم لهنّ ولا يخلو من سرية لنهمته في التمتع[٢]. ومع ذلك كان يصوم صوم داود ويتهجّد.

قال ابن المظفر الحافظ: سمعتهم بمصر يصفون اجتهاد النسائي في العبادة بالليل والنهار، وأنه خرج إلى الغزو مع أمير مصر، فوصف من شهامته وإقامته السنن في فداء المسلمين واحترازه عن مجالس الأمير.

وقال الدارقطني: خرج حاجّاً فامتُحن بدمشق وأدرك الشهادة، فقال احملوني إلى مكة فحُمل وتوفي بها في شعبان. قال: وكان أفقه مشايخ مصر في عصره وأعلمهم بالحديث.

وقال السيوطي في حسن المحاضرة: الحافظ شيخ الإسلام، أحد الأئمة المبرزين، والحفاظ المتقنين، والأعلام المشهورين، جال البلاد واستوطن مصر، فأقام بزقاق القناديل.

قال أبو علي النيسابوري: رأيت من أئمة الحديث أربعة في وطني

(١) سماه بعض المؤرخين: أحمد بن شعيب نسبة إلى جده.

(٢) انظر شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي م ٢ ص ٢٤٠.

وأسفاري: النسائي بمصر، وعبدان بالأهواز، ومحمد بن إسحاق وإبراهيم بن أبي طالب بنيسابور.

وقال الحاكم: النسائي أفقه مشايخ أهل مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال.

وقال الذهبي: هو أحفظ من مسلم له من المصنفات السنن الكبرى والصغرى وهي إحدى الكتب الستة، وخصائص علي ومسند علي ومسند مالك.

وقال ابن يونس: كان خروجه من مصر في سنة اثنتين وثلاثمائة ومات بمكة وقيل بالرملة.

ذكر ابن خلكان، قال: قال محمد بن إسحاق الأصبهاني: سمعت مشايخنا بمصر يقولون إن أبا عبدالرحمن فارق مصر في آخر عمره وخرج إلى دمشق، فسُئل عن معاوية وما روي من فضائله، فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل؟ وفي رواية: ما أعرف له فضيلة إلّا «لا أشبع الله بطنك» وكان يتشيّع، فما زالوا يدافعونه في خصْيتيه وداسوه، ثم حُمل إلى مكة فتوفي بها، وهو مدفون بين الصفا والمروة.

قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: لما داسوه بدمشق مات بسبب ذلك الدوس فهو مقتول. وكان صنّف كتاب «الخصائص» في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأهل البيت وأكثر رؤيته فيه عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فقيل له: ألا صنفت في فضل الصحابة رضي الله عنهم كتاباً؟ فقال: دخلت دمشق والمنحرف عن علي كثير، فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب. وكان إماماً في الحديث ثقة ثبتاً حافظاً.

ذكر صاحب شذرات الذهب أنه توفي في ثالث عشر صفر وله ثمان وثمانون سنة، في ترجمة له في وفيات سنة ٣٠٣ هـ، فيكون مولده في سنة ٢١٥ هـ. وجعل الذهبي تاريخ مولده سنة ٢٢٥ هـ[1].

قيل إنه جال البلاد واستوطن مصر ـ كما أسلفنا ـ فحسده مشايخها، فخرج

(١) شذرات الذهب للحنبلي م ٢ ص ٢٤٠.

إلى الرملة بفلسطين فسئل عن فضائل معاوية، فأمسك عنه، فضربوه بالجامع وأخرج عليلاً، فمات، ودفن ببيت المقدس. وقيل: خرج حاجّاً فمات بمكة.

تصانيفه:

- السنن الكبرى، في الحديث.
- كتاب المجتبى وهو السنن الصغرى، من الكتب الستة في الحديث.
- كتاب «الضعفاء والمتروكون»، في رجال الحديث.
- خصائص علي (مجموعة من الأحاديث التي وردت في فضل علي وآله، صنفه في دمشق).
- مسند علي.
- مسند مالك.

- جمع النسائي في سننه كل ما يتعلق بالحياة الدينية من أحاديث نبوية على وجه التفصيل والاستقصاء، حتى إنه ذكر جميع الأدعية التي تقال في الركعات والسجدات وما بين ذلك، كما أنه روى أحاديث وفيرة لما يقال في الاستعاذات ونحوها، وأورد في أبواب التشريع صيغاً ونصوصاً مما يجري في جميع أنواع المعاملات وما شابه ذلك.

وقد اختصر النسائي نفسه كتاب السنن في كتاب المجتبى وذلك بحذف الأحاديث الضعيفة، وقام بشرحه الإمام السيوطي في كتاب «زهر الربى».

ومما ذكر أو نقل عنه من كتبه:

- كتاب الكنى والأسامي: بستان المحدثين، لشاه عبدالعزيز ١١٠.
- كتاب التمييز: التهذيب لابن حجر ١: ٣٥٦.
- كتاب الجرح والتعديل: التهذيب لابن حجر ١: ٤١٩.

ابن تيمية

٦٦١ - ٧٢٨ هـ

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم[١] بن تيمية الحرّاني الدمشقي الحنبلي، تقي الدين أبو العباس شيخ الإسلام إمام الأئمة المجتهد المطلق. كان أبوه شهاب الدين مفتياً، وجده شيخ الإسلام مجد الدين أبو البركات. ولد بحرّان عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وتحوّل به أبوه إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة.

سمع أحمد من ابن عبد الدايم وابن أبي اليسر والكمال بن عبد والشيخ شمس الدين والقاسم الإربلي وابن علان وخلق كثير، وقرأ بنفسه، ونسخ عدة أجزاء من سنن أبي داود وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التديّن والذكر والصيانة والنزاهة عن متاع الدنيا. ثم أقبل بعد ذلك على الفقه ودقائقه وغاص على مباحثه. وأما أصول الدين ومعرفة أقوال الخوارج والروافض والمعتزلة والمبتدعة فكان لا يشق فيها غباره، مع ما كان عليه من الكرم الذي لم يشاهد مثله، والشجاعة المفرطة، والفراغ عن ملاذّ النفس: من اللباس الجميل والمأكل الطيب والراحة الدنيوية[٢].

قيل إن والدته طبخت له يوماً قرعية، ولم تذقها أولاً وكانت مُرة، فلما ذاقتها تركتها على حالها، فأتى الشيخ إلى الدار فرأى القرعية، فأكل منها حتى شبع وما أنكر منها شيئاً.

---

(١) ابن القاسم في البدر الطالع للشوكاني م ١ ص ٦٣.

(٢) فوات الوفيات للكتبي م ١ ص ٧٤.

وحُكي أنه كان قد شكا له إنسان من قطلوبك الكبير، وكان المذكور فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصابها، وحكاياته في ذلك مشهورة. فلما دخل إليه الشيخ، وتكلم معه في ذلك، قال: أنا الذي كنت أريد أجي إليك لأنك رجل عالم زاهد، يعني يستهزي به، فقال له: لا تعمل عليّ دركوان[1]، موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك، وكان موسى كل يوم يجي إلى باب فرعون مرات، ويعرض عليه الإيمان.

قال عنه الشوكاني في البدر الطالع في ترجمته: «أنا لا أعلم بعد ابن حزم مثله، وما أظنه سمح الزمان ما بين عصر الرجلين بمن شابههما أو يقاربهما».

وقال عنه شمس الدين الذهبي ما نصّه: «كان يقضى منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف التي يوردها منه. ولا أشدّ استحضاراً للمتون وعزوها منه. وكانت السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه بعبارة رشيقة. وكان آية من آيات الله في التفسير والتوسّع فيه. وأما أصول الديانة ومعرفة أقوال المخالفين فكان لا يشق غباره. فيه هدى مع ما كان عليه من الكرم والشجاعة.

ولعل فتاويه في الفنون تبلغ ثلاثمائة مجلد بل أكثر. وكان قوّالاً بالحق لا تأخذه بالحق لومة لائم ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه. وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده، وكان أبيض أسود الرأس واللحية قليل الشيب. شعره إلى شحمة أذنيه، كأنّ عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين جهوري الصوت، فصيحاً سريع القراءة، تعتريه حدّة لكن يقهرها بالحلم.

وقع لابن تيمية مع أهل عصره قلاقل وزلازل، وامتحن مرة بعد أخرى في حياته، وجرت فتن عديدة، والناس قسمَان في شأنه، فبعض منهم مقصّر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعض آخر يبالغ في وصفه ويجاوز به الحدّ ويتعصب له كما يتعصّب أهل القسم الأول عليه. وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحّر في المعارف العلمية ويفوق أهل عصره ويدين بالكتاب والسنّة، فإنه لا

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي، دركواناتك ولعلها تعني الحيل.

بدّ أن يستنكره المقصرون، ويقع له معهم محنة بعد محنة، ثم يكون أمره الأعلى وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره وهكذا حال هذا الإمام[1].

وأول ما أنكر عليه أهل عصره في شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨ هـ، أنكروا عليه شيئاً من مقالاته، فقام عليه الفقهاء وبحثوا معه ومُنع من الكلام. ثم طلب ثاني مرة في سنة ٧٠٥ هـ إلى مصر فتعصّب عليه بعض أركان الدولة، وهو بيبرس الجاشنكير، وانتصر له ركن آخر هو الأمير سلار، ثم آل أمره إلى أن حبس في خزانة البنود مدة ثم نقل في صفر سنة ٧٠٩ إلى الإسكندرية. ثم أفرج عنه وأعيد إلى القاهرة ثم أعيد إلى الإسكندرية، ثم حضر السلطان الناصر من الكرك فأطلقه، ووصل إلى دمشق في آخر سنة ٧١٢ هـ. وكان السبب في هذه المحنة أن مرسوم السلطان ورد على النائب بامتحانه في معتقده لما رُفع إليه من أمور تذكر في ذلك، فعقد له مجلس في سابع رجب، فسُئل عن عقيدته، فأملى منها، ثم أحضروا العقيدة التي تعرف بالواسطية فقرأ منها. وبحثوا في مواضع ثم اجتمعوا في ثاني عشره وقرروا الصفيّ الهندي يبحث معه. ثم أخروه وقدموا الكمال الزملكاني، ثم انفصل الأمر على أنه أشهد على نفسه أنه شافعي المعتقد، فأشاع أتباعه أنه انتصر، فغضب خصومه ورفعوا واحداً من أتباع ابن تيمية إلى الجلال القزويني نائب الحكم بالعادلية فعزّره، وكذا فعل الحنفي باثنين منهم. وفي ثاني عشر رجب قرأ المزي فصلاً من أفعال العباد للبخاري في الجامع، فسمع بعض الشافعية فغضب وقال نحن المقصودون بهذا، ورفعوه إلى القاضي الشافعي فأمر بحبسه، فبلغ ابن تيمية فتوجه إلى الحسن فأخرجه بيده، فبلغ القاضي، فطلع إلى القلعة فوافاه ابن تيمية فتشاجرا بحضرة النائب، فأمر النائب من ينادي أن من تكلم في العقائد فعل به كذا وقصد بذلك تسكين الفتنة[2].

سكن ابن تيمية القاهرة بعد أن شفع به الناصر، وتردد إليه الناس إلى أن توجه صحبة الناصر إلى الشام بنية الغزو سنة ٧١٢ هـ فوصل إلى دمشق، وكانت

---

(١) البدر الطالع للشوكاني م ١ ص ٦٥.

(٢) البدر الطالع للشوكاني م ١ ص ٦٦.

غيبته قد طالت عنها أكثر من سبع سنين، وتلقاه جمع كثير فرحاً بمقدمه، وكانت والدته إذ ذاك حية، ثم قاموا عليه في شهر رمضان سنة ٧١٩ هـ بسبب قوله إن الطلاق الثلاث من دون تخلل رجعة بمنزلة طلقة واحدة. ثم عقد له مجلس آخر في رجب سنة ٧٢٠ هـ ثم حبس بالقلعة ثم أخرج في عاشوراء سنة ٧٢١ هـ. ثم قاموا عليه مرة أخرى في شعبان سنة ٧٢٢ هـ بسبب مسألة الزيارة واعتقل بالقعلة فلم يزل بها إلى أن توفي في ليلة الاثنين لعشرين من شهر ذي القعدة سنة ٧٢٧ هـ بجامع دمشق.

قال ابن فضل الله: «لما قدم ابن تيمية على البريد إلى القاهـرة في سنة ٧٠٠ هـ، حضّ أهل المملكة على الجهاد وأغلظ القول للسلطان والأمراء، ورتبوا له كل يوم ديناراً وطعاماً فلم يقبل ذلك ثم حضره شيخنا أبو حيان فقال: ما رأت عيناي مثل هذا الرجل، ومدحه بأبيات ذكر أنه نظمها بديهة، منها:

لمـا أتـانـا تقـي الـدين لاح لـنـا داع إلـى الله فـرد مـا لـه وزرُ
على محيّـاه سيمـاء الأولى صحبـوا خيـر البـريـة نـور دونـه الـقمـر

وأضاف ابن فضل الله: ثم دار بينهما كلام فجرى ذكر سيبويه، فأغلظ ابن تيمية القول في سيبويه، فنافره أبو حيان وقطعه وصيرّ ذلك ذنباً لا يغفر. وسئل عن السبب فقال: ناظرته في شيء من العربية فذكرت له كلام سيبويه. فقال: ما كان سيبويه نبي النحو ولا كان معصوماً، بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعاً ما تفهمها أنت، فكان ذلك سبب مقاطعته إياه وذكره في تفسيره «البحر» بكل سوء، وكذلك في مختصره النهر.

وقال عنه ابن سيد الناس اليعمري: «إنه برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم ترَ عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه».

وقال الذهبي في بعض الإجازات: «قرأ القرآن والفقه، وناظر واستدل وهو دون البلوغ، وبلغ في العلوم والتفسير وأفتى ودرّس، وهو دون العشرين، وصنف التصانيف وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه».

وفي خبر وفاته ذكر ابن الوردي، قال[1]: وفيها في ليلة الاثنين والعشرين من ذي القعدة توفي شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم بن شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن عبدالله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني الحنبلي معتقلاً بقلعة دمشق وغسل وكفن وأخرج وصلى عليه أولاً بالقلعة الشيخ محمد بن تمام، ثم بجامع دمشق بعد الظهر، وأخرج من باب الفرج، واشتد الزحام في سوق الخيل، وتقدم عليه في الصلاة هناك أخوه، وألقى الناس عليهم مناديلهم وعمائمهم للتبرك، وتراص الناس تحت نعشه، وحزرت النساء بخمسة عشر ألفاً، وأما الرجال فقيل: كانوا مئتي ألف. وكثر البكاء عليه وختمت له عدة ختم وتردد الناس إلى زيارة قبره أياماً ورؤيت له منامات صالحة ورثاه جماعة.

وكانت له خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث وبالعالي والنازل والصحيح والسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، وهو عجيب في استحضاره واستخراج الحجج منه وإليه المنتهى في عزوه إلى الكتب الستة والمسند بحيث يصدق عليه أن يقال: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث». ولكن الإحاطة لله، غير أنه يغترف فيه من بحر وغيره من الأئمة يغترفون من السواقي. وأما التفسير فسلم إليه، وله في استحضار الآيات للاستدلال قوة عجيبة. ولفرط إسامته في التفسير وعظمة اطلاعه بيّن خطأ كثيراً من أقوال المفسرين، وكان يكتب في اليوم والليلة من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة والأوائل نحواً من أربعة كراريس، قال: وما يبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد.

تصانيف ابن تيمية

كتبه في التفسير: قاعدة في الاستعاذة. قاعدة في البسملة والكلام على الجهر بها. قاعدة في قوله تعالى إياك نستعين، وقطعة كبيرة من سورة البقرة في قوله تعالى: **﴿ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر﴾** ثلاث كراريس، في قوله تعالى: **﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾** كراسين، وفي قوله تعالى: **﴿يا أيها**

(1) تتمة المختصر في أخبار البشر م ٢ ص ٤٠٦، وذكر وفاته في سنة ٧٢٨ هـ.

الناس اعبدوا﴾ سبع كراريس، وفي **﴿إلاّ من سفه نفسه﴾** كراسة، آية الكرسي، كراسان، وغيرها في كثير من السور.

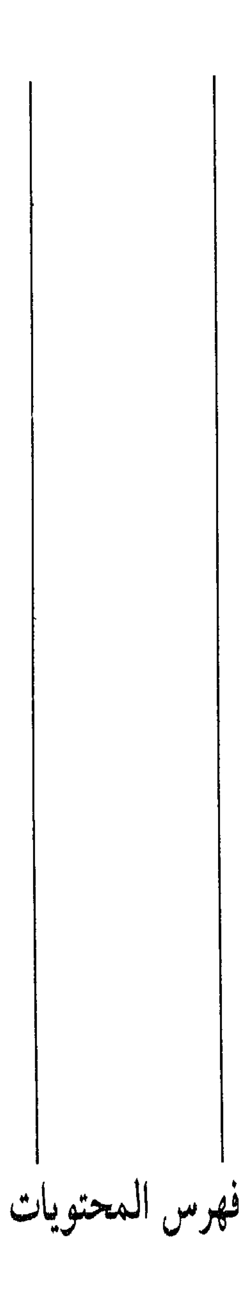
وفي الفقه له: شرح المحرّر في مذهب أحمد (لم يبيض). شرح العمدة لموفق الدين. جواب مسائل وردت من أصفهان. وجواب مسائل وردت من الأندلس. جواب مسائل وردت من الصّلت. أربعون مسألة لقبت الدرر المضية في فتاوي ابن تيمية. الماردانية. الطرابلسية. قاعدة في المياه والمائعات وأحكامهما. طهارة بول ما يؤكل لحمه. قاعدة في حديث القُلتين وعدم رفعه. نواقض الوضوء. التسمية على الوضوء. خطأ القول بجواز المسح على الخفين. تحريم دخول الحمام بلا مئزر. ذم الوسواس. جواز طواف الحائض. تيسير العبادات لأرباب الضرورات بالتيمّم والجمع بين الصلاتين للعذر. كراهية التلفظ بالنية وتحريم الجهر بها. الكلم الطيب في الأذكار. أهل البدع. الصلوات المبتدعة. تحريم السماع. الفرق المبين بين الطلاق واليمين. لمحة المختطف في الفرق بين الطلاق والحلف. التحقيق في الفرق بين الإيمان والتطليق. مناسك الحج. في العمرة المكية.

وله في أصول الفقه كتب وقواعد ورسائل كثيرة، وفي أنواع شتى، فقد جمع الناس فتاويه في الديار المصرية مدة مقامه بها سبع سنين فجاءت في ثلاثين مجلداً.

وله أجوبة وسؤالات كان يُسألها نظماً فيجيب عنها نظماً.

ومن نظمه على لسان الفقراء:

والله ما فقرنا اختيار … وإنما فقرنا اضطرار
جماعة لكنا كسالى … وأكلنا ما له عيار
تسمع منّا إذا اجتمعنا … حقيقة كلها فشار



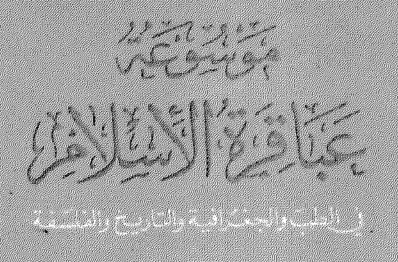
فهرس المحتويات

الفهرس(*)

(*) لم نفرد للمراجع والمصادر صفحة مستقلة في آخر الكتاب، على كثرتها، واكتفينا بذكر أسمائها في هوامش المتن.

عباقرة اللغة

عباقرة الفقه


موسوعة
عباقرة الإسلام
في الطب والجغرافية والتاريخ والفلسفة